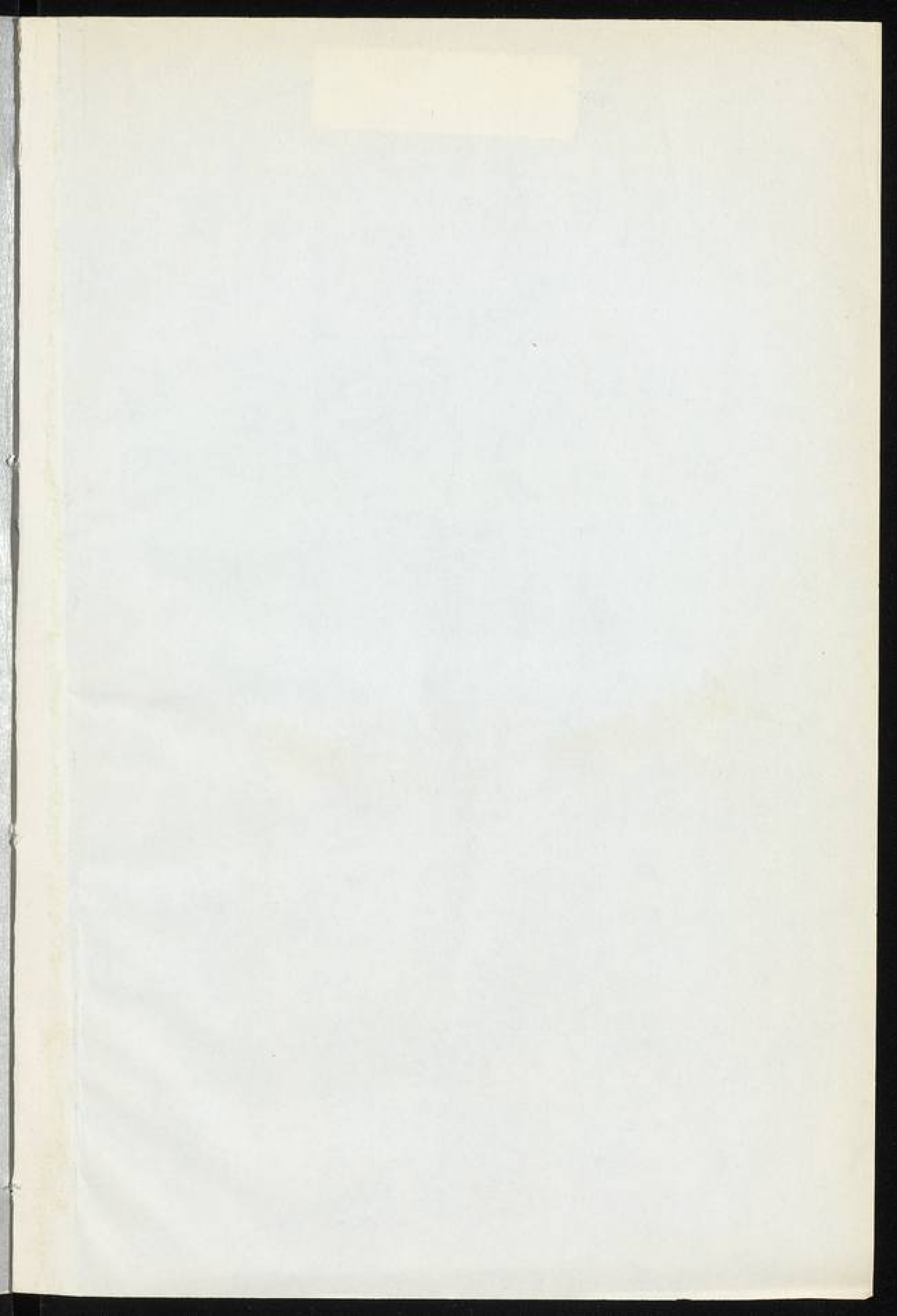
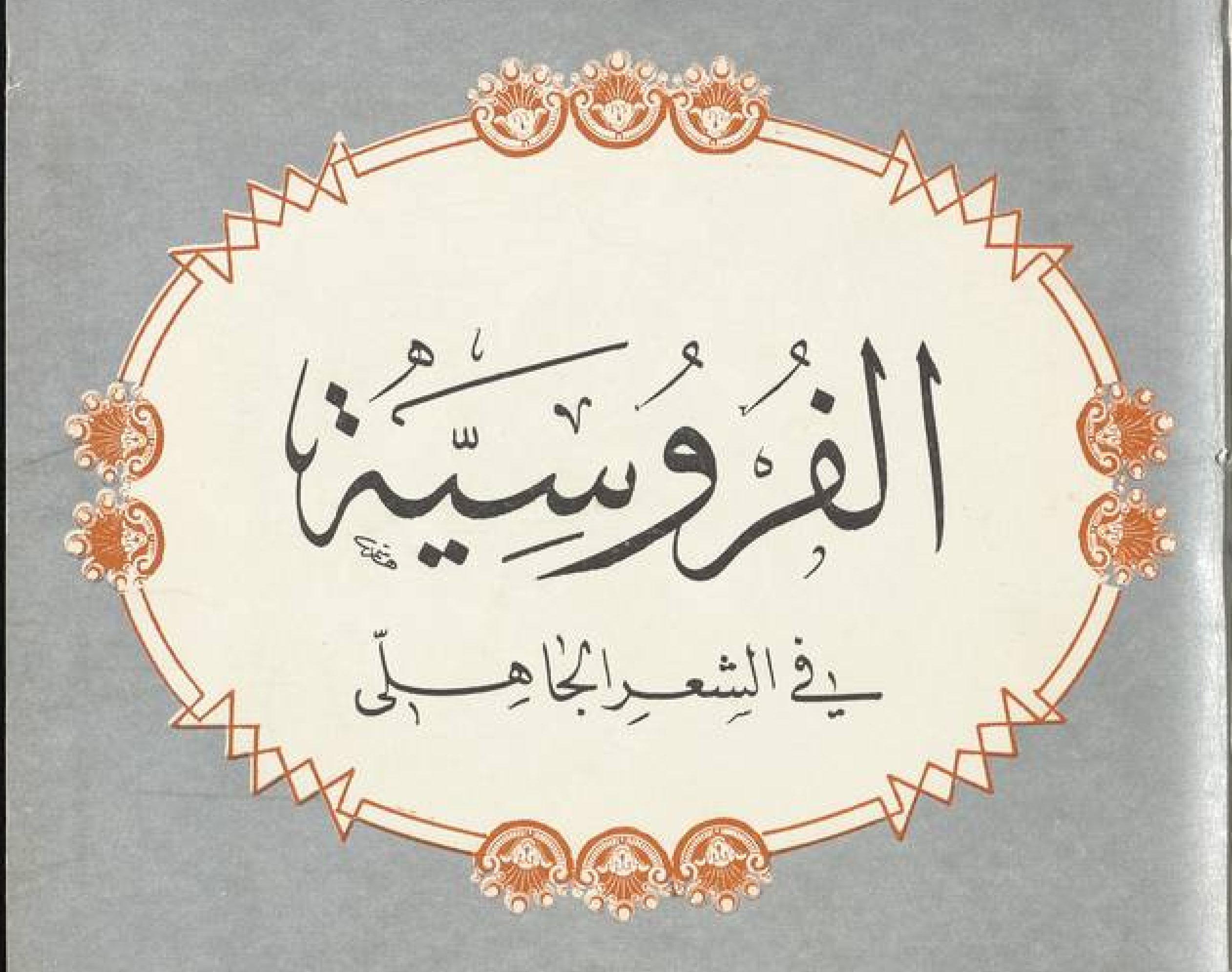
AL-QAYSI

AL-FURUSIYAH


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
PAIR>
32101 017763283



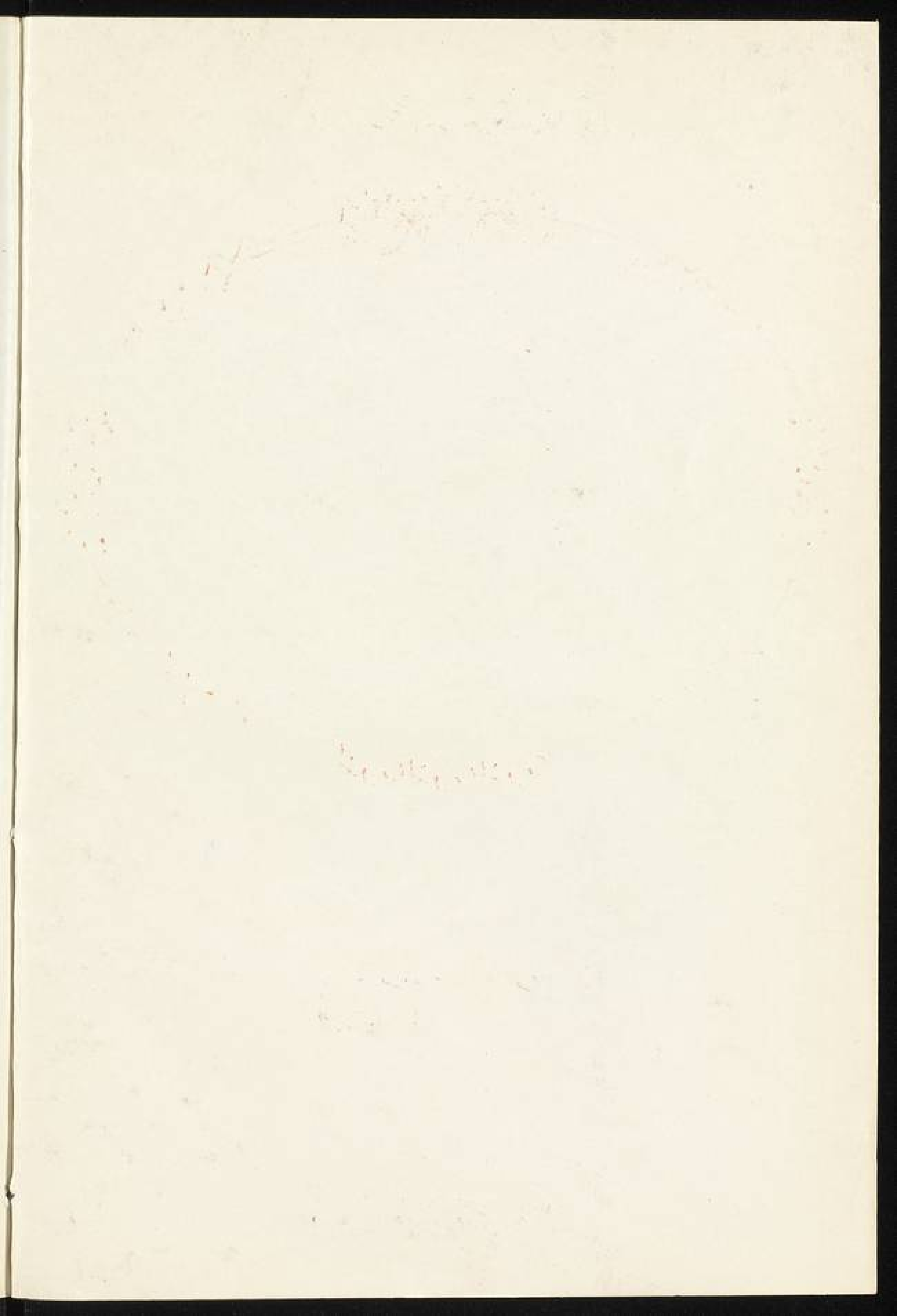
ساعدت جامعة بغداد على نشره



الفروسية في الشعر الجاهلي

نوري حمودي القيسي

منشورات - مكتبة النهضة - بغداد



الفروسية
في الشعر الجاهلي

ألطبعة الاولى / ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

طبع على مطابع دار التضامن - بغداد
١٩٦٤

al-Qaysī, Nūrī Ḥammūdī

نوري حمودي القيسي

al-Furūsīyah

الفروسية

في الشعر الجاهلي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

منشورات مكتبة النهضة بغداد

بحث نال به مؤلفه درجة الماجستير في الآداب من جامعة
القاهرة بتقدير جيد جدا .

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

لاستاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف

على الرغم من بساطة الحياة الادبية في العصر الجاهلي ، وعلى الرغم من ضيق المجال الذي كان الادب الجاهلي يدور فيه ، فان البحث في هذا الادب يُعَدّ عملا على قَدْرٍ كبير من المشقة والعناء . فالادب الجاهلي ادب صحراويّ مرتبط ارتباطا وثيقا بالبيئة الصحراوية التي عاش فيها ، وهي بيئة" بَعُدَ ما بيننا وبينها ، واسدل تطور الحياة فوقها ستارا صفيقا يحجبُ الرؤيا ويَرُدُّ البصر ، حتى أصبحت الصورة الماثلة أمامنا عنها في حاجة شديدة الى جهود الباحثين لتوضيح قسماتها وابراز ملامحها . والادب الجاهلي ـ بعد ذلك ـ أدب شفوي ، تناقلته شفاه الرواة عبر أجيال متطاولة ، فلم يصل الينا منه الا أقله ، أما أكثره فقد ضاع في اثناء تلك الرحلة الطويلة التي قطعتها قوافل الرواة من نقطة الانطلاق البعيدة في القرن الثاني قبل الاسلام من فوق رمال البادية الى نقطة النهاية في القرن الثاني بعده في مدن العراق ، وحتى هذا القليل

الذي وصل الينا من هذه الرحلة لم يَسْلَم من آثارها ، فقد وصل وهو يحمل معه أثقالا من التحريف والتغيير تارة ، ومن التزيد والانتحال تارة اخرى .

ولكن هذه الرحلة ــ رغم كل شيء ــ انتهت الينا وهي تحمل معها باكورة تلك الشجرة الطيبة التي غرستها البادية العريقة ، وتعهدتها بالرعاية حتى أينعت وآتت أُكُلَها ، شجرة الفن العربي الاصيل ... الشعر . ومع هذه الباكورة وصلت الينا أثارَةٌ من سحر البادية الغامض المثير وبقية من عطر أزهارها البَرِيَّة النَفَّاذ ، ومن هنا كنا نشعر بأننا مشدودون الى هذه الباكورة الشهية التي تمثل قطعة غالية من تراثنا وماضينا بوشائج متينة ، أو ــ على حد تعبير ابن الشعر الجاهلي امرىء القيس ــ « بأمراس كتّانٍ الى صُمِّ جندلِ » .

وعلى الرغم من هذه الوشائج والامراس التي تشدنا الى الشعر الجاهلي أشعر دائما بشيء من الاشفاق على اولئك الذين يَتَقَدِمون على البحث في هذا الشعر ، تقديرا لمشقة الطريق ، وادراكا لعناء الرحلة ، ولكن حبي له وفتنتي به يخففان دائما عن نفسي هذا الشعور بالاشفاق ، ويهوّنان أمامي تلك المشقة وهذا العناء . وبمقدار هذا الحب وبمقدار هذه الفتنة يكون ترحيبي برفاق القافلة الذين يَتَقَدِمون معي على اختراق هذه المَفَازَة ، مفازة الشعر الجاهلي التي «فيها الدليلُ يَعَضُّ بالخمْسِ» ــ كما يقول الشاعر القديم .

وموضوع « الفروسية » من الموضوعات المثيرة حقا في الشعر الجاهلي ، الجديرة بالبحث والدراسة ، لان الفروسية تمثل اللون الزاهي المشرق في الحياة الجاهلية والشعر الجاهلي جميعا ، ففيها تتركز أرفع المُثُل واكرمُ القِيَمَ التي عرفها المجتمع الجاهلي من ناحية ، ومنها استمد الشعراء أروع صورة رسموها في لوحاتهم الفنية من ناحية أخرى . ولكن هذا الموضوع ــ كسائر موضوعات الشعر الجاهلي ــ شائك وعسير ، بل لعله من أقواها شوكة وأشدها عسرا .

ومن هنا كنت أعاني ـ في بداية اتصالي بصاحب هذا البحث ـ من ذلك الصراع التقليدي الذي أعاني منه دائما مع كل دراسة لهذا الشعر بين الحب والاشفاق . وبين طرفي الصراع قبلتُ الاشراف على البحث ، مرحبًا برفيق الطريق الجديد الذي انضم الى القافلة المندفعة فوق الرمال وبين الشعّاب في كثير من الاحساس بالرضا،مع ادراكه لمشقة الطريق وعناء الرحلة .

ورحتُ أرقب الخطوات الاولى التي راح يخطوها في شيء غير قليل من الحماس والاندفاع ، وانا مقدّر أن هذه الخطوات ـ لو استقامت له ـ ستضع قدميه على بداية الطريق الصحيح . وكانت العقبة الاولى التي رحتُ أرقبه وهو يقتحمها مفهوم الفروسية في المجتمع الجاهلي ، وذلك لان هذا المفهوم شابه شيء من الاضطراب والغموض جاءه من تداخل مفاهيم الفروسية في العصور المتأخرة في بيئات غير عربية . وعندما رأيته يحدّد هذا المفهوم ، ويجرّده من كل هذه الشوائب الغريبة التي علِقَتْ به ، أيقنت ان الخطى قد استقامت له على الطريق .

والامر الذي لا شك فيه ان الباحث بذل جهدا ضخما في سبيل اخراج بحثه على الصورة العلمية الدقيقة ، وهو جهد يتمثل في هذا الحشد الضخم المتزاحم من نصوص الشعر الجاهلي التي تنتشر في بحثه انتشارا واسعا ، والتي اعتمد عليها في استخلاص نتائجه ، كما يتمثل في هذا العدد العديد من المصادر التي راح يستمد منها مادته العلمية والفنية في شيء كثير من الصبر على البحث ومكابدة مشقاته ، واستطاع بهذا ان يعرض صورة واضحة دقيقة للفروسية الجاهلية ، وان يصفي كثيرا من الشوائب الدخيلة التي علقت بتمثل بعض الباحثين لها . وفي ظني ان هذين العملين : العرض والتصفية هما أبرز ما حققه هذا البحث من نتائج .

وبعد ، فاني اهنيء الاستاذ نوري القيسي على بحثه هذا القيّم الخصب ، واقدّر له ما بذله في سبيله من جهد وعناء ، وأشهد بأنه كان جولة مرهقة في ميدان وعر فسيح ، ولكن صاحبه خرج منه فارساً كما دخله فارسا .

ومع ترحيبي برفيق القافلة الجديد في هذه الخطوة الاولى في رحلة الصحراء ، أتمنى له توفيقا وسدادا فيما يستقبل من خطى أخرى في هذه الرحلة وفي غيرها من الرحلات ، وان يكون دائما في كل خطوة يخطوها فارسا كما كان في هذه الخطوة فارسا .

يوسف خليف
استاذ الادب العربي المساعد
بكلية الآداب
جامعة القاهرة

القاهرة في { ٢٢ ذي الحجة ١٣٨٣
٥ مـــايو ١٩٦٤

المقدمة

(١)

لم تكن فكرة الكتابة عن الشعر الجاهلي فكرة طارئة اقتضتها ظروف معينة ، ولم يكن البحث في الفروسية الجاهلية بحثا فرضته علي مستلزمات الدراسة ، وانما كانت الاسباب التي دفعتني الى العمل ابعد من هذا التاريخ لانها اسباب نابعة من الواقع الذي رسمته لنفسي منذ فترة بعيدة ، وبدأ تاسلك الطريق للوصول اليه ، وكنت اعلمُ منذ ذلك الوقت بالعوائق الكثيرة التي تشمخ امام الباحث في هذه الفترة لكثرة ما شابها من الغموض والصعوبة والشك ورافقها من الاضطراب والقلق .

لقد برزت صعوبة البحث في الشعر الجاهلي منذ الايام الاولى التي بدأت فيها العمل ، وكانت مصادر البحث اول هذه الصعوبات فمن الحقائق الثابتة في هذا المجال،ان ما وصل الينا من الشعر الجاهلي لا يتكافأ بأي حال من الاحوال مع كثرة الشعراء الجاهليين ومع الفترة الزمنية التي عاشوها . ومرد ذلك يعود الى ضياع القسم الاكبر من هذا التراث واندثاره .

وحتى المصادر التي وصلت الينا لم تدرس الفترة الجاهلية على انها فترة ادبية مستقلة لها طابعها المتميز ، ولكنها تدرسها لتتخذ منها جسرا تنتقل عليه الى الفترات التي تعقبها وتعتمد الشعر الجاهلي

نماذج للمقابلة والموازنة والتمثيل والاستشهاد ، وبذلك كانت الصعوبة بالغة في البحث عن المصادر التي تعين الباحث على الكتابة وتساعده على تقديم البحث الكامل الدقيق .

اما الصعوبة الثانية التي يلمسها الباحث وتكاد تسد الطريق عليه ، فهي نظرية الشك في الادب الجاهلي ـ وان لم تكن مسألة الشك من المسائل الجديدة في عالم الادب وانما تمتد جذورها الى اصول عميقة ولكنها لم تصل الى ما وصلت اليه في عصرنا الحاضر ـ فقد تركت هذه النظرية اثارا عميقة في نفوس الباحثين وجعلتهم يتهيبون خوض غمار هذه الفترة او البحث في شعرها .

وصعوبة ثالثة تجابه الباحث في موضوع الفروسية خاصة وتقف دون تفهمه لمعنى الفروسية الجاهلية ، هي ما رافق هذه اللفظة من الاضطراب وشابها من التغيير والتحوير ، نتيجة ما اضفى عليها بعض الباحثين من اوصاف لتأثرهم الى حد ما بالفروسية التي انتشرت في العصور الوسطى في اوربا وفروسية المماليك ، كما حاول البعض ان يسبغ كثيرا من الصفات التي وجدت في فروسية المتأخرين على الفروسية الجاهلية الاصيلة التي تعد من مقومات الحياة العربية .

فالفروسية الجاهلية ليست نظاما معينا يفرض على اتباعه سلوكا خاصا ، وهي ليست فروسية عسكرية ، يتلقى فيها الفارس دروسا معينة ويدخل تدريبات مرسومة ليخرج منها فارسا يحمل شهادة تخوله الانخراط في صفوف هؤلاء الفرسان ، وانما هي مظهر من مظاهر الحياة نشأ عن عوامل اجتماعية واخلاقية وحربية ، وتطور على وفق اساليب معينة . وقد ساعدت على تطور هذا النظام فطرة عربية سليمة وجدت في قيم المجتمع الجاهلي هدفها الذي تسعى اليه .

وقد حاولت في دراستي هذه ابراز الصورة الحقيقية للفارس الجاهلي والقيم التي يحافظ عليها ويرعاها ويحميها ويدعو اليها بكل وسيلة من الوسائل كما تتمثل لنا في قصائد كثير من الشعراء الفرسان ،

كما حاولت اظهار هذه الطبقة من الناس التي رسمت في ادبنا الجاهلي اروع صور التضحية والاباء ورفعت ادبنا العربي الى اسمى درجات الكمال والنبل ...

(٢)

يقع البحث في ثلاثة ابواب ، وقد تحدثت في الباب الاول عن الفروسية في المجتمع الجاهلي وقسمته الى اربعة فصول .

الاول في مادة فروسية وما دارت عليه في كتب اللغة والمعاجم ووجدت انها تدور حول ثلاثة معان . احدها الحذق بامر الخيل وركوبها والثاني القتل ودق العنق والثالث التفرس والتثبت في النظر وانتهيت الى ان الفراسة والفروسة والفروسية التي هي الحذق بامر الخيل وركوبها والثبات عليها والتعرف على احوالها ، هو المعنى الحسي الاول للمعاني المتفرعة وان الفرس ودق العنق والقتل هو معنى حسي مجازي تال للمعنى الاول ، أما الفراسة بالكسر والتي تعني التثبت والتفرس والتأمل في الاشياء لادراك بواطنها فهو معنى ذهني تال ايضا للمعنى الاول .

اما استعمالها الادبي فقد وجدت من استعراضي للنصوص التي وردت فيها هذه الكلمة انها تمثل جانبين من جوانب الحياة الجاهلية ، جانب الحرب وجانب المثل العليا ، وهي في كلتا الحالتين بناء واحد وروح واحدة ، لان شخصية الفارس تملي عليه **ان يكون انسانا** سام مثله الى جانب بطولته ، ثم عقدت مقابلة بين الفروسية والفتوة وبينت فيها اوجه الشبه والاختلاف ..

ثم عقدت الفصل الثاني لبحث بواعث الفروسية وقد رأيت انها ترجع اساسا الى الطبيعة الصحراوية والمرأة والحرب وتمجيد البطولة وهي بواعث لعبت دورا اساسيا في اثارة حركة الشعر الحربي ، بما اثارته في نفوس الشعراء ، وما رسمته في اذهانهم من حب واعتزاز

وفخر وانتصار .

اما الفصل الثالث فقد خصصته لعناصر الفروسية المتمثلة في الخيل والسلاح ، وقد تحدثت عن الخيل باعتبارها من أولى معدات الحرب واشدها حاجة وقت الشدة وبما رافق ذلك من ثقة الفارس في فرسه ومحاورته له ، وتطرقت الى اهتمام العرب بالخيل ومعرفة شؤونها وأحوالها وأشكالها واوصافها والوانها وخلقها،وما استحب منها وما كره فيها ، ثم تحدثت عن السلاح باعتباره القوة التي يستند اليها الفارس والصديق الذي يناجيه الشاعر ويعجب به ويهتم بكل جزء من اجزائه ثم عرضت الى انواع الاسلحة التي استعملها الفرسان .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن تقاليد الفروسية واصولها وشاراتها وملابسها ، وتطرقت الى بعض العادات التي تعارف عليها الفرسان في معاركهم والاصول التي اتفقوا عليها والشعارات التي وضعوها كما تطرقت الى الملابس التي كانوا يرتدونها في المعارك .

اما الباب الثاني فقد بحثت فيه موضوع شعر الفروسية ، وقد تحدثت فيه عن اولية الشعر ، وقد وجدت ان الشعر الجاهلي لم يكن بدائيا ـ كما تصور البعض ـ وانما هو ثمرة ناضجة ، وطبيعي ان أتطرق الى نظرية الشك والانتحال التي اثيرت حول هذا العصر والتي بولغ فيها مبالغة اثارت الدهشة والاستغراب ولم احاول اثارة المناقشات الطويلة التي دارت حول هذا الموضوع وانما اكتفيت ببعض الاشارات التي اثبت فيها خطأ ما ذهب اليه بعض اصحاب هذه النظرية ، وقد قسمته الى ثلاثة فصول ، عرضت في الفصل الاول لمصادر الشعر الجاهلي التي يمكن الاعتماد عليها في البحث لصدق روايتها وثقة رواتها ، وخلصت الى ان المعلقات والمفضليات والاصمعيات والحماسات وجمهرة اشعار العرب والدواوين الشعرية الموثوقة روايتها ، اضافة الى الكتب الادبية والتاريخية التي تعتبر من مظان كتب اللغة وامهات مصادر الادب ، تعتبر بحق المصادر الاصلية في دراسة الشعر الجاهلي ،

اما الدواوين الشعرية وكتب الادب الاخرى التي تثار حولها الشكوك فمن الواجب النظر اليها بحيطة وحذر وتحفظ .

اما الفصل الثاني فقد عقدته لموضوعات شعر الفروسية وكان اول هذه الموضوعات الفخر والحماسة ، الغرضان اللذان امتزجا في تيار واحد فاستنفدا معظم الشعر الجاهلي وأمدا الشعراء بوقود جزل من التغني بالبطولات .

اما ثاني هذه الموضوعات فهو الهجاء الذي تبادله الفرسان وقد وجدت من استقصاء هذا النوع من الشعر انه لم ينحدر الى المستوى الذي نجده عند الشعراء المتأخرين ، فهوعفيف بعيد عن الاثارة والاقذاع وهو بعد ذلك اقرب الى اللوم منه الى الهجاء ..

وأخيرا تحدثت عن الرثاء الذي شغل جانبا عظيما من الشعر الجاهلي لاتصاله الوثيق بالحماسة ولانه رثاء ندب به الابطال في حومات القتال وعددت فيه مناقبهم وذكرت بطولاتهم .

اما الباب الثالث فقد تطرقت فيه الى نماذج من شعراء الفروسية . فكان الفصل الاول مخصصا للحديث عن الحب عند عنترة وتحدثت فيه عن عنترة الفارس الذي تمثلت فيه قيم الفروسية والبطولة ، ثم عنترة الانسان الذي تمثلت فيه المروءة الجاهلية بكل ما تنطوي عليه من انسانية، وعنترة العاشق اخيرا ذلك الذي يمثل بداية الحب العذري الذي ظهر عند العرب في العصور المتأخرة ، وانتهيت الى ان شعر عنترة يعتبر النواة المشرقة التي مهدت لظهور هذا النوع من الشعر فيما بعد .

وكان الفصل الثاني حديثا عن جانب الكرم عند حاتم الطائي ، وقد تحدثت في هذا الفصل عن حاتم فارسا يمثل جوانب الفروسية وبينت فلسفته في الكرم وقد حاولت ان أرد على بعض من فسّروا الكرم عند حاتم بانه سبيل الى الشهرة والدعاية ، وخلصت الى ان الكرم عنده طبيعة وفطرة واثبت ذلك بما وجدته ملائما من الشعر والحديث والرواية .

اما الفصل الثالث فكان عروة بن الورد والاشتراكية . وقد ناقشت في هذا الفصل اشتراكية عروة ، التي أضيفت الى اسمه ، وقد وجدت ان بعض الذين كتبوا عن عروة كانوا متأثرين بالنظريات الاشتراكيـة الحديثة . ومن هذا التأثير كانت نظرتهم الى عروة . وقد وجـدت ان اضفاء هذه الصفة على عروة ، يمثل نوعاً من اسـتعمال المصطلحات في غير ما وضعت له واختتمت الفصل بان عروة كان يمثل تيارا انسانيا يشق سبيله بقوة وعزم في خضم الحياة الجاهلية ..

(٣)

اما اساس المنهج الذي سلكته فكان يعتمد اولا على الدراسـة والاستقصاء للشعر الجاهلي الصحيح الذي يعالج الحرب وما يتعلق بها من موضوعات جانبية ، واعتبرت هذا النوع من اقوى ما نظـم الشعراء لانه يتصل اتصالا وثيقا بحياتهم التي عاشوها وقيمهم التي سعوا من أجل الحفاظ عليها، وهو بعد كل هذا السجل الحافل لامجادهم ومفاخرهم ، ولانه الصورة الحقيقية التي تعكس لنا تلك الامجـاد والمفاخـر ..

وقد كان اعتمادي في كل هذه الدراسة على طريقة تحليل النصوص واستقراء النماذج المتشابهة واستخلاص النتائج التي اجدها مطابقـة للبحث ومتفقة مع المثل التي سعى اليها الفرسان ، مسجلا من خلال ذلك الظواهر البارزة في حياة هذه الطائفة .

ثم مضيت الى هذا الشعر لاستجلي مظاهره ووقائعـه ومعانيه ، وكان لزاما علي ان اتطرق الى المصادر التي اعتمدتها في البحث ، محاولا الابتعاد عن كل مصدر يثار حوله الشك وتدار حول قصائده الشبهة فكانت المجاميع الشعرية التي اتفق المؤرخون على صحتها واجمعوا على كونها اوثق المجاميع دقة ورواية هي اساس بحثي هذا .

(٤)

وقد حاولت في دراستي هذه ان أحدد الزمن الذي اخترته لهذ الموضوع فكان بداية العصر الادبي الذي عرف الشعر الجاهلي ، او الذي امتدت معرفتنا به مضافا الى ذلك فترة ظهور الاسلام ، لان التقاليد الجاهلية كانت لا تزال باقية على حالها حتى هذا العصر وخاصة فيما يتعلق بأساليب القتال وتمجيد البطولة واستعمال السلاح والاهتمام بالخيل والحفاظ على التقاليد والابتعاد عن اقتراف مآثم الحرب .

وبعد ، فهذا ما تمكنت من تحقيقه في دراستي ، كما رأيته متمثلا في جوانب الحياة التي عالجتها ، والبحث هو بداية دراستي للعصر الجاهلي، ولا انكر ما في هذه الدراسة من نواقص ، ادعو الله العلي القدير أن اتبعها بدراسات تكملها وتسد النقص الذي وقع فيها .، وحسبي أن اكون قد اخلصت فيه وسعيت بكل ما استطيع الى كماله وهذا ما يخفف عني عناء البحث ومشقة العمل وصعوبة المسلك .

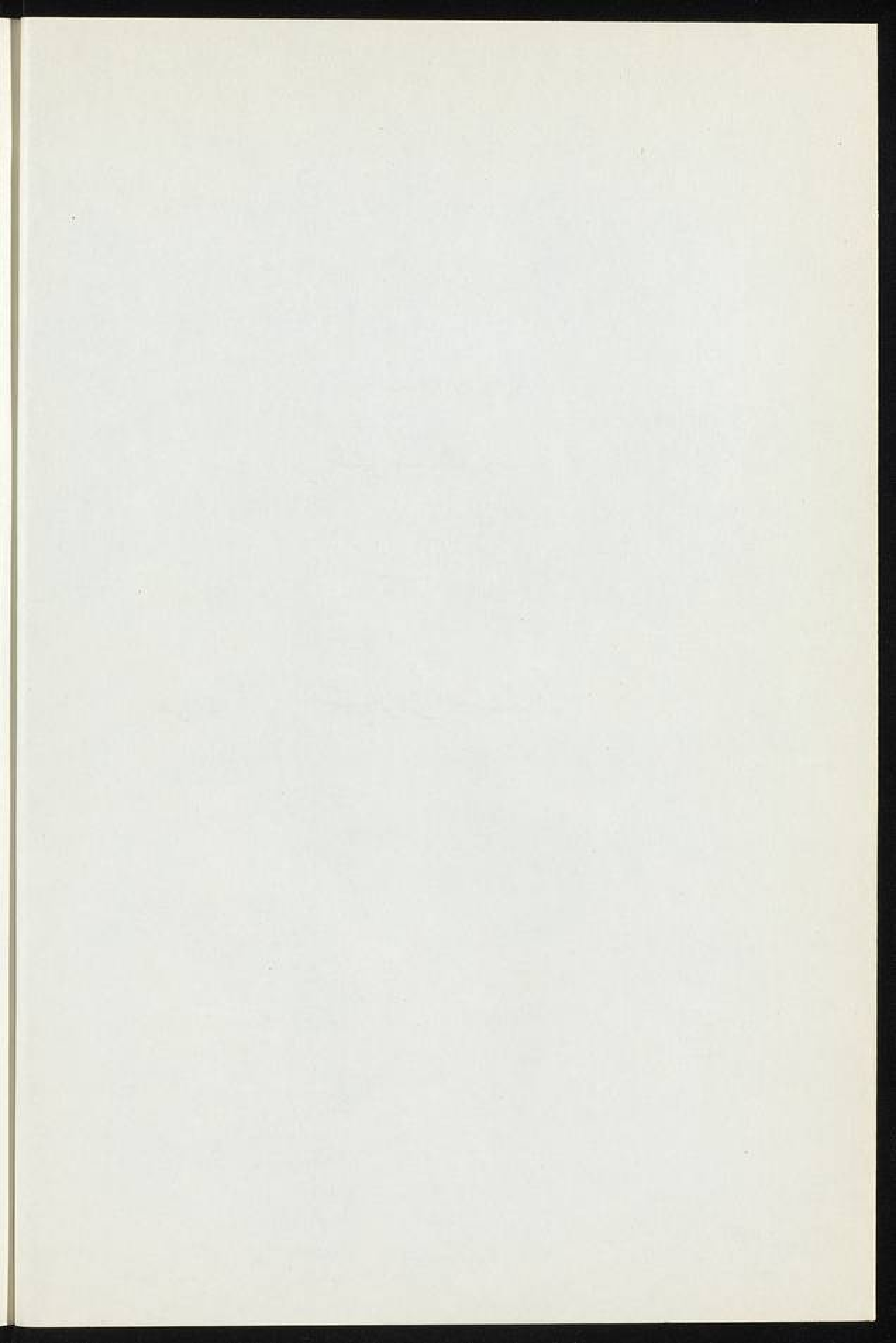
ولا يسعني في الختام الا ان اقدم جزيل شكري الى اساتذتي الافاضل الذين أسهموا في بناء هذا البحث بما ابدوه من ملاحظات ثمينة وتوجيهات سديدة ، خاصا بالذكر منهم استاذي الجليل الدكتور يوسف خليف الذي لم يأل جُهدا في رعايتي والاخذ بيدي وتوجيهي ، وعضوي لجنة المناقشة الفاضلين الدكتور شوقي ضيف والدكتور عبد الحميد يونس اللذين تجشما قراءة رسالتي وتفضلا بالحضور لمناقشتي فيها ، وكذلك الاخوة الاستاذ الفاضل احمد ناجي القيسي والدكتور احمد مطلوب والاستاذ سامي مكي العاني لمعاونتهم لي خلال بحثي بما اشاروا به علي من ملاحظات .. ولا يفوتني في الختام الا ان أقدم الشكر الوافر لموظفي مكتبة الدراسات الاسلامية في بغداد كافة الذين كانوا لي خير عون في تقديم ما احتاج اليه من المراجع والمصادر جزاهم الله جميعا عني خيرا ، انه الموفق وانه نعم المولى ونعم النصير .

نوري حمودي القيسي

القاهرة في { ٨ رمضان ١٣٨٣
٢٢ كانون الثاني ١٩٦٤ }

البَابُ الأَوَّل

الفُرُوسِيَّة



الفصل الأول

التعريف بالفروسية
في المعاجم وكتب اللغة

في الصحاح (١)

فرس الاسد فريسته يفرسها فرسا ، وافترسها ، أي دق عنقها ، واصل الفَرْس هذا ، ثم كثر واستعمل حتى صير كل قتل فرسا . وقد نُهِيَ عن الفرس في الذبح وكسر عظم الرقبة قبل أن تبرد .

قال أبن السكيت : فرس الذئب الشاة فرسا ، وافرس الراعي ، أي فرس الذئب شاة من غنمه . قال : وافرس الرجل الاسد حماره ، اذا تركه ليفترسه وينجو هو . وابو فراس كنية الاسد .

وفي لسان العرب (٢)

فرس الذبيحة يفرسها فرسا قطع نخاعها وفرسها فرسا فصل عنقها ويقال للرجل اذا ذبح فنخع قد فرس وقد كره الفرس في الذبيحة ، والفرس أن تدق الرقبة قبل ان تُذبح الشاة وفرس الشيء فرسا دقه وكسره والاصل في الفرس دق العنق ثم كثر حتى جُعل كل قتلٍ فرساً.

---

(١) مادة (فرس) ص ٩٥٤ .

(٢) مادة (فرس) الجزء الثامن ص ٤٠ .

وفي المحيط(٣)

الفراس الاسد وفرس فريسته يفرسها دق عنقها وكل قتل فرس والفريس القتيل •

وفي تاج العروس(٤)

الفرس واحد الخيل سمي به لدقه الارض بحوافره واصل الفرس الدق كما قال الزمخشري واشار له ابن فارس •

والفراس الاسد كل ذلك مأخوذ من الفرس وهو دق العنق والفراس للمبالغة ويوصف به فيقال اسد فراس كثير الافتراس وفرس فريسته يفرسها دق عنقها وقال ابو عبيد الفرس : الكسر وكل قتل فرس والاصل فيه دق العنق وكسرها وقد فرس الذئب الشاة فرسا اخذها فدق عنقها والفريس كأمير القتيل يقال ثور فريس وبقرة فريس جمعها فرسى كقتلى •

وابو فراس كنية الاسد وكذلك ابو فراس وافترسه الذئب اصطاده وقيل قتله ومنه فريسة الاسد وفرس الذبيحة فرسا قطع نخاعها او فصل عنقها وافترس السبع الشي وفرسه اخذه فدق عنقه •

هذا هو الاصل الاول لكلمة الفروسية وقد وردت لها مفاهيم اخرى نستطيع ان نلمسها من خلال المعاني والاشتقاقات الموجودة في المعاجم فقد جاء في الصحاح(٥)

الفَرَس يقع على الذكر والانثى ، ولا يقال للانثى فرسة • وتصغير الفرس فريس وان اردت الانثى خاصة لم تقل الا فريسه بالهاء، عن ابي بكر بن السراج والجمع افراس ،

وراكبه فارس ، وهو مثل لابن وتامر ، اي صاحب فرس ويجمع

---

(٣) مادة (فرس) الجزء الثاني ص ٢٣٦ •
(٤) مادة (فرس) الجزء الرابع ص ٢١٥ •
(٥) مادة (فرس) ص ٩٥٤ •

على فوارس وهو شاذ لا يقاس عليه لان فواعل انما هو جمع فاعلة مثل ضاربة وضوارب او جمع فاعل اذا كان صفة للمؤنث مثل حائض وحوائض . اما مذكر ما يعقل فلم يجمع عليه الا فوارس وهوالك ونواكس ، فاما فوارس فلأنه شيء لا يكون في المؤنث فلم يُخفَ فيه اللبس ، واما هوالك فانما جاء في المثل ، يقال « هالك في الهوالك » فجرى على الاصل لانه قد يجيء في الامثال ما لا يجيء في غيرها واما نواكس فقد جاء في ضرورة الشعر قال ابن السكيت : اذا كان الرجل على حافر بِرَذْونا كان او فرسا او بغلا او حمارا ، قلت مر بنا فارس على بغل ، ومر بنا فارس على حمار ، قال الشاعر :

واني امرؤ للخيل عندي مزية　　على فارس البرذون او فارس البغل

وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير لا أقول لصاحب البغل : فارس ولكني أقول بغّال ولا اقول لصاحب الحمار : فارس ولكني أقول : حمّار .

والفَراسة بالفتح : مصدر قولك رجل فارس على الخيل بيّن الفَراسَة والفروسية . وقد فَرُسَ بالضم يفرُس فروسة وفَراسَة أي حذق أمر الخيل .

وفي لسان العرب(٦)

الفَرَس واحد الخيل والجمع افراس الذكر والانثى في ذلك سواء ولا يقال للانثى فيه فرسة قال ابن سيده واصله التأنيث فلذلك قال سيبويه وتقول ثلاثة افراس اذا اردت المذكر الزموه التأنيث وصار في كلامهم للمؤنث اكثر منه للمذكر حتى صار بمنزلة القدم قال وتصغيرها فريس نادر وحكى ابن جنى فرسه . الصحاح وان اردت تصغير الفرس الانثى خاصة لم تقل الا فريسه بالهاء عن ابي بكر بن السراج والجمع

---

(٦)　مادة (فرس) الجزء الثامن ص ٣٨ .

افراس وراكبه فارس مثل لابن وتامر ..

والفارس صاحب الفرس على ارادة النسب والجمع فرسان وفوارس وهو احد ما شذ من هذا النوع فجاء في المذكر على فواعل .

والفراسة بالفتح مصدر قولك رجل فارس على الخيل الاصمعي يقال فارس بيّن الفروسة والفراسة والفروسية .

وقد فَرُسَ فلان بالضم يَفرُس فروسة وفَراسَة اذ حذق أمر الخيل قال وهو يتفرس اذا كان يرى الناس انه فارس على الخيل .

يقال رجل فارس بين الفُرُوسة والفَراسَة في الخيل وهو الثبات عليها والحذق بامرها والفراسة بالفتح العلم بركوب الخيل وركضها من الفروسية قال والفارس الحاذق بما يمارس من الاشياء كلها وبها سمي الرجل فارسا .

ابن الاعرابي فارس في الناس بيّن الفِراسة والفَراسَة وعلى الدابة بين الفروسية والفروسة لغة فيه .

وفي المحيط (٧)

والفِراسة بالكسر اسم من التفرس وبالفتح الحذق بركوب الخيل وامرها كالفروسة والفروسية .

وفي تاج العروس (٨)

الفرس واحد الخيل وراكبه فارس اي صاحب فرس على ارادة النسب كلابن وتامر قال ابن السكيت اذا كان الرجل على حافر برذونا كان او فرسا او بغلا او حمارا قلت مر بنا فارس على بغل ومر بنا فارس على حمار قال الشاعر ..

واني امرؤ للخيل عندي مزية   على فارس البرذون او فارس البغل

---

(٧) مادة (فرس) الجزء الثاني ص ٢٣٦ .

(٨) مادة (فرس) الجزء الرابع ص ٢١٥ .

وجمعها فرسان وفوارس وهو احد ما شذ في هذا النوع ..

والفَراسَة بالفتح الحذق بركوب الخيل وامرها وركضها والثبات عليها وقال الاصمعي يقال فارس بين الفروسة والفراسة والفروسية وقال ابن الاعرابي والفراسة على الدابة بين الفروسية وقال ابن القطاع وفرس الخيل فروسة وفروسية احكم ركوبها .

وفي المخصص(٩)

الفرس واحد الخيل والجمع افراس الذكر في ذلك والانثى سواء واصله التأنيث وتصغيره بهاء وغير هاء . وحكى ابن جنى فرسه فان كان كذلك فانما ذهبوا الى التوثق من التأنيث ، ابن السكيت : الفارس صاحب الفرس على ارادة النسب والجمع فرسان وفوارس وهو احد ما شذ من هذا الضرب والمصدر الفَراسة والفُروسة .

وقد جاءت الكلمة على معان اخرى غير المعاني المتقدمة فقد جاء في الصحاح (١٠) . والفِراسة بالكسر : الاسم من قولك تفرست فيه خيرا وهو يتفرس ، اي يتثبت وينظر . تقول منه : رجل فارس النظر وفي الحديث اتقوا فِراسة المؤمن .

وجاء في لسان العرب (١١)

والفِراسة بالكسر الاسم من قولك تفرست فيه خيرا وتفرس فيه الشيء توسمه والاسم الفراسة بالكسر وفي الحديث اتقوا فراسة المؤمن قال ابن الاثير يقال بمعنيين احدهما ما دل ظاهر الحديث عليه وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب اوليائه فيعلمون احوال بعض الناس بنوع من الكرامات واصابة الظن والحدس والثاني نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والاخلاق فتعرف به احوال الناس وللناس فيه

---

(٩) المخصص السفر السادس ١٣٥ .

(١٠) مادة (فرس) ص ٩٥٥ .

(١١) مادة (فرس) الجزء الثامن ص ٤٠

تصانيف كثيرة قديمة وحديثة واستعمل الزجاج منه افعل فقال افرس الناس اي اجودهم واصدقهم فراسة ...

وهو يتفرس اي يتثبت وينظر تقول منه رجل فارس النظر . واذا فارسا بعينه ونظره فهو بين الفراسة بكسر الفاء ويقال ان فلانا لفارس بذلك الامر اذا كان عالما به ..

وجاء في المحيط (١٢)

والفراسة بالكسر اسم من التفرس وتفرس تثبت ونظـر وارى الناس أنه فارس .

وفي تاج العروس (١٣)

والفِراسة بالكسر اسم من التفرس وهو التوسم يقال تفرس فيه الشيء اذا توسمه وقال ابن القطاع الفراسة بالعين ادراك الباطن وبـه فسر الحديث اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله . وقال الاصمعي واذا كان فارسا بعينه ونظره فهو بين الفِراسة بالكسر وقال ابن الاعرابي فارس في الناس بيّن الفراسة .

وتفرس الرجل اذا تثبت وتأمل للشيء ونظر تقول منه رجل فارس النظر اذا كان عالما به ويقال انا افرس منك اي ابصر وأعرف .

وقال الزجاج افرس الناس فلان اي اجودهم واصدقهم فراسة .

هذه هي أهم المعاني التي وردت للفظة فرس ومشتقاتها في المعاجم وتستطيع تلخيصها فيما يأتي :

١ـ الفراسة والفروسة والفروسية وهي الحذق بأمر الخيـــل وركوبها والثبات عليها والتعرف على احوالها وهي المعنى الحسي الاول للمعاني المتفرعة .

---

(١٢) مادة (فرس) الجزء الثاني ص ٢٣٦

(١٣) مادة (فرس) الجزء الرابع ص ٣٠٧

٢ـ الفرس : دق العنق والقتل وهذا معنى حسي مجازي تالٍ للمعنى الاول .

٣ـ الفراسة بالكسر وهي التفرس والتثبت في النظر والتأمل في الاشياء لادراك بواطنها وهذا معنى ذهني تالٍ ايضا للمعنى الاول.

ويؤيدنا في هذا ابن فارس حيث يرى أن الفاء والراء والسين أُصيل يدل على وطء الشيء ودقه . يقولون : فرس عنقه ، اذا دقها ويكون ذلك من دق العنق من الذبيحة . ثم صير كل قتل فرسا ، يقال فرس الاسد فريسته وأبو فراس : الاسد ، وممكن ان يكون الفرس من هذا القياس لركله الارض بقوائمه ووطئه اياها ثم سمّى راكبه فارسا . يقولون هو حسن الفروسية والفراسة ومن الباب : التفرس في الشيء ، كاصابة النظر فيه وقياسه صحيح[14] .



معنى الفروسية في النصوص الجاهلية :

لقد حفل الشعر الجاهلي بالحديث عن الفروسية لانها كانت الطابع المميز للحياة الجاهلية والسمة الغالبة على طبائع العرب ولأنها مجموعة المثل الرفيعة والبطولات الحربية التي ترددت على ألسنة الشعراء الفرسان وتجاوبت أصداؤها في أطراف الصحراء الواسعة وامتدت معانيها امتداد الرمال ، فكانت اسلوب الحياة لمختلف الناس دون تمييز ، يعبرون عنها بما يتناسب ومفهومها عندهم .

والفروسية مظهر من مظاهر الحياة نشأ نتيجة عوامل اجتماعية واخلاقية وحربية معينة وتطور وفق أساليب حيوية شاملة ، وقد ساعدت على تطوره فطرة عربية سليمة وجدت في المثل السامية قيمها الحقيقية وهدفها الذي تسعى اليه .

---

(١٤) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ٤/٤٨٥

ولم يكن هذا المظهر الا حصيلة الطبيعة الصحراوية الواسعة التي أكسبت العربي القوة والصبر والشجاعة والكرم والمروءة وكل المثل التي يحاولها الفرد في حياته • وقد تميزت هذه الظاهرة بميزات واضحة وأصبحت لها تقاليد معروفة حمل لواءها اولئك الفرسان الاماجد الذين تألقت اسماؤهم في عالم الانسانية كأروع أمثلة للتضحية والكرم والبطولة •

فالفارس الجاهلي يتغنى بالحرب ويترنم بنشيدها فتنطلق اساريره حلوة باسمة لتلتقي على متاهات الرحاب فاذا اشتدت الخطوب وتعاظمت الامور وعلا غبار المعركة وتنادت الخيل وأسرعت الى بعضها البعض تجد فرسانا كراما لا تمل الحروب ولا تعدل عنها ، وسوف يظهر من بلائهم ما يستدل به على حسن صبرهم وثباتهم في جلادهم يستجيبون لصراخ المستنجد تعجلا لغوثه ويلبون النداء دفاعا عن صاحبه ، وفي ذلك يقول الافوه الاودي (١٥) :

واذا الامور تعاظمت وتشابهت فهناك يعترفون أين المفزع ؟
واذا عجاج الموت ثار وهلهلت فيه الجياد الى الجياد تسرع
بالدارعين كأنها عصب القطا الاسراب تمعج في العجاج وتمزع
كنا فوارسها الذين اذا دعا داعي الصياح به اليه نفزع
كنا فوارس نجدة لكنها رتب فبعض فوق بعض يشفع

والنابغة الذبياني يخاطب عامر بن الطفيل فيرسم له صورة الفارس الجلد الصبور الحاذق بركوب الخيل العارف بامورها ، يستوي على السرج ويثبت في المعركة ويقتحم سعيرها وهو يتأجج قوة ويفيض حماسة ، فيقول (١٦) :

---

(١٥) ديوان الافوه الاودي ص ١٩ . في مجموعة الطرائف الادبية. تحقيق عبد العزيز الميمني .

(١٦) الأعلم : مختار الشعر الجاهلي ١٩٣/١

فان تكن الفوارس يوم حسى أصابوا من لقائك ما أصابوا[١٧]
فوارس من منولة غير ميــل ومرة فوق جمعهم العُقاب[١٨]

وقيس بن الخطيم يفخر بانتصاره في موضع الردم وتركه الخصوم وهم بـين قتلى ومشردين بعد أن أتاهـم وقت الصباح بفرسان كرمت أخبارهم وحسن بلاؤهم ، يحمون الذمار فيقول[١٩] :

فانا تركناكم لدى الردم غـدوة فريقين مقتولا بـه ومطرّدا[٢٠]
صبحناكم منـا بـه كل فـارس كريم النثا يحمي الذمار ليُحمدا[٢١]

وعنترة فارس بني عبس تتمثل في شخصه بطولة الفارس الحربية وترتفع في نفسه العفة والكرامة ، فالجوع المميت والمستديم ليل نهار يطويه الفارس ويقنع به حتى ينال المأكل الكريم الخالي مـن العيوب والمثالب ، وهو المقدم في أهوال الحرب ، مقتحما مصائبهـا في الوقت الذي يحجم بقية الفرسان ويزوّر الجبان المذعور لشدتها وهولها ، ثم ترمق عيون الابطال باجلال الفارس الحـامي ليشد الجموع ويلـم الفرسان ، وهناك يقف الصامد ويثبت الشجاع فيستمد من نسب أمه الذي يطعن به القوة والجلد والاندفاع لاثبات علو نسبه وأصالـة فروسيته . وهو كما يعلمه الفرسان تعلمه الخيول لانه أذاق فرسانها المرارة والبطش فتميزت علاماته ووضحت شخصيته لانـه في مقـدم الرعيل وعلى رأس الكتيبة لا يعرف التواكل ولا الهزيمة وانما هو

---

(١٧) يوم حسى : كان لبني بغيض بن ذبيان على عامر بن الطفيل : قتل فيه اخوه حنظلة بن الطفيل .
(١٨) منولة : اسم ام حي من العرب ومرة هو ابن عوف بن سعد بن ذبيان وميل جميع اميل ، وهو الذي لا يستوي على السرج أو الجبان او الذي لا رمح له أو الذي لا ترس له ، والعقاب : الراية .
(١٩) الأعلم : مختار الشعر الجاهلي ٥٩٠/٢.
(٢٠) الردم : موضع . مطرد : مشرد .
(٢١) صبحناكم : اتيناكم في وقت الصباح . النثا : السمعة وما اخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء ـ الذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته.

الذي يحمي القوم ويدفع عنهم الذل والهوان [٢٢] :

ولقد أبيت على الطوى وأظلّه   حتى أنال بـه كريـم المأكل [٢٣]
واذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت   ألفيتُ خيرا من مُعمٍ مخول [٢٤]
والخيـل تعلـم والفوارس أنني   فرقت جمعهم بطعنة فيصل [٢٥]
اذ لا أبادر في المضيـق فوارسي   ولا أوكـل بالرعيل الاول [٢٦]
ولقد غدوت أمـام رايـة غالب   يوم الهياج وما غدوت بأعزل [٢٧]

والحُصين بن الحُمام المُري الـذي يعـد مـن اوفياء العرب وفرسانهم يظفر بخصومه فيهزمهم ويقتـل منهم فيكثر فتعلوه نشوة النصر فينطلق مفتخرا بظفره وشجاعته واستهانته بالمـوت ويصر على هجاء خصومه ويذكرهم بفارسهم الذي قتله امعانا في التحريض والهابا لتأجيج جذوة الحقد ، فيقول [٢٨] :

فلست بمبتـاع الحيـاة بسبـة   ولامبتغ من رهبة الموت سُلّما [٢٩]

---

(٢٢) الأعلم أ مختار الشعر الجاهلي ٣٨٨/١
(٢٣) الطوى : خمص البطن . قال الاصمعي : ابيت بالليل على الطوى واظل النهار كذلك . حتى أنـال به كريم المأكل : اي ما لا عيب فيه علي .
(٢٤) الكتيبة : الجماعة اذا اجتمعت ، واحجمت : جبنت وضعفت . تلاحظت : نظر الابطال بلحاظ عيونهم الى البطل الحامي الذمار ومعم مخول : بصيفتي اسم الفاعل والمفعول كريم الاعمام والاخوال .
(٢٥) الفيصل : الفاصل بين القوم المفرق لجموعهم .
(٢٦) كذا بديوان عنترة بطبعاته المختلفة . والبيت بهذا الشـكل غير مستقيم الوزن . لا أبادر فوارسي : اي لا اكون أول منهزم ، فلا أسبق الفرسان ، ولكن اكون وراءهم أحمي عورتهم ، والرعيل : الجماعة من الخيل والناس وغيرهم .
(٢٧) غالب : حامل رايته . الاعزل : هو الذي لا سلاح معه .
(٢٨) المفضل : المفضليات ٦٧/١ طبع دار المعارف .
(٢٩) يقول لا اشتري الحياة بما اسب عليه ولا اطلب النجاة من الموت . فلا مهرب منه فمن علم انه ميت لا محالة لم يحتمل المذلة .

ولكن خذوني أي يوم قـدرتم   علي فحزوا الرأس أن أتكلما [٣٠]
بآية أني قـــد فجعتُ بفارس   اذا عردالاقوام اقدمَ مُعلِما[٣١]

وهذا الاعشى الكبير يفتخر بقومه بعد انتصارهم على بني سيار رعاية لحماهم ودفاعا عن عرضهم الذي استبيح وانتصارا لفطيمة التي أهانها بنو سيار وحلقوا لها شعر رأسها وهذا ما جعل القبيلة تجد في هذا العمل تحـديا لابائها وذلا لعزها ومجدها فهبت تدفع عنهـا الضيـم والاذلال [٣٢] :

كــلا زعمتم بانا لا تقاتلـــكم   انا لامثـالكم يا قومنا قُتُــل
نحن الفوارس يوم العين ضاحيةً   جنبي(فطيمة)لا ميلولا عزل[٣٣]
قالوا الركوب فقلنا تلك عـادتنا   أو تنزلون فانا معشر نزُلُ[٣٤]

من هذه النصوص نستطيـع أن نـدرك المفهوم المتداول لمعنى الفروسية في العصر الجاهلي كما صورتـه لنا تلـك النصوص ، فهي البطولة في الحرب والبلاء في المعركة والعفة عند توزيع الغنائم واطعـام الضيـف وحمايـة الحقيقة والذود عن المرأة وتلبيـة دعوة المستغيث واستجابة لصرخة المنادي ، الى غير ذلك مما تستوجبه النخوة ويتطلبه الشعور الانساني .

وهكذا كانت الفروسية تمثـل لنا جانبين مـن جوانب الحيـاة الجاهلية جانب الحرب وجانب المثل العليا لانهما بناء واحد وروح واحدة

---

(٣٠) فمتى وجدتموني فخذوني وحزّوا راسي حتى لا اتكلم ، والمعنى اني اقول فيكم واهجوكم واذمكم ما حييت .
(٣١) الآية : العلامة . فجعت : فجعتكم بقتل فارس منـكم . عرد : هرب . المعلم الذي يجعل لنفسه علامة في الحرب يعرف بها .
(٣٢) الأعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/١٠٧
(٣٣) ضاحية : ظاهرة . ميل : واحدها أميل وهو الـذي يميـل على السرج ولا يثبت في الحرب .
(٣٤) ان قاتلتم بالرماح وانتم راكبين فتلك عادتنا وان نزلتم تجالدون بالسيوف نزلنا .

وان ظهرت بمظهرين متلازمين وشكلين مترابطين ، فشخصية الفارس البطل تملي عليه ان يكون انسانا ساميا في مثله الى جانب بطولته . والحياة الجاهلية بطولة متصلة وحماسة متشابكة يكمل الجزء منها بقية الاجزاء وتجتمع الاسس ليقوم عليها البناء الشامخ الذي احتضن الفروسية بكل مفاهيمها ومعانيها .

الفروسية والفتوة :

لا بد لنا ونحن نتحدث عن معنى الفروسية أن نتطرق الى الفتوة في العصر الجاهلي لتقارب مفهومها من مفهوم الفروسية في هذا العصر ونشير الى الدلالات التي استعملت فيها مستعينين بالنصوص الادبية لاستخلاص المعاني التي مرت بها هذه الكلمة والاوضاع المختلفة التي وردت عليها ... وتدور هذه المادة في اللغة حول معنيين اساسيين . الشباب من ناحية والكرم من ناحية اخرى . وكأنهم ـ كما يلاحظ الاستاذ احمد امين ـ لما لاحظوا في الفتوة الشباب والقوة لاحظوا ان القوة أكثر ما تستبد في وسطهم من الكرم والحرية (٣٥) .

فقد جاء في الصحاح (٣٦)

الفتى : الشاب . والفتاة : الشابة ، وقد فتِي بالكسر يفتي فتى فهو فتي السن بيّن الفتاء .

وجاء في اللسان (٣٧)

الفِتاء ، الشباب والفتى والفتية الشاب والشابة والفعل فتَو يفتو فتاء ويقال افعل ذلك في فتائه وقد فتى بالكسر يفتي فتى فهو فتى السن بين الفتاء .

---

(٣٥) احمد امين : الصعلكة والفتوة في الاسلام ص ١١
(٣٦) مادة (فتى) الجزء السادس ص ٢٤٥١
(٣٧) مادة (فتا) الجزء العشرون ص ٣

وفي المحيط[٣٨]

الفتاء كسماء الشباب والفتى الشاب .

هذا ما ورد من معاني المادة التي تدل على الشباب والفتوة والنشاط والحيوية والشجاعة ، اما ما ورد منها في المعنى الثاني المتضمن معنى الكرم والسخاء فقد جاء في الصحاح [٣٩] :

الفتى : السخي الكريم . يقال : هو فتى بين الفتوة وقد تفتّى وتفاتى ، والجمع فتيان وفتية .

وجاء في لسان العرب (٤٠)

والفتى : السخي الكريم ، يقال هو فتى بين الفتوة وقد تفتى وتفاتى والجمع فتيان وفتية وفُتو على فعول وفُتي .

وجاء في المحيط[٤١]

الفتى ، الشاب والسخي الكريم وهما فتيان وفتوان .. والفتوة الكرم وقد تفتى وتفاتى وفتوتهم غلبتهم فيها .

وجاء في أساس البلاغة (٤٢)

هذا فتى بين الفتوة هي الحرية والكرم وتقول العرب فتى مَن صفته كيت وكيت من غير تمييز .

أما الحقيقة التي تطالعنا ونحن نستقريء النصوص الجاهلية فهي اننا نجد للفظة الفتوة مدلولات كثيرة ومعاني متباينة وان كانت هذه المدلولات والمعاني تتقارب في أغلب الاحيان من المعنى الاصلي لهذه اللفظة .

---

(٣٨) مادة (الفتاء) الجزء الرابع ص ٣٧٣
(٣٩) مادة (فتى) ص ٢٤٥٢
(٤٠) مادة (فتا) الجزء العشرون ص٣
(٤١) مادة (الفتاء) الجزء الرابع ص ٣٧٣
(٤٢) الجزء الثاني ص ١٨٤

فقد استعملت في معنى الشجاعة والوفاء بالوعد والبر بالعهد والصبر على الشدائد ودفع الملمات وتحمل الاعباء وكثير من الصفات المحمودة ، وهذا الاستعمال كان غالبا على كل الاستعمالات الاخرى .

قال امرؤ القيس حين توجه الى قيصر(٤٣) :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ذمول اذا صامَ النهار وهجّرا (٤٤)
عليها فتى لم تحمل الارض مثله أبرَّ بميثاق وأوفى واصبرا(٤٥)

وقال طرفة بن العبد (٤٦) :

ويوم حبست النفس عند عراكه حفاظا على عوراته والتهدُّد (٤٧)
على موطن يخشى الفتى عنده الردى متى تعترك فيه الفرائص ترعَدِ (٤٨)

وقال يصف لهوه وتنقله (٤٩) :

حين نادى الحي لما فزعوا ودعا الداعي وقد لج الذُّعر (٥٠)

---

(٤٣) ديوان امرىء القيس ص ٦٣ و٦٥ ، طبع دار المعارف .

(٤٤) فدع ذا من اساليب العرب في الانتقال من غرض الى غرض في القصيدة وقد يجيء ابتداء . والجسرة : الناقة القوية النشيطة . الذمول التي تسير الذميل وهو سير سريع . صام النهار : قام واعتدل قائم الظهيرة ويقال هجر القوم واهجروا وتهجروا : ساروا في الهاجرة وهي اشتداد الحر . يقول دع ما انت فيه من الشعر واذهب عنك الهم بركوب هذه الناقة القوية السريعة عند اشتداد الحر حين يفتر فيها سواها من الابل فبمثلها تبلغ المرادَ .

(٤٥) فتي : يعني نفسه ، والميثاق : العهد . يقول ان هذه الناقة تحمل فتي يبر بعهده اذا عهد ويفي اذا وعد ويصبر على الشدة .

(٤٦) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٣٢٢/١

(٤٧) يقول ورب يوم حبست نفسي على القتال والفزعات وتهدد الاقران محافظة وانفة من قبح الاحدوثة .

(٤٨) الفريصة : عضلة من الجنب الى الكتف ترعد عند الفزع ، يقول حبست نفسي في موضع من الحرب يخشى الشجاع فيها الهلاك . ومتى تعترك الفرائص فيه ارعدت من فرط الفزع وهول المقام .

(٤٩) الأعلم : مختار الشعر الجاهلي ٣٣١/١

(٥٠) لج الذعر : اشتد الفزع .

أيهـــا الفتيـــان في مجلسنـــا جردوا منها وِرادا وشُقُر [51]

وقال يذكر يوم قضه [52]

أجـــدر الناس برأس صلـــدم حازم الامر شجاع في الرَغَم[53]
كامـــــل يحمـــــل آلاء الفتى نبـــه سيد ســادات خضـــم [54]
خير حي مـــن معـــد عُلموا لكفيٍ ولجاروا بن عـــــم [55]

وقال في معلقته [56] :

اذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلـــد[57]
ولست بحـــلال التـــلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وقال لبيد [58] :

وفتية كليوث الغاب مـــــن أسد ما للندى عنهم نزح ولا شحط[59]

---

(٥١) جردوا : القوا عنها جلالها واسرجوها للقاء . أو الجريدة من الخيل التي تختار وتجرد أي تكمش في مهم الامور والوراد جمع الورد وهو بين الكميت والاشقر من الخيل وشقر بضمتين جمع اشقـــر حركت العين للضرورة . واشقر : الاحمر حمرة صافية يحمر فيها العرف والذنب ، فان اسود فهو الكميت .

(٥٢) قال الأعلم وهو يوم التحالق وقضه جبل اقتتلوا قريبا منه وكان الحارث بن عباد امرهم بحلق رؤوسهم وكان هذا اليوم لبكر على تغلب وانما أمرهم بذلك ليكون علما يعرف به بعضهم بعضا .

(٥٣) راس : رئيس . وصلدم : شديد . الرغم : الحرب يقول هوالحي الذي يقوم بنفسه ولا يحتاج في معونة الى غيره .

(٥٤) كامل : كامل الاداة والشجاعة والآلاء . النعم وقيل الحالات . والنبه الشريف المرتفع الذكر يعني الحارث بن عبـــاد وخضم . سيد حمول معطاء .

(٥٥) الكفى والكفيء : المماثل في النسب .

(٥٦) الأعلم . مختار الشعر الجاهلي ٣١٥/١

(٥٧) يقول اذا القوم قالوا : من فتى يكفى مهما او يدفع شرا تيقنت انني المراد بقولهم فلم اكسل ولم أتوان عن اجابتهم .

(٥٨) الأعلم : مختار الشعر الجاهلي ٥٧/٢

(٥٩) نزح : بعد . شحط : بعد .

بيض بها ليل ينفي الجهل َحلمُهُم وتفزع الارض منهم انهم سخطوا[٦٠]
اذا تخمط جبـــار ثنوه الـــى ما يشتهون ولا يثنون ان خَمطوا[٦١]

وقال الاعشى الكبير [٦٢] :

أفي فتية بيض الوجـوه اذا لقوا قبيلـك يوما أبلغوه المُخنقا [٦٣]
اذا اعتفرت اقدامهم عنـد معرك ثبتن بـه يوما فان كان مزلقا [٦٤]

وقال الاعشى ايضا [٦٥] :

لمـا رأيت زمانا كالحاً شـبماً قد صار فيه رؤوس الناس اذنابا[٦٦]
يممت خـير فتى في الناس كلهـم الشاهدين به أعنى ومن غابا [٦٧]

وقال يمدح هوذة بن علي الحنفي [٦٨] :

فتى لو ينادي الشمس ألقت قناعها او القمر الساري لألقى المقالدا[٦٩]
ويصبح كالسيف الثقيل اذا غـدا على ظهر انماط له ووسـائدا[٧٠]

وقال في مدح هوذة أيضا[٧١] :

---

(٦٠) بهاليل جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير .
(٦١) خمط الرجل : غضب وتكبر ومثلها تخمط والتخمـط : الغلبـة والقهـر .
(٦٢) الأعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/٣٠٦
(٦٣) بيض الوجوه : كرام . القبيل : الجماعة من الثلاثة فاكثر . المخنق: موضع الخنق من الرقبة .
(٦٤) اعتفرت : غطاها الغبار اي التراب . المزلق : الموضع الذي تزل فيه القدم وتسقط وهذا كناية عن الشدة .
(٦٥) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/٣٢٢ .
(٦٦) كالحا : عابسا . الشبم : البردان الجائع .
(٦٧) يممت : قصدت .
(٦٨) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/١٠٩
(٦٩) القت قناعها : كشفت وجهها واسفرت . لالقى المقالد لاطاع وانقاد . والمقالد : جمع مقلد وهو المفتاح .
(٧٠) الصقيل : اللامع المجلو . انماط : جمع نمط وهو نوع من الابسطة .
(٧١) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/١٢٩ .

ولم يسع في الاقوام سعيك واحد   وليس أنــاء للنــدى كأنائكا
سمعتَ بسمع الباع والجود والندى   فادليت دلوي فاستقت برشائكا[٧٢]
فتى يحمل الاعباء لو كان غــيره   من الناس لم ينهض بها متماسكا

وقال لبيد [٧٣] :

واذا الاسنة أشرعت لنحورهــــا   ابدين جــد نواجــذ الانياب [٧٤]
يحملن فتيان الوغى مــن جعفــر   شُعثا كأنهم أسود الغــاب[٧٥]

الى جانب هذا المعنى استعملت في معــان أخرى ، منها المروءة ، بكل ما تضمه من نجدة وكـــرم وشهامة وغير ذلك من القيم الخلقية التي تعارف عليها المجتمع الجاهلي وقدرها .

قال لبيد يرثي أخاه أربــــد[٧٦] :

أيا مَيَّ قومي في المآتم واندُبي   فتى كان ممن يبتني المجد أروعا[٧٧]
فتى عارف للحق لا يُنكر القِرى   ترى رِفدَه للضيف ملآن مترعا[٧٨]

وقال يرثيه أيضا [٧٩] :

لعمري لئن كــان المخبر صــادقا   لقد رزئت في سالف الدهر جعفر[٨٠]
فتى كان أما كــلَّ شيء سألتهُ   فيعطي وأما كــلَّ ذنب فيغفرِ

---

(٧٢) الرشاء : الحبل الذي يستخدم في رفع الماء من البئر .
(٧٣) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/٤٨٠.
(٧٤) أشرعت لنحورها : وجهت الى النحور . ابدين : اظهرن . النواجذ ، الناجذ : السن التي هي آخر الاضراس .
(٧٥) الوغى : الحرب . شعثا : جمع أشعث وهو الذي اتسخ شعر رأسه وتلبد بفعل العرق والتراب . الغاب : الغابات .
(٧٦) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/٥٠٠.
(٧٧) المآتم : مجتمعات النساء في حزن او فرح . والمراد هنا الحزن . أروع : من يعجبك بحسن منظره وجماله . او لشجاعته .
(٧٨) القِرى : ما يقدم للضيف من طعام وشراب وغيره. الرفد : العطاء والصلة . مترع : ملآن .
(٧٩) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/٥٣٢
(٨٠) رزئت : اصبت في أعز ما تملك . سالف الدهر : الازمان الماضية .

أو اتباع الاهواء ، والانصباب على اللذات ، ومعاقرة الشراب ، والاستمتاع بالحياة .

قال طرفة بن العبد [٨١] :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي [٨٢]
فمنهن سبقُ العاذلات بشربةٍ كميت متى ما تُعلَ بالماء تزبد [٨٣]
وكرى اذا نادى المضاف مُحنباً كسيد الغضى نبهته المتورد [٨٤]
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد [٨٥]

وقال الاعشى الكبير [٨٦] :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني شاوٍ مِشَلّ شلول شلشل شول [٨٧]
في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتعل
نازعتهم قضب الريحان متكئا وقهوة مزة راووقها خضل [٨٨]

---

(٨١) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٣١٧/١

(٨٢) وجدك : وحظك . والعود هنا : جمع عائد أو عائدة . يقول لولا حبي ثلاث خصال هن من لذة الفتى الكريم لم ابال متى قام عائداتي يبكينني وينحن علي .

(٨٣) يقول احدى تلك الخلال اني أسبق العواذل بشربه من خمر حمراء متى صبت عليها الماء أزبدت .

(٨٤) كرى : عطفي . المضاف : الخائف المذعور . المحنب : الذي في قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل . وسيد الغضى ذئب خبيث ويعني تلبية دعوة المستغيث .

(٨٥) ولهوى يوم الغيم بامراة حسناء في بيت مرفوع العمد . يقول لولا هذه الثلاث لم أبال في أي وقت جاء الموت وهي شرب الخمر والحرب والتمتع بالنساء .

(٨٦) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ١٠١/٢ .

(٨٧) الحانوت : الخمارة . شاو : يشوي اللحم . مشل : من شل اي طرد وكذلك شلول وشلشل خفيف في العمل سريع . شول يحمل الشي يقال شلت به واشلته .

(٨٨) راووقها : الاناء الذي تروق فيه الخمر . خضل : الدائم الندى لكثرة استعمالهم .

وقال لبيد يرثي أخاه [٨٩] :

وان تَشرب فنعم أخو الندامى كريم ماجد حلو الندام

وفتيان يرون المجد غنما صبرت لحقهم ليلَ التمام [٩٠]

وقال الاعشى[٩١] :

وكأس كعين الديك باكرت حدها بفتيان صدق والنواقيس تضرب [٩٢]

وقال أيضا [٩٣] :

على كل أحوال الفتى قد شربتها غنيا وصعلوكا وما ان اقاتها[٩٤]

هذا وقد وردت في بعض النصوص وهي تحمل معنى طراءة السن وصغره ، كما استعملت للدلالة على القوة والشباب .

قال عمرو بن كلثوم في معلقته[٩٥] :

نصبنا مثل رهوة ذات حد محافظة وكنا السابقينا [٩٦]

بفتيان يرون القتل مجدا وشيب في الحروب مجربينا [٩٧]

وقال الاعشى الاكبر يمدح هوذة بن على الحنفي [٩٨] :

قد حمّلوه فتى السن ما حملت ساداتهم فاطاق الحمل واضطلعا[٩٩]

---

(٨٩) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/٤٧٣

(٩٠) ليل التمام : الليالي الطوال .

(٩١) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/٢١٥ .

(٩٢) وكأس كعين الديك اي صافية صفاء عين الديك باكرت شربت في الصباح . حدها : سورتها . بفتيان صدق: بفتيان شجعان عرفوا بالشدة والصلابة والجد .

(٩٣) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢/١٢٤

(٩٤) ما ان أقاتها : لا املك ما اقتات به اي آكله .

(٩٥) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ٣٩٩

(٩٦) رهوة : جبل او أعلى الجبل . ذات حد: كتيبة ذات سلاح . والمعنى: نصبنا كتيبة مسلحة او أقمنا حربا عنيفة ذات حد مثل رهوة ، وذلك محافظة على احسابنا .

(٩٧) المجد : الشرف والرفعة .

(٩٨) ديوان الاعشى ص ١٠٩ .

(٩٩) أطاق : احتمل . اضطلع : نهض .

وجربوه فما زادت تجاربهـــــم أبا قدامة الا الحزم والفَنَعا[100]

وقال عبيد [101] :

كم من فتى مثل غصن البان في كرم محض الضريبة صلت الخد وضاح[102]

وهكذا نجد كلمة الفتوة في هذه الفترة خاضعة للبيئات المختلفة التي تداولتها وكانت كل بيئة تلبسها ما تراه مناسبا للمثل العليا التي توسمتها في فتاها المقصود [103] .

فالفتى في عرف العرب القدامى هو الانسان الذي تتجسد فيه الصفات التي تتطلبها القبيلة على أتم وجه ، فهي شجاعة في القتال تضمن حماية القبيلة ، وكرم يصون اسمها ويرفع ذكرها ، وشهامة تزيد مركزها علوا وشموخا ، ومروءة تجمع الخصال الحميدة الاخرى .

والفتوة في الاصل . كانت تعني الشباب . ثم استعملت للدلالة على القوة . ثم انتقلت الى السخاء والكرم ، ومن هذا اصبحت الكلمة خاضعة للبيئات المختلفة ، وان استعمالها يختلف باختلاف نظر الاشخاص اليها ، فالبعض يراها في فصاحة اللسان والحكمة كما جاء في قول زهير :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

والبعض الآخر يراها في التلذذ بمباهج الحياة كما وجدنا ذلك عند طرفه .

والذي نستطيع ان نقوله هو اننا لا يمكن ان نقول انه كانت هناك جماعة يسمّون الفتيان لهم نظام خاص يجمعهم وتقاليد معينة

---

(100) الحزم : ضبط الامر . الاخذ فيه بالثقة . القنع محركة . الخير والكرم والزيادة وحسن الذكر .

(101) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٣٢/٢

(102) محض : خالص . الضريبة : الطبيعة . صلت : بارز في استواء ، وضاح : أبيض جميل .

(103) انظر احمد امين : الصعلكة والفتوة في الاسلام ص ١١

تربطهم ، وانما كل ما في الامر ان الكلمة كانت تطلق على افراد في كل قبيلة ، جمعوا مع الشباب صفة بيّنة من الصفات قد تتمثل في الكرم او النجدة او الفصاحة ، وقد تكون في اغاثة الملهوف ومساعدة المحتاج وحماية المستضعفين ، وغير هذه الصفات في الغالب ولكن الظاهر ان التلذذ والمنادمة كانت من أغلب المعاني التي جاءت عليها .

اما الفروسية فهي مظهر من مظاهر الفتوة دعت اليها الحياة التي يحيونها ، والبيئة التي ينزلون فيها ، والنظام القبلي الذي قامت عليه حياتهم .. وهي تتخذ مظاهر متعددة وترسم جوانب واضحة .. ففروسية الصعاليك تتسم بطابع المغامرة والجرأة والشجاعة ، وهي فروسية فرضتها ظروف معينة . وتختلف في بعض مظاهرها عن الفروسية المعروفة في العصر الجاهلي والتي تمثلت في سادات القبائل وابطالها .

اما اخلاق الفرسان فهي الاخلاق التي يتصف بها العرب جميعا وان اختص قسم منهم ببعضها .. فالفارس شجاع وكريم وعزيز النفس يحترم المرأة ويدافع عنها ويجير المستجير ويعمل على رفع الظلم ، وهو حليم ، سمح الخلق الا اذا ظلم فعندئذ يصبح ثورة عارمة ..

وهو صادق ووفي يكره الغدر ويأبى نقض المواثيق وهو عفيف في الحرب لا يخوضها من اجل الاسلاب والغنائم ..

والفروسية ترتبط ارتباطا قويا بالسيادة فالفارس له مكانته الاولى في القبيلة ، وبالتالي فهي اسلوب الحياة المتمثل في الميل الطبيعي نحو الخير .

لقد تمثلت لنا الفروسية بجانبيها الخلقي والحربي في شعر الفرسان الذي طبع بطابعهم المتميز فرسموا لنا اخلاقهم التي عاشوها ومثلهم التي سنوها وقيمهم التي بذلوا دونها المهج والارواح .. فاختلطت بطولاتهم الحربية بمكارم اخلاقهم ..

ومن هنا كانت الحماسة هي المنبع الثر الذي نهلوا منه اغراض شعرهم .

وبعد فالفتوة في العصر الجاهلي لم تتخذ صفاتها او تتضح معانيها كما وضحت معالم الفروسية وانما هي مجموعة من الخصال يتفاوت مفهومها لدى كل جماعة ولكن الغالب عليها هو فتوة السن والشباب والكرم وتعاطي الملذات • وبهذا فالفتوة يدخلها عنصر اللهو والعبث الى جانب العناصر الاخرى الحميدة •

اما الفروسية فقد عرفها العرب قديما ، في تقاليدهم ومثلهم وحياتهم وصوروها في اشعارهم ، التي خلفوها فتركوا لنا ادبا وافرا يحمل النواة الاصيلة لشعر الفروسية والشجاعة والحروب، الخالي من الخلاعة واللهو والعبث •

ومن هنا نجد أن صورة الفتى في المجتمع الجاهلي كانت تقارب صورة الفارس في هذا المجتمع من حيث المثل والقيم التي سعى اليها والتزم بها كل واحد منهما •

فقد كانت الشجاعة والكرم والنجدة والمروءة عناصر مشتركة بين الفارس والفتى ، فكانت الفروسية والفتوة تنتميان الى عنصر واحد من حيث الخلق والشجاعة •

وملاحظة اخيرة يمكن ان تتضح في استعمال هاتين الكلمتين هي ان الفتى كانت تطلق في غالب الاحيان على فتي السن الذي يتمثل فيه هذا الخلق كما جاء في معلقة عمرو بن كلثوم (١٠٤) ومعلقة طرفة ابن العبد(١٠٥) •

اما لفظة الفارس فكانت تطلق على الرجل الشجاع الذي أمضى عمره الطويل في تحقيق النصر لقبيلته ، فكتب لها الذكر الحميد في سجل مفاخرها وخاض المعارك الطوال لرفع اسمها ، فكان عنترة مثلا فارس بني عبس ودريد بن الصمة فارس هوازن •

---

(١٠٤) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ص ٣٩٩
(١٠٥) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ص ١٨٢

الفصل الثاني

بواعث الفروسية

الطبيعة الصحراوية :

تشمل جزيرة العرب الجنوب الغربي لآسيا ، وتستحق أن تسمى قارة للوحدة الجغرافية الواضحة التي تشكلها ، فمساحتها تزيد على ثلاثة ملايين كيلو متر مربع ، وهي على العموم هضبة واسعة من صخور قديمة ، ويقال انها كانت متصلة بشرقي افريقيا فقامت في العصور الجيولوجية المتأخرة سلسلة من الانهيارات أسفرت عن ظهور واد عظيم غمرته المياه ، فكان البحر الاحمر وخليج عدن . وقد أسفر تفسخ الطبقة الصخرية غربي الجزيرة مناطق حُممية واسعة تصلبت مساحات جرد منها عرفت بالحرات[1] .

وقد أجمع المؤرخون والباحثون على ان جزيرة العرب كانت تختلف اختلافا كليا من حيث وفرة المياه والخصب وكثرة الامطار عما هي عليه الآن ، فقد وجد (فيلبي) محارا من نوع المياه العذبة، وأدوات من الصوان في الربع الخالي ، ويعتقد أن تاريخ هذه الآثار يعود الى

---

(١) الحرات : جمع حرة . وهي أرض بركانية ذات حجارة سوداء نخرة كأنها احرقت بالنار .

الازمان التي كانت فيها الجزيرة تتمتع بالخصب[٢] .

وبلاد العرب كثيرة الجبال الجرد ، المختلفة الالوان ، وتتخلل هذه الجبال الوديان الصالحة لاقامة السكان الذين يعتمدون على ما تنبته أرضهم وما يجدونه فيها من ماء يشربونه ومرعى يسيمون فيه أنعامهم ، ولما كانت مياه هذه الاودية لا تسد حاجة الجزيرة فقد غلب عليها الجدب لأن الكثير من مائها يغيض في جوف الارض .

على ان جدب جزيرة العرب لا يشمل جميع أقسامها ، وانما هناك مناطق خصبة كهضبة نجد العالية التي ترتفع عن سطح البحر زهاء أربعة آلاف قدم ، والاودية التي تقطع جبال السراة الى تهامة والمنتهية الى البحر[٣] . والبقاع الخصبة التي تتخلل الحجاز والتي انتشرت حولها القرى فكانت مصيفا للمترفين .

أما مناخ الجزيرة في جملته فحار شديد الحرارة . وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفا فتشوي الوجوه ، وألطف رياحها الشرقية وهي التي يسمونها الصبا ، وقد اكثر الشعراء من ذكرها ، والتغني بطيب نشرها ، فحملوها تحيات الاحبة لرقتها وعذوبتها ..

ونظرا لجفاف الصحراء كان مناخها في حرارته وبرودته متطرفا ، والتطرف المناخي بسبب قاريته الشديدة يلعب دورا مهما في تنقل البدو غير الاعتيادي ، فقد تهطل الامطار الغزيرة ، وتحدث الفيضانات ، ثم تعقبها فترة طويلة من الجفاف التام ، وتتباين درجات الحرارة تباينا عظيما ، وكلما كان هذا التغيير المناخي قاسيا ، عظم تأثيره في حدوث الغارات وعدم الاستقرار .

وهذا المناخ الرهيب هو الذي جعل الصحراء فريدة في حالتها من

---

(٢) مجلة سومر ١٩٤٩/٢ ، وقد ذكرت ادلة كثيرة اخرى في هذا المقال يمكن الرجوع اليها .

(٣) الهمذاني : صفة جزيرة العرب ص ٦٧

الجدب ، لان الافراط المناخي هو الذي يجدب الصحراء ، فالغيث اذا كثر جرف كل شيء ، والقحط اذا دام أهلك الحرث والنسل ، وكثيرا ما يكون تساقط الامطار على شكل دفعات غير منتظمة ، او بغزارة في بعض المواسم مثار وحي الشعراء ، فوصفوا البرق وأبدوا فتنتهم به ، ووصفوا الغيث وتتبعوا مراحله من بدايتها حتى نهايتها ، وأضفوا عليه صفة العظمة والقوة ، وتحدثوا عن تراكم السحاب ، وعنف المطر وقسوته على الرمال ... وقد وصف امرؤ القيس ذلك ، وشبه حركة البرق بمصابيح الرهبان ثم وصف نفسه وقد أخذته الحيرة أمام هذه الظاهرة ، فبدأ بوصف السحاب وهو يسح الماء ، ووصفه ثانية عند سكونه ثم عاد الى وصفه وهو يسح بغزارة فيتراكم ، فيصبح سيلا متدفقا يكتسح البيوت ، ثم وصف جبلا غشيه المطر فعمه الخصب وتفتحت أزهاره[٤] .

لقد كان امرؤالقيس من الشعراء الذين تحدثوا عن الطبيعة واستغرقوا معظم شعرهم في أوصافها ، فقد تطرق الى المطر ، فوصف غزارته ، ودوام هطوله حتى يعم الارض ويغطيها ، فاذا خفت حدة المطر ظهر الوتد ، واذا عادت وارته وأخرجت الضب من مكمنه ، فيعوم باسطا براثنه كما يفعل الانسان لمهارته ، وقد تبلغ شدة المطر درجة تغمر الاشجار فلا يبدو منها الا القسم العلوي الذي أحاط به الزبد فلاح كالعمائم[٥] .

وكما تحدث امرؤ القيس تحدث سائر الشعراء ، فوصفوا البرق والمطر والسحاب والعواصف ، وعنوا بهذه الاوصاف عناية فائقة ، وصوروا هذه الظواهر تصويرا بارعا ..

---

(٤) ديوان امرىء القيس : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ (المعلقة من البيت رقم ٦٧ ــ ٧٧) .

(٥) ديوان امرىء القيس : ص ١٤٤ ــ الابيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

لقد كان نزول الغيث مثيرا لشجاعتهم حتى قالوا : انهم اذا اخصبوا هاجت أضغانهم وطلبوا الثأر من أعدائهم ، وتمنوا أن يتصل الغيث حتى يغيروا على الملوك فيسلبوها عروشها ، وكانوا يغيرون في الخصب لا في الجدب ، والى ذلك يشير الحارث بن دوس الايادي مخاطبا المنذر بن ماء السماء[٦] :

قوم اذا نبت الربيع لهم نبتت عداوتهم مع البقـــل

على ان هذه المياه التي تحدث عنها الشعراء ، لا تكفي للزراعـة وانما هي مقصورة على انبات الاعشاب والنباتات القليلة في أعقابها ، لنزولها ـ كما ذكرنا ـ بصورة نادرة وبلا نظام ، فهي تكون سـيولا طويلة وغزيرة ، وتكون بحيرات وانهارا في ساعات أو أيام أحيانا ، كما ان انقطاعها يشكل جدبا مستديما أحيانا اخرى .

ولعل معنى الحرمان ، وندرة المياه ، وجدب الارض هو الـذي جعلهم يبالغون في تقدير الخصب ، ويرون له رونقا خاصا في هذه البيئة الجرداء ، ومن هنا نجد القصص الطويلة التي دارت حول الآبار والمياه، وما ورد حول زمزم وحفرها من روايات دليل على ما ذكرناه[٧] .

وهم بعد هذا لم يكتفوا بتقدير الخصب وحده ، وانما قدسـوا مواطن الماء القديمة ، واعتقدوا فيها أسرارا غامضة ، وأضفوا عليها مـن القوى الخفية ما لم يضفوه على غيرها من الاماكن ، حتى كان اذا غم عليهم أمر الغائب جاءوا الى بئر قديمة ، بعيدة الغور ونادوا يا فلان ، أو أبا فلان: ثلاث مرات ، فان كان ميتا لم يسمعوا في اعتقادهم صوتا[٨] .

قال شاعرهم[٩] :

---

(٦) البكري : التنبيه ص ١٩

(٧) ابن هشام . السيرة ١/١٥٤ ومحي الدين العطار : بلوغ الارب في مآثر العرب ص ١٣٨ ، ١٦٢

(٨) الالوسي : بلوغ الارب في احوال العرب جـ٣ ص٣

(٩) الالوسي : بلوغ الارب جـ٣ ص٣ .

دعوت أبا المغوار في الحفر دعوة فما آض صوتي بالذي كنت داعيا[10]

أظن أبا المغوار في قعر مظلم تجر عليه الذاريات السوافيا

وقال آخر [11] :

وكم ناديته في قعر ساج بعادي البئار فما اجابا

أما المياه الباطنية فتتوفر في الجزيرة ، وتكون على مسافات قريبة، بحيث تتهيأ لمن يريد الحصول عليها بالحفر البسيط ، وعند هذه المناطق التي تتوفر فيها المياه ، تقوم الواحات الاستقرارية الى جانب قبائل البدو الرحل الذين ينتقلون شتاء الى سهول النفوذ ، ويعودون صيفا الى واحات نجد لتبادل التجارة وكذلك الغزو وشن الغارات .

ان الظروف الطبيعية تتحكم في الاسس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لحياة البشر وتتبدى آثار هذه الظروف في أنماط معيشتهم وتوزعهم على سطح الارض ، وأماكن اقامتهم وطراز مساكنهم ، ونوع غذائهم وشكل كسائهم فالانسان مدفوع بغريزته الى التحري عن وسائل المعيشة والبقاء،وهو في تحريه هذا مرتبط جزئيا أو كليا بالظروف الطبيعية المحيطة به .

والبيئة ذات أثر كبير في تكوين الانسان ، وقوته أو ضعفه ، كما لها مساس ملحوظ باخلاق الشعوب ، وعاداتهم ، ولون تفكيرهم وطبائعهم النفسية . والمناخ بدوره أهم عنصر من عناصر البيئة ، بحكم أهميته البالغة في التأثير في حياة البشر ، والظروف المناخية تحمل في طياتها

الضوء الذي يفسر لنا كثيرا مما غمض من اعمال الانسان ، وهذه الظروف ــ في أية بقعة ــ توحي دائما باتباع طرق معينة لكسب الرزق، وممارسة مظاهر خاصة للنشاط الاقتصادي ..

---

(١٠) آض : رجع ، وقعر مظلم : كناية عن القبر .

(١١) الالوسي : بلوغ الارب جـ٣ ص٣ .

وما طريقة الحياة التي يحياها شعب من الشعوب الا تفاعل بين العوامل الطبيعية وفعاليات الانسان نفسه ، فالبدوي اذا وجد خيلا جيدة يركبها وسلاحا قويا يحمله ، أصبح الغزو عادة مستحكمة فيه ، وعندما تحل فترات الجفاف وتهزل الحيوانات ، لانعدام العشب ويحس وطأة الجوع تطبق عليه يصبح الغزو وسيلة لا بد منها للحصول على الطعام الذي يرد عنه غائلة الجوع ، ولهذا اصبح الغزو عملا مشروعا يمارسه البدوي دائما ، ويلجأ اليه باستماتة ، كلما لاحت سنوات المحل وبدت مظاهر الجفاف .

وهذا النمط من الحياة يوجب على البدوي ان يكون متمتعا بصفات فطرية معينة تؤهله للقدرة على تحمل المشاق عند الغزو أو رد عاديته أو قدرته على تحمل قابلية القيادة والقدرة على البت السريع في مجابهة الطوارىء ، والاستجابة الآنية لمتطلبات الحياة ، والتعاون مع ابناء عشيرته ، وهذه العادات هي التي ساعدت على نمو الصفات الفطرية وجعلتها من متطلبات الحياة البدوية ، لان البدوي يتعرض للفناء السريع ان لم تكن له الصلابة الجسمية الكافية لتحمل هذا النوع من الحياة . فهو يكافح الصحراء حينما يقتحمها في طلب الرزق ، ويكافح الآخرين حينما يهبطون عليه من كل فج يريدون به وبأهله سوءا ، ويكافح طبيعة الارض الجرداء التي لا تنبت شيئا ولا تغني من الجوع فتيلا ، ولذلك كانت القوة هي الاساس الاول والاخير الذي تقوم عليه حياته .

وكانت حياة العربي في الجاهلية صراعا دائما بينه وبين بيئته القاسية ، لان كل ما فيها يوحي بالقوة وينطق بأن البقاء للاصلح والاقوى ، وكأن الطبيعة قد أعدت الجزيرة العربية هذا الاعداد ، لتهب لشعبها العريق السجايا الكريمة التي لم يفسد الزمن طبائعها ، والخلق النبيل الذي أصبح عنوانا للبطولة ، ورمزا للمثل الرفيعة الشامخة ..

ان الحياة القاسية التي ارتبطت بها حياة العربي جعلته يتناحر على طلب الكلأ والماء ويتخاصم من أجل الاحتفاظ بهذا المورد الحيوي

فيخرج الى الصحراء باحثا عنهما ، ميمماً شطر وجودها ، يتصارع من أجل الحصول عليها ، فيغير ويغزو ليتمكن من الثبات امام قانـــون الحياة ، ويغتنم ما يقيم اوده ، فكانت حياته قتالا دائما او تأهبا للقتال.

وكانت القوة شرطا من شروط وجوده ، وعاملا من العوامل التي تلعب دورها الفعال في مجتمعه ، ولذلك كان الفارس مكرمة من مكارم قومه ، ومفخرة من مفاخرهم التي يعتزون بها ويشيدون ببطولتها ،فهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها الى سواهم ، ولا يثقون فيهـا بغيرهم ، فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون من كل جانب في الطـرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا [12] .

على أن عرب الجاهلية لم يخرجوا في حيـاتهم عن الدائرة التي اختارتها لهم الطبيعة ، فلم تقع أعينهم على شيء سوى الصحراءالواسعة، وما تبعثه في نفوسهم من العظمة والمهابة والغموض الذي تضل في ادراك كنهه العقول . فخلقت من ابنائها رجالا أقوياء لان الصحراء تغرس في نفوس ابنائها الشجاعة والقوة ، وتربيها على الكبرياء والترفع ،وتعودها على الحرية والانطلاق ، لتكون قادرة على التحكم في هـذه البيئة ، ومسيطرة على عواملها التي لا ترحم ، لان البيئات الصحراوية لا تسمح الا بأنواع خاصة من النشاط الانساني ، ولذلك يحـاول الانسان ان يعمل أفضل ما يستطيعه من التكيف بموجب مقتضيات حياة البادية ، وطبيعة الحياة الصحراوية تخلق المساواة بين الافراد ، ولذا فالعربي لا يحتمل الضيم وقد حق له ان يفتخر بحريته الشخصية ، وقـد شبه من يقبل الضيم بالحمار الذي لا يفقه الظلم ، او الوتد الذي يذل من كثرة الضرب ويشج فلا يرثي له أحد قال المتلمس[13] :

ولن يُقيم على خسف يُسام به   الا الاذلان عَيرُ الحي والوتد

---

(١٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٥ .
(١٣) لويس شيخو : شعراء النصرانية ٣٤٤/١ .

هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يُشجُّ فما يرثى له احد [١٤]

يضاف الى ما تقدم حب البدوي لحماية الجار فهو يرى في العدوان على جاره عدوانا عليه ، فيهب للذود عنه مهما يكلفه ذلك من متاعب ، ويسبب له من حروب .

واذا أستقصينا أيام العرب وجدنا ان بعض هذه الايام كانت تقع بسبب الجار ، واذا ضممنا الى جانب حماية الجار ما عرف به العربي من حب لقبيلته،وتعصب لها وحرص على الاخذ بالثأر استطعنا أن نتصور حياة البدو وعاداتهم وما كانت تستلزمه من حروب وغارات لا يهدأ لهم بدونها بال ولا يقر قرار [١٥] .

وهكذا تكون العوامل الطبيعية والظروف القاهرة لتلك البيئة هي التي تدفع البدو ان يكونوا وحدات اجتماعية ، يطلق على كل واحدة منها أسم قبيلة،والقبيلة تجمع العمائر،والعمارة تجمع البطون ،والبطون تجمع الافخاذ ، والافخاذ تجمع الفصائل [١٦] وتقيم كل من هذه الوحدات كيانا خاصا تعتز به .

على ان هذه التشكيلات لا تفقدها صلتها الوثيقة بالفرع الذي تفرعت عنه . والعرب بحكم نظامهم القبلي السائد ، وطبيعة هذا النظام الاجتماعي الذي كان لا يرحم الضعيف بل يقوده الى الهلاك والانقراض، هذا النظام نفسه كان سببا من أسباب نشوء القوة وضرورتها ، فمدحها العربي ومدح كل ما يؤدي اليها ، وتغنى بالشجاعة والاقدام ، وأثنى على كل من اتصف بهذه الصفات وافتخر بحروبه وغزواته ووقائعه ، وذم الضعيف وكل الصفات التي يتصف بها كالجبن والتردد والخنوع والتخلف عن الغزوات والاحجام عن الحرب وعدم الصبر على المكاره .

---

(١٤) الرمه : القطعة من الحبل البالي ، ويشج : يدق راسه .
(١٥) عبدالرؤوف عون : الفن الحربي في صدر الاسلام ص ٣٥ .
(١٦) ابن رشيق : العمدة ٢/١٨٢

ولعلنا لا نغلو اذا قلنا: انه لم تتوفر لدى أيةامة من اسباب التناحر والتقاتل والتطاحن بقدر ما توافرت لدى أمة العرب في جاهليتها ، وخاصة القبائل العدنانية البدوية ، فقد انتشروا في انحاء الجزيرة يطلبون لماشيتهم الكلأ وينتجعون مواقع الغيث ، وكان من عادة القبائل انها تترك الاماكن الخصبة اذا أجدبت ، فهم يقعون مع الغيث كلما وقع في بلد صاروا اليه وغلبوا أهله عليه قال الاخنس التغلبي[١٧] :

ونحن اناس لا حجاز بأرضنا   مع الغيث ما نلقي، ومن هو غالب

فهم ينتزعون المرعى الخصب من أهله باسنة الرماح ، ويكفي بعد هذا أن تكون غارة بين قبيلتين أساسا تقوم لها الحرب ، فتبقى آمادا وآجالا ، يشبب أوارها بين آونة وأخرى طلبا لثأر فات ، أو انتقاما لمال يغتصب أو أمرأة تهان أو جار يعتدى عليه ..

ان النظام القبلي كان الاصل في المجتمع البدوي ، ويعد أفراد العشيرة الواحدة أنفسهم أبناء دم واحد ، يخضعون لرئيس واحد : وهو أسن أعضاء القوم وأبرزهم ومن أكبر بيوتهم ..

والقبيلة : هي دولة الاعرابي ، وموئله ، ووحدته الاجتماعية ، توافرت فيها المسؤولية المشتركة بين أفرادها جميعا ، فكل فرد صورة مصغرة لقبيلته ، وهي مسؤولة عن جرائر الافراد وحمايتهم ، وبذلك تكون (عقد اجتماعي) يضم أعضاءها ويؤلف منها عصبة واحدة[١٨] .

والعصبية للقبيلة هي القومية بالقياس الى العرف البدوي ، وقد تتوسع هذه العصبية في الاحلاف فتشمل القبائل والعشائر المتحالفة بالنسب أو بالجوار والداخلة في الحلف[١٩] .

---

(١٧) المفضل الضبي : المفضليات ٦/٢

(١٨) احمد الشايب : تاريخ النقائض ص ٣٧

(١٩) الحلف : مجتمع قبلي ولكنه لا يستقيم لامد طويل ، فقبائل تدخل وقبائل تخرج وأحلاف تولد واخرى تموت ككل كائن حي .

وليست هذه العصبية الا ضرورة ، خلقتها الظـروف التي تحيى فيها ، والوضع الطبيعي الذي تعيش فيه ، فبهذه العصبية تدافع عـن نفسها وعن وجودها وتجد لها رزقا في قبيلة أضعف منها ، فالحيـاة في البادية صراع مستمر ، يفرض على أهله التكتل والتحالف ، لان في ذلك دواما لبقائها ، واستمرارا لوجودها ••

فالخيمة وما فيها من متاع تعتبر ملك الفرد ، واما الماء والمرعـى والارض الزراعية فهي ملك مشاع للقبيلة ، والغزو محور نشاط فرسان القبائل ، ومراد معيشتها ، لانه وسيلتها في الحياة ، والثأر واجب مقدس وقد فرض على البدوي ان يكون محاربا لان من واجبه حماية أهلـه وأمواله وكل ما يعود اليه •

ويعتاد البدوي منذ صغره على مشاهد الحياة الملأى بالاخطار ، فيعوّده ابوه على ذلك عندما يحين دوره مما يدفعه الى ازدراء كـل ما يبعد عن العنف معجبا بالقوة مهما كانت نتائجها[٢٠] •

ولم يكن غريبا في عالم الادب الجاهلي ظهور شعر الفروسيـة ولم يكن غريبا على العربي في جاهليته ان يتغنى بالبطولة ، ويترنـم بأمجادها ، ويقدس مثلها وقيمها ، لان انحياة بطبيعتها كانت تفرض عليه هذا النوع من الحياة ، وتضطره الى الانتقال من مكان الى مكان ، لان ضيق أسباب المعيشة وضآلة الموارد ، أوجد في الجزيرة حركة مستمرة نحو الماء والمرعى وكون تسابقا بين القبائل للاستيلاء على هذه الاماكن وأوجد فيها هجوما ودفاعا ، هذا يهاجم لانتزاع الارض من قوم نزلوا فيها قبلا ، وذاك يدافع عنها ، لانه حازها بالسيف • والاكتساب بالسيف حق لا ينازع فيه أما الكلمة فللسيف • فمن كان سيفه أمضى وأقـوى كانت له الكلمة ، وكان له الحق وعلى المغلوب وزر ضعفه • فنشأت الغارات ونشأت العداوات وقامت الايام والحروب ، وكانت الصحراء

---

(٢٠) بلاشير : تاريخ الادب العربي – العصر الجاهلي ص ٣٧ – •

مجالا فسيحا ، وميدانا واسعا ، لاظهار الشجاعة والفروسية ، وكـان هوى ذلك يتجسد في نفوس الشعراء قصائد عامرة بالانتصار زاخرة بالفخر والحماسة مشيدة بأعمال البطولة التي تتمثل في القبيلة المنتصرة ، وساخرة من هزيمة الاعداء •

المـــرأة

لا بد لنا ونحن نتحدث عن المرأة من أن نحدد الهدف الذي نريده من حديثنا ، لان المفهوم المطلق للمرأة مفهوم عام وشامل ، ترتبط بـه المرأة ، وهي تقوم مقام الام والبنت والاخت والزوجـة والحبيبـة والشاعرة والمحاربة والمغنية والامة والسبية وغيرهما ، وقد جمع الشعر الجاهلي نماذج وصورا كثيرة لهـذه الالوان ، وعرض لها بالدراسـة والتفصيل ، وتطرق الى الحديث عنها في كل مجال من مجالاته ، فكانت حقاً ثروة زاخرة ، ومجالا ثرا لكل دارس يريد البحث فيه ••

ولسنا نريد في هذا المجال ان نتطرق الى المرأة بصـورة عامة لان ذلك قد يخرج عن مجال بحثنا ، ويبتعد عن خطة عملنا ، وانما سنقصر الحديث عن المرأة في المجالات التي كانت فيها باعثا قويا لالهاب مشاعر الفرسان واذكاء بطولاتهم في ميدان المعركة •

لقد تمثل في المرأة الجمال الحي الذي أكسبته هذه الطبيعة مـن الصفاء والاصالة ما أضفى عليه طابع الهدوء والاناقة ، فكـان لها سحرها الروحي في نفوس الرجال ، وكان لها سلطانها العنيف عـلى مشاعرهم وأحاسيسهم ، فكانت ملهمتهم في روائعهم وباعثة عواطفهم الصافية الرقراقة التي خلـدوا لنا فيها أدبا يحمل كـل معاني السمو والاباء •••

والعربي عاش في بيئة غنية بالجمال الاصيـل ، مليئـة بالمحاسن المطبوعة ، فهو يسرح طرفه في امتداد الصحراء ، فلا يجد الا اتساعـا في الطبيعة ، وصفاء في اللون ، وانطلاقا في الحياة،والانسان بطبيعتهميال

للجمال ، مدرك لاصالته ، يعجب بكل كائن يملك هذه الصفة ويعبر بما يملكه من وسائل التعبير عن اعجابه ...

والشعر العاطفي تصوير صادق في أغلب الاحيان للمشاعر الانسانية ، وينبوع غزير للعواطف التي يحسها المرء في كل عصر وفي كل زمان ، وحكاية الحب اخذت من حياة العربي وأدبه مكانا رحبا ، فخلفت لنا هذا الشعر الغنائي في أبسط صوره . يتحدث فيه الشاعر عن نفسه ويصور عواطفه واهواءه ويرسم رغباته وآماله .

ان اعجاب الرجل بالمرأة لم يقف عند الاحتفاء بجمالها الجسدي ، بل يتعدى ذلك الى الاحتفاء بجمالها الروحي ، الذي يكون في كثير من الاحيان أعمق أثرا من الجمال الجسدي الزائل ، فالرجل يشعر بجمال المرأة ، فيعبر عن هذا الشعور وهو لا يعلن هذا الجمال للملأ ، ليلفت اليه النظر ، وانما يريد بذلك تأدية ما حمله من أمانة ، ليثبت في نفس السامع ما يحمله على عذره في حالة هيامه ،ولانه ينشد الجمال في الحياة ولن يظفر به كما يشاء الا عن طريق الحب ...

ولقد وجد الشاعر الجاهلي في محبوبته المثل الاعلى الذي يصوره، فهو يتوجه اليها بأجمل أغانيه ، ويقدم لها كل ما تقوم به من أعمال حربية مجيدة ، فهو ينادي اسمها في ساعات القتال الحرجة ، وحين يلفظ انفاسه الاخيرة ، وحتى اذا أراد الشاعر ان يمتدح نفسه بالكرم والشجاعة ، لم يكن يخاطب الا المرأة اعتقادا منه أن المرأة اذا رضيت عنه ، فكأنما رضي الناس جميعا .. وقد ترددت هذه المعاني في قصيد الشعراء كثيرا ، ولا سيما الفرسان منهم ، فهذا عنترة يرسم معاناته في ساعة المعركة لعبلة ، فيقول[٢١] :

يا عبل كم من غمرة باشرتها   بالنفس ما كادت لعمرك تنجلي
فيها لوامع لو شهدتِ زُهاءها   لسلوتِ بعد تخضب وتكحل

---

(٢١) ديوان عنترة : تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي ص ١٢١

أما تريني قد نحلت ومن يكن غرضا لاطراف الاسنة ينحل

وهو يطلب أن تسأل عن مواقفه وأفعاله في الوغى فيقول[٢٢] :

فلئن صرمت الحبل يا ابنة مالك وسمعت في مقالة العذال
فسلي لكيما تخبري بفعائلي عند الوغى ومواقف الاهوال
والخيل تعثر بالقنا في حاجم تهفو به ويجلن كل مجال[٢٣]
وأنا المجرب في المواقف كلها من آل عبس منصبي وفعالي

وهو يقدم لها كل بطولاته وامجاده قربانا عند محرابها ، فيقول وهو خارج الى العراق[٢٤] :

أيا عبل ما كنت لولا هواك قليل الصديق كثير الاعادي
وحقك لا زال ظهر الجواد مقيلي وسيفي ودرعي وسادي[٢٥]
الى أن أدوس بلاد العراق وأفني حواضرها والبوادي
اذا قام سوق لبيع النفوس ونادى وأعلن فيها المنادي
وأقبلت الخيل تحت الغبار بوقع الرماح وضرب الحداد[٢٦]
هنالك اصدم فرسانها فترجع مخذولة كالمعاد
وأرجع والنوق موفورة تسير الهوينى وشيبوب حادي[٢٧]
وتسهر لي أعين الحاسدين وترقد أعين أهل الوداد

ولقد كانت قصائد الغزل ترجمانا للعواطف المزدحمة في قلوب الشعراء الجاهليين ، فلا يكادون يصيبون معنى ، أو يطيفون بموضوع ،

---

(٢٢) ديوان عنترة : تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي ص ١٢٩
(٢٣) الحاجم : المكان الشديد الحر . يريد ميدان الوغى . تهفو : تسرع .
(٢٤) ديوان عنترة : تحقيق عبدالمنعم عبدالرؤوف شلبي ص٥٣ .
(٢٥) مقيلي : حيث اقيل : اي انام نصف النهار والمعنى انه لا يبرح ظهر جواده .
(٢٦) الحداد : اي السيوف .
(٢٧) موفورة : اي غنية بما عليها من اسلاب . والهوينى : المشي في لين ورفق وذلك لكثرة ما تحمل ، أو لأنها آمنة لا يزعجها شيء ...

حتى يلموا بذكر الحبيبة ، ويتغنوا بمحاسنها ، ويستدحوا شمائلها ، لقد فرضوا على أنفسهم ذلك ، فكانت هذه الوجدانيات مطالع قصائدهم ، ومذاهب غنائهم ، ومجتلى الهامهم ، وما زالوا يلزمون أنفسهم كل هذا ، حتى أصبح الابتداء بالنسيب تقليدا شعريا ، وأصبح الحب حافزا من حوافز البطولة ، وباعثا من بواعث الالهام الشعري ، وقوة تدفع الى جلائل الاعمال ..

ان الحب المقرون بالفروسية والعفاف ، كان المثل الاعلى في الحياة الجاهلية ، لما فيه من الحرص على الاعراض ، ومحافظة على القيم النبيلة. وسعى الى اعلاء شأن المرأة .

قال عنترة [٢٨] :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلةً بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقيعة انني ... اغشى الوغى واعف عند المغنمِ

وقال المرقش الاكبر مخاطبا حبيبته وواصفا لها جده في الحرب[٢٩] :

هلا سألت بنا فوارس وائل ... فلنحن أسرعها الى أعدائها
ولنحن أكثرها اذا عد الحصى ... ولنا فواضلها ومجد لوائها[٣٠]

وقال عامر بن الطفيل [٣١] :

ان تسألي الخيل عنا في مواقفها ... يوم المُشقّر والابطال في زعَج[٣٢]
يخبرك أني أعيد الكر بينهم ... اذا القنا حطمت في يوم معتلج[٣٣]

---

(٢٨) ديوان عنترة : تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي ص ١٤٩ـ١٥٠
(٢٩) المفضل الضبي : المفضليات ٣/٣٤
(٣٠) الحصى يضرب مثلا لكثرة عدد القبيل .
(٣١) ديوان عامر بن الطفيل ص ٣٧
(٣٢) يوم المشقر : يعني يوم الصَفقة وهو احد الايام التي ابلى بها الشاعر ، الزعج : الخوف .
(٣٣) يخبرك : جواب ان تسألي . يوم معتلج : يوم فيه ازدحام واراد به الازدحام في المعركة .

وقال عامر بن الطفيل أيضا مفتخرا ببسالته [٣٤] :

هلا سألتِ بنا وانت حَفيَّة بالقــاع يوم تورعت نهــد [٣٥]
أيٌّ الفوارس كان أنهك في الوغى للقــوم لما لاحهــا الجهد [٣٦]
لمــا رايت رئيسهــم فتركتــه جزر السباع كأنــه لهــد [٣٧]

وكما تحدث عنترة والمرقش وعامر بن الطفيل ، تحدث غيرهم من الشعراء عن بطولاتهم في الحرب ، وثباتهم في المعارك ، وبلائهم فيها .. تحدثوا بشعرهم ، وهم يعلمون كل العلم ان هــذا الحــديث سيطرق اذهان المرأة .. وسيدور في مجالسها ، فاظهروا في حديثهم اروع المواقف التي خاضوها ، وبينوا أرفع آيات العفة في توزيع الغنائم ، وتطرقوا الى الحديث عن كل ما يشرف الفارس ، ويرفعه الى مصاف الابطــال الشجعان . لان هذا الحديث هو السبيل الوحيد الى قلبها .

ومن هنا كانت المرأة باعثا قويا من بواعث الفروسية ، ومنطلقــا واسعا من منطلقاتها الرحبة ، ومجالا فسيحا يظهر فيه الفرسان بطولاتهم النــادرة ...

مكانتهــا :

اذا استعرضنا منزلة المرأة ، كما صورها الشعر الجاهلي ، وجدناها سامية في غالب الاحيان ، فالشاعر يناجيها في السر والعلانية،ويستشيرها في كثير من أموره ، ويحتكم اليها ، ويكرس قدرا كبيرا من اشعاره لها ، ويتعرض لوصفها ، والحديث عنها في مختلف الادوار التي تؤديها . وان تفاوت قدر العناية بها ، واختلفت المشاعر التي كان يبديها نحوها ، كما أن وقائع الشعر وصوره ، تثبت بمــا لا يتطرق اليــه الشك ، ان

---

(٣٤) ديوان عامر ص ٤١
(٣٥) حفية : مشفقة . بارة . وتورعت : جبنت وتأخرت وهابت. نهد : قبيلة من قضاعة .
(٣٦) انهك : اشد . لاحها أضمرها وغير لونها .
(٣٧) اللهد : الورم . ولعله أراد انه لما قتله انتفخ فصار كأنه وارم .

العرب خاضوا أطول حروبهم من أجلها •

لقد احتلت المرأة في أدبنا العربي صفحات كثيرة ، لانها كانت مدار حياة الرجل ، ومكان شرفه ، وحمى وطنه ، فكانت مكانتها تتناسب مع الخدمات التي تؤديها ، والواجبات التي تقوم بها ، وسط مجتمع كان الرجل يقوم فيه بمهمة الحرب والعمل في وقت واحد •

وقد أهلتها هذه الاهمية لان تكون في مكانة رفيعة ، ومنزلة عالية ، لان الدفاع عنها بطولة وشجاعة ، والموت في سبيلها مفخرة تستحق الثناء والذكر ، والحفاظ عليها مروءة ونبل ، فهي صاحبة رأي وارادة ، وانفة ورفعة • ففاطمة بنت الخرشب كانت احدى ثلاث عرفن بالمنجبات ، وقبلها حيية بنت رياح الغنوية أم الاحوص ، وماوية بنت عبد مناة بن مالك • وكان لفاطمة ثلاثة أبناء يعرفون بالكملة وهم الربيع وعمارة وأنس [٣٨] •

وفي يوم أغار حمل بن بدر الفزاري على بني عبس ، وهي القبيلة التي تنتهي اليها فاطمة فأسرها ، فلما أخذ بخطام البعير ، وابتعد بها عن الحي وأهله ، صاحت به ، وطلبت منه تركها ، لان الناس سيقولون في هذا الحال ما شاءوا • فرد عليها : « اني اذهب بك حتى ترعي ابلي » فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من البعير ، فماتت خوفا من أن يلحق بنيها عار فيها[٣٩] •

ومن الاسماء التي غدت مضرب المثل في الوفاء بين النساء فكيهة ، ومما يروى من أمرها ان السليك بن السلكة أغار على بني عواد (بطن من بني مالك) ، فلم يظفر منهم بفائدة ، وأرادوا مساورته • فقال شيخ منهم : انه اذا عدا لم يتعلق به شيء ، فدعوه حتى يرد الماء ، فاذا شرب وثقل لم يستطع العدو وظفرتم به ، فلما علم أنه مأخوذ جاملهم وقصد لادنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم يقال لها فكيهة ، فاستجار

---

(٣٨) أبو الفرج الاصفهاني ١٦/١٩ ساسي .

(٣٩) أبو الفرج الاصفهاني ١٦/٢١ ساسي .

بها ، فمنعته وجعلته تحت درعها واخترطت السيف وقامت دونه ، فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بأخوتها فجاؤها ودفعوا عنها حتى نجا من القتل ، فقال السليك في ذلك [٤٠] :

لعمر ابيك والابناء تنمي ... لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخطرات لم تفضح اباها ... ولم ترفع لاخوتها شنارا
كأن مجامع الارداف منها ... نقى درجت عليه الريح هارا
يعاف وصال ذات البذل قلبي ... ويتّبع الممنعة النوارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف واستلبوا الخمارا

والحرب التي قامت بين عبس وذبيان ، والتي ظلت مستعرة نحوا من اربعين سنة ، لم يفكر في اطفاء نارها الا امرأة . ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي ، وذلك ان بهيسة بنت أوس، لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المري ، وأراد أن يدخل عليها ، قالت : أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها . قلت : (والخطاب لزوجها) : فيكون ماذا ؟ ، قالت : أخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك . فقلت : والله اني لارى همة وعقلا ، ولقد قالت قولا . قال : فاخرج بنا . فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح ، فاصطلحوا على ان يحتسبوا القتلى ، فيؤخذ الفضل ممن هو عليه . فحملنا عنهم الديات . فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين فانصرفنا بأجمل الذكر [٤١] .

وقد اشتهر فريق من نساء الجاهلية بنظم الشعر وحفظه ونقده . حتى ان أبا نواس وحده كان يروي لستين شاعرة ، وجمع الاب لويس شيخو مجموعة لشواعر النساء ، صنف فيه لما يزيد على ثلاثين شاعرة جاهلية ، وكذلك فعل بشير يموت في كتابه شاعرات العرب في الجاهلية

---

(٤٠) ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ١٨/١٣٧ ساسي .
(٤١) ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ١٠/٢٩٦ دار الكتب .

والاسلام •

وقد حفل الادب الجاهلي باسماء كثير من الامهات اللواتي كان لهن شأن كبير في الحياة الجاهلية ، ومشاركة طيبة في الادب الجاهلي ، منهن أم أوس ، وأم تابط شرا ، وأم ثواب الهزانية ، وأم السليك بن السلكة ، وأم محارب زوجة النابغة الجعدي ، وأم هيثم زوجة عمرو بن الاهتم ، وغنية بنت الحشرج ، وفاطمة بنت الخرشب وعشرات غيرهن •

ومن مبلغ اهتمام العرب بالمرأة ظاهرة النسب للام • فقد نسب كثير من الشعراء الى أمهاتهم ، وهذا ما دفع محمد بن حبيب الى تصنيف رسالة فيمن نسب الى امه من الشعراء ، وقد جمع فيها لما يربو على المائة والثلاثين من الشعراء [٤٢]

وقد حملت هذه المكانة السامية للمرأة بعض الباحثين من المستشرقين على القول بأن العرب كانت تتبع في الازمنة القديمة نظام الامومة • وهو النظام الذي ينسب فيه أهل القبيلة أو الامة الى امهاتهم بدلا من ابائهم • ومن هؤلاء المستشرقين الذين بحثوا في موضوع الامومة ونظام العائلة باجيهوت ودارغون واميرا وويلكن وستارك وسمث وغيرهم [٤٣] •

ولو رجعنا الى أدلة هؤلاء جميعا ، لما وجدنا قولا صريحا او ثابتا في تأييد رأيهم ، وانما كل ما هنالك اشارات وامور لا تقوم أدلة كافية ومقنعة على ما اعتمدوه •• فانتساب بعض القبائل او البطون او العشائر الى امهاتهم وتأنيث اسماء القبائل واشتقاق لفظة الامة من الام ، واطلاق لفظ الخال على أهل الام ، وتعدد أنواع الزواج ، وامتلاك بعض النساء عصمتهن بالطلاق ، وغير ذلك مما عول عليه أصحاب هذه النظرية

---

(٤٢) محمد بن حبيب : من نسب الى أمه من الشعراء ضمن مجموعة نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون .

(٤٣) جرجي زيدان : انساب العرب القدماء ص ١٨

في أثبات بعض اقوالهم ، لا يجوز اعتباره دليلا على ان أساس الاسرة عندهم المرأة ، وانما على العكس ، يمكن اعتباره من الادلة القويـــة على احترام منزلة المرأة ، كما ان وجود هذه الاحوال في جاهلية العرب لا ينافي انتسابهم الى ابائهم .

أما قضية احوال الزواج فلا يمكن اعتبار ذلك قاعدة ، بل هي تعد من الشواذ ، واذا جاز لنا ان نجعل الشواذ قواعد لفسدت الاحكام .

ومن هنا كانت الادلة التي ساقها ويلكن[٤٤] وسمث وغيرهما في اثبات نظريتهم حول وجود الامومة عند العرب غير كافية ، لان التاريخ يثبت عكس ما جاءوا به . فالمجتمع السامي يعد الرجل رأس العائلة . والزوج هو السيد ، كما ان القرآن الكريم لم يورد في نص من نصوصه فقرة تشير الى الامومة ، أو تدل على وجودها ، أو أثر شيوعها ولو على سبيل النقد ، أو النهي ، أو الاصلاح ، ثم ان القبائل التي نسبت الى الام قليلة جدا ، وهو امر لم يكن غريبا حتى في عصرنا هذا . والشعراء الذين نسبوا الى امهاتهم لم يكونوا من الكثرة اذا قيسوا بغيرهم مـــن الشعراء ، وهناك ردود اخرى ، يمكن الرجوع اليها في كتاب انســاب العرب القدماء[٤٥] ونظرية الانساب في الميزان[٤٦] .

وطبيعي ان يدفع اصحاب هذه النظرية الى انكار الانساب العربية كما فعل سمث ، الذي قال : ان الانساب العربية اختلقت منذ زمن عمر (رضي) لكي يستطيع تنظيم العطاء[٤٧] .

---

(٤٤) ويلكن : الامومة عند العرب ، تعريب بندلي الجوزي .
(٤٥) جرجي زيدان : انساب العرب القدماء ص ٢٢ ــ ٢٧ ، والدكتور صالح احمد العلي في محاضرات في تـاريخ العـرب ص ١٣٩ ، ومحمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٦٤ .
(٤٦) عبد الوهاب حمودة : نظرية الانساب في الميزان .
(٤٧) روبرت سمث : القرابة والزواج عنـد العرب (الفصـل الاول) بالانكليزية .

والرد على سمث لا يحتاج الى كثير من العناء ، لان الاخبار التأريخية عن حياة النبي (ص) وحروب الردة ، تؤيد وجود هذه القبائل كوحدات مستقلة في معظم انحاء الجزيرة ، وقد وردت اسماء هذه القبائل في الشعر الجاهلي ، وهو يلقي ضوءا هاما على العلاقات بينها . كما ان الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان يؤكد على حفظ الانساب ، وما قول عمر بن الخطاب (رضي) ببعيد عنا حين قال : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا ..... »[48] .

فهل يصح بعد هذا ان نقول ان العرب لم تكن تربطهم بالنسب رابطة . وهل يصح بعد هذا ان تكون الانساب موضوعة في عصر متأخر أو أن الانساب وضعت لتنظيم العطاء كما يدعي سمث ؟

واذا فرضنا جدلا ان الانساب وضعت في القرن الاول الهجري ، فكيف ترضى القبائل التي أبعدها النسّابون عن النسب النبوي ، فقل عطاؤها أو ضعفت حقوقها ؟ وكيف لا تحتج على ذلك ؟ ولِمَ لم تظهر مظاهر الاحتجاج في أخبار المؤرخين ؟ ولم سكت الشعوبيون عن ذلك ؟

لقد تمتعت المرأة باحترام الرجل في العصر الجاهلي ، فهي لا تزوج الا بعد اخذ موافقتها . وكان لها الحق في رفض من لا تريده من الرجال، كما حصل بالنسبة للخنساء حين رفضت دريد بن الصمة[49] ، وكما وقع لهند بنت عقبة ، فقد جاءها ابوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا في الزواج منها فقالت صفهما لي ... فوقع اختيارها على واحد منهما فتزوجته[50] .

كما كان للمرأة حق التملك ، فجليلة بنت المهلهل كان لها ابل يرعاها

---

(٤٨) ابن خلدون : المجلد الاول من تاريخه ص ١٠٩ .
(٤٩) القالي : الامالي ٢/١٦١ .
(٥٠) القالي : الامالي ٢/١٠٤ .

زيد الخيل [٥١] ، وكانت خديجة بنت خويلد تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم [٥٢] ، كما كانت كذلك اوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ، واكثرهن مالا [٥٣] .

وقد ورد في الاخبار ان قسما من الشعراء كانوا يعتذرون لنسائهم عن اعمال قاموا بها أو ارتكبوها ، كشن الغارات ، أو ركوب المخاطر ، كما وقع لابي الطمحان القيني مع امرأته[٥٤] . وكما وقع لازهر بن هلال التميمي حين انتهى من حربه ، وقص على زوجته امره ، فقال لها وكأنه يطلب منها الصفح أو الاعذار [٥٥] :

أعاتك ما وليت حتى تبددت رجالي وحتى لم اجد متقدما
أعاتك أفناني السلاح ومن يطل مقارعة الابطال يرجع مكلما

وقد تميزت هذه الظاهرة في شعر الصعاليك . ويعد عروة بن الورد خير من يمثل هذه الظاهرة من بين الشعراء الصعاليك ، فهو يقول مخاطبا امرأته عندما نهته عن الخروج في غزوة مع أصحابه لما تخوفت عليه من الهلاك[٥٦] :

أرى أم حسان الغداة ، تلومني تخوفني الاعداء والنفس أخوف
تقول سُليمى : لو أقمت لسَرَّنا ولم تدر اني للمُقام أطوّف
لعل الذي خوفتنا من امامنا يصادفه في أهله المتخلف

---

(٥١) الاصفهاني : الاغاني ١٦/ ٥٠ ساسي .
(٥٢) ابن هشام : السيرة ١/ ٢٠٣ .
(٥٣) ابن هشام : السيرة ١/ ٢٠٥ .
(٥٤) الاصفهاني : الاغاني ١٣/ ٨ دار الكتب .
(٥٥) زكي المحاسني : شعر الحرب في ادب العرب ص ٣٧ . .
(٥٦) ديوان عروة ص ٩١ ــ بيروت .

ويقول أيضا وكانت امرأته قد نهته عن الغزو[٥٧] :

أقلي علي اللوم يا بنت منـــذر ونامي وان لم تشتهي النوم،فاسهري
ذريـني ونفسي ، أم حسان انني بها قبل أن لا أملك البيع مشتري

كما نلاحظ ان قسما من الشعراء قد ارتضى المرأة حكما ، كما جرى في قصة أم جندب وكيف فاضلت بين امرىء القيس وعلقمة [٥٨] .

لقد كان احترام الرجل للمرأة واضحا ، انعكست صوره في الشعر والادب والتاريخ . لانها عاشت الى جانبه ، وشاركته عيشه في الدعة والاضطراب ، وقاسته الحياة في السراء والضراء ، فاصطلى جسدها بنيران الحرب والسبي والقتل ، واضطرم قلبها بنيران الحب والهوى .

المرأة في الحرب :

لقد كان للمرأة دور كبير في الحرب ، لانها رمز القوة المعنوية ، يستلهمها الرجل في ساعات الشدة والضيق ، فيستمد عزما من رؤيتها الى جانبه ، فتثور فيه الحمية والحماسة والشجاعة ..

وقد رويت لنا مواقع كثيرة رافقت فيها النساء الرجال الى ميادين القتال حتى اذا رأين دائرة الحرب أوشكت ان تدور على قبيلتهـن ، حسرن البراقع وكشفن الشعور وبرزن الى المعمعة ، يستثرن حمية الرجال ، ويدفعنهم الى الدفاع عنهن وحمايتهن من السبي وهوانه . قال عمرو بن كلثوم في معلقته [٥٩] :

على آثارنا بيض كــــرام نُحاذِرُ أن تُفارَقَ أو تهونا[٦٠]

---

(٥٧) ديوان عروة ص ٦٣ ــ بيروت .
(٥٨) ابن قتيبه : الشعر والشعراء ص ٥٨ .
(٥٩) التبريزي : شرح القصائد العشر ص ٢٤٧ .
(٦٠) نساؤنا خلفنا نقاتل عنهن ونحذر ان نفارقهن او يصرن الى غيرنا ويقع عليهن الذل والهوان .

ظعائن من بني جشم بن بكر خلطن بميسم حسبا ودينا[٦١]

أخذن على بعولتهن عهدا اذا لاقوا فوارس معلمينا[٦٢]

اذا ما رحنا يمشين الهوينا كما اضطربت متون الشاربينا[٦٣]

يُقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا[٦٤]

اذا لم نحمهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيينا

وما منع الظعائن مثل ضربٍ ترى منه السواعد كالقلينا[٦٥]

واذا كان اكبار الشجاعة واحترام مظاهر البطولة يستحقان الاعجاب والتقدير من جميع الاشخاص ، فان اعجاب المرأة بهما أشد ، وتقديرها لهما أعظم ، لحاجتها الشديدة الى من يعولها ويعني بشأنها ويدافع عنها .

وكانت حماية المرأة جزءا من الخطة الحربية عند العرب دائما ، فمما يروى في ذلك : أن قبائل مذحج عندما خرجت في يوم فيف الريح تريد بني عامر كان معها النساء والذراري حتى لا يفروا . اما ظفروا واما ماتوا جميعا[٦٦] .

فالعربي يحارب حتى آخر رمق فيه ، ذابا عن نسائه اللاتي كن اذا جد الجد ، واشتبكت الرماح ،صحبن القبيلة ووقفن خلف الصفوف

---

(٦١) ظعائن : جمع ظعينة وهي المراة في الهودج . الميسم : الحسن . أي لهن مع جمالهن حسب ودين .

(٦٢) البعول : جمع بعل وهو الزوج واصله في اللغة ما علا وارتفع .

(٦٣) ابدان : جمع بدن وهو الدرع من الزرد او الدرع عامة . البيض : الحديد والمعنى انهم يسلبون اعداءهم ويسوقونهم امامهم اسرى مقيدين بالسلاسل .

(٦٤) يقتن من القوت ، وكانوا لا يرضون للقيام على الخيل الا بأهليهم اشفاقا عليها ، ويقلن انتم لستم لنا ازواجا ان لم تدافعوا عنا .

(٦٥) القلون : جمع قلة وهي الخشبة التي يلعب بها الصبيان .

(٦٦) ابو عبيدة : النقائض بين جرير والفرزدق ١٢٧/٢ تصحيح الصاوي

حتى اذا وجدن دائرة الحرب تدور على قبيلتهن كشفن عن وجوههن ، لما يداخلهن من الرعب أو تشبها بالآماء ليأمن السبي وليثرن الحمية في نفوس الرجال فيدفعنهم الى الاستماتة ، قال عمرو بن معد يكرب [٦٧] :

لما رأيت نساءنا　　يفحصن بالمعزاء شدا[٦٨]

وبدت لميس كأنها　　بدر السماء اذا تبدى[٦٩]

نازلت كبشهم ولم　　أر من نزال الكبش بدا[٧٠]

وفي يوم جدود[٧١] الذي وقع بين بني منقر من تميم ، وبين بكر من ربيعه نادى الاهثم بن سمي بأعلى صوته : يا آل سعد ، ونادى الحارث : يا آل وائل . وشد كل واحد منهما على صاحبه ولحقوا بنو منقر فقاتلوا قتالا شديدا ، ونادت نساء بني ربيعة : يا آل سعد ، فاشتد قتال بني منقر لما نادت النساء ، فهزمت بكر بن وائل وخلوا ما كان في أيديهم من السبي والاموال ولم تكن لرجل منهم همة الا أن ينجو بنفسه وتبعتهم منقر فمن قتيل وأسير .

فالمرأة كانت تثير الهمم في نفوس الرجال ، وتحرضهم على القتال. فعندما التقى الرسول (ص) وأصحابه مع جيش المشركين في أحد ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم ، فقالت هند فيما تقول[٧٢]:

---

(٦٧) ابو تمام : الحماسة : شرح المرزوقي ١٧٧/١

(٦٨) المعزاء : الارض الحزنة ذات الحجارةومعناه يؤثرن لشدة العدو في المعزاء .

(٦٩) وبرزت هذه المراة كاشفة عن وجهها سافرة .

(٧٠) كبش الكتيبة : رئيسها

(٧١) ابو عبيدة : النقائض بين جرير والفرزدق ٣٤/٢

(٧٢) ابن هشام : السيرة ١٣/٣ .

ويهاً[٧٣] بني عبد الدار ويهاً حماة الادبار[٧٤] ضرباً بكل بتار[٧٥]

وتقول :

ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق[٧٦]

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق[٧٧]

وكانت بعض النسوة يشتركن في الحرب فعلا ، فقد ذكر سعيد بن زيد الانصاري أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول : دخلت على أم عمارة ، فقلت لها : يا خالة ، أخبريني خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت الى رسول الله (ص) وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين[٧٨] فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله (ص) فقمت أباشر القتال ، واذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس ، حتى خلصت الجراح الي ، فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور فقلت ، ما أصابك بهذا ؟ فقالت : ابن قمئة أقمأه الله[٧٩] ، لما ولى الناس عن رسول الله (ص) أقبل يقول دلوني على محمد فلا نجوت ان نجا ، فاعترضت له انا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله (ص) فضربني هذه الضربة ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان [٨٠] . ويذكر الرواة أن لقيطا كان يصحب ابنته دختنوس في غزواته[٨١] . وكانت النساء يحملن القتلى بعد انتهاء المعارك .

---

(٧٣) ويها : كلمة معناها الاغراء والتحريض .
(٧٤) الذين يحمون اعقاب الناس .
(٧٥) البتار : السيف القاطع الماضي في ضربته .
(٧٦) جمع نمرقة وهي الوسادة الصغيرة .
(٧٧) الوامق : المحب .
(٧٨) الدولة : الغلبة .
(٧٩) اذله وأحقره .
(٨٠) ابن هشام : السيرة ٣٠/٣
(٨١) الاصفهاني : الاغاني ١٣١/١١ دار الكتب .

وكان الغناء الحربي من شأن النساء لما في تغنيهن من تأثير في نفوس الرجال ، ولم يكن شيء يثير حماسة الرجال ويدفعهم الى الاقدام مثل غناء النساء ، لان في بروزهن الى المعارك وغنائهن ما يثير عاطفة الرجال، ليزيدوا ثباتا في الحرب ولتدب الشجاعة الى نفوسهم ، فيستقتلوا في الدفاع عن اعراضهم ، ويستميتوا في سبيل شرف القبيلة .

فهند بنت النعمان بن المنذر ـ والتي كانت تلقب بالحرقة ـ طلبها كسرى من أبيها للزواج فأبى النعمان أن يزوجها ، فجند كسرى الجنود وفتك بالنعمان . وهربت هند ملتجأة الى بوادي العرب في خفاء ، فأجارتها صفية الشيبانية ، وحارب قومها كسرى وجنوده ، مما اضطر كسرى الى جمع جيش كبير ، ودارت المعركة الفاصلة في التاريخ (يوم ذي قار) فلما اشتد البأس ، رأس القوم عمرو بن ثعلبة الشيباني (أخو صفية) فسفرت هند بين يديه وقالت[٨٢] :

حافظ على الحسب النفيس الارفع ... بمدججين مع الرماح الشرع
وصوارم هندية مصقولة ... بسواعد موصولة لم تمنع
وسلاهب من خيلكم معروفة ... بالسبق عادية بكل سميدع
واليوم يوم الفصل منك ومنهم ... فاصبر لكل شديدة لم تدفع
يا عمرو يا عمرو الكفاح لدى الوغى ... ياليث غاب في اجتماع المجمع
أظهر وفاء يا فتى وعزيمة ... أتضيع مجدا كان غير مضيع

وكرمة بنت ضلع وهي أم مالك بن زيد فارس بكر كانت تهيج الرجال في الحرب بقولها ، منشدة مع النساء[٨٣] :

نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق

---

(٨٢) لويس شيخو : شعراء النصرانية القسم الاول ص ٢٣ وبشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ٢٣ مع بعض الخلاف .

(٨٣) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ٤٢ .

مشي القطي البـــارق		المســك في المفـــارق
والــدر في المخانـــق		ان تقبـــلوا نعانـــق
أو تــدبروا نفـــارق		فراق غـــير وامـــق
عرس المُولي طـــالق		والعـــار فيه لاحـــق

وهند بنت حذيفة بن بدر الفزاريه تحرض قومها على الاخذ بثأر أخيها حصن بن حذيفة ، وكان قد قتل يوم وقعة حجر(٨٤) :

تطـــاول ليلي للهموم الحواضر		وشيب رأسي يوم وقعة حاجـــر
لعمـــري وما عمري علي بهيّن		ولا حالف بَـرٌ كآخر فاجر(٨٥)
لقد نال كُرز يوم حاجر وقعـــة		كفتقومه أخرى الليالي الغوائر(٨٦)
فلله عينا مـــن رأى مثله فتـــى		تناوله بالرمح كرز بن عـــامر
فيا لبني ذبيـــان بكّوا عبيـــدكم		بكل رقيق الحـــد أبيض باتـــر
وكل رديني أصـــم كعوبـــه		ينوء بنصل كالعقيقة زاهـــر

وأم قرفة زوجة حذيفة بن بدر كانت عزيزة الجـــانب ، يضرب بعزها المثل قتل قيس بن زهير ابنها قرفة وحمل ديته الى ابيه فرضيها، فلما علمت بذلك قالت ترثيه وتعيّر زوجها بقبوله الدية(٨٧) :

حذيفة لا سلمت مـــن الاعـــادي		ولا ُوقيت شر النـــــائبات
أيقتـــل قرفـــة قيس فترضى		بانعـــام ونـــوق سارحـــات
أمـــا تخشى اذا قال الاعـــادي		حذيفـــة قلبه قلب البنـــات
فخـــذ ثأرا باطـــراف العوالي		وبالبيـــض الحداد المرهفـــات
والا خلني أبكـــي نهـــاري		وليلى بالدمـــوع الجاريـــات

---

(٨٤) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ٤٦ .
(٨٥) الحالف البر : الصادق في يمينه .
(٨٦) تريد ان كرزا قتـل سيدا كـريما فاكسب ذلك قومه شرفا الى آخر الدهر .
(٨٧) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ٤٣ .

لعل منيتي تأتي سريعـــا وترميني سهـــام الحـــادثات
فـذاك أحب مـن بعل جبـــان تـكون حيـاته اردا الحيـاة

هذه طائفة من شاعرات الجاهلية ، وهناك غـيرهن كثيرات مـن الشاعرات اللواتي لعبن دورا كبيرا في استثارة الهمم وتحريض الرجال للدفاع عن الحمى ، وقد زخر الادب العربي بصور كثيرة لبطولاتهن النادرة في كل مجالات الحياة .

وكثيرا ما استفزت النساء في أغانيهن الرجال بتهكم مر ، ومثل هذا التهكم يدفع بالعربي الى الاستماتة في القتال ، والاندفاع وراء الثأر غير مفكـر في شيء ، لئلا تشمت به النساء ، ولهـذا السبب كان الرجـال يبذلون أقصى ما يستطيعونه في سبيل المحافظة عليهن من أجل حمايتهن من السبي . وكان الحفاظ على الظعينـة في مجاهل الصحراء ومفازاتها دليلا من أدلة البطولة والفروسية . وكان الفارس الحقيقي يسيربظعينته في الصحراء منفردا ، وكان لقب حامي الظعينة من الالقاب التي يفتخر بها الفارس ويعتز ، لانه رمز من رموز القوة والشجاعة .

وقد كثرت أحاديث الظعينة في شعر الشعراء،وضرب المثل بحمايتها. فمما رواه صاحب الاغاني في أخبار ربيعة بن مكدم قوله [88] :

خرج دريد بن الصمة في فوارس من بني جشم ، حتى اذا كانوا بواد لبني كنانة يقال له الاخرم ، وهو يريد الغارة على بني كنانة ، رفع له رجل من ناحية الوادي معه ظعينة ، فلما نظر اليه قال لفـــارس من أصحابه ، صح به ان خل عن الظعينة وانج بنفسك ، وهو لا يعرفه . فانهى اليه الرجل ، فصاح به ، وألح عليه ، فلما أتى القى الزمام وقال للظعينـــة :

---

(88) الاصفهاني : الاغاني ٦٥/١٦ دار الكتب ، القالي : الامالي ٢٧١/٢ ابن عبد ربه : العقد الفريد ١٧٠/٥ ــ ١٧٣ .

سيري على رسلك سير الآمن سير رداح ذات جأش ساكن
ان انثنائي دون قرني شائني وابلي بلائي واخبري وعايني

ثم حمل على الفارس فقتله ، وأخذ فرسه ، فأعطاه الظعينة فبعث دريد فارسا آخر ، لينظر ما صنع صاحبه ، فرآه صريعا ، فصاح به ، فتصامم عنه ، فظن أنه لم يسمعه فغشيه ، فألقى الزمام اليها ، ثم حمل على الفارس ، فطعنه فصرعه ، وهو يقول :

خلِّ سبيل الحرة المنيعة انك لاق دونها ربيعة
في كفه خَطِّيَّة مطيعة أو لا فخذها طعنة سريعة
فالطعن مني في الوغى شريعة

فلما أبطأ على دريد بعث فارساآخر لينظر ما صنعا . فانتهى اليهما فرآهما صريعين ، ونظر اليه يقود ظعينته ، ويجرر رمحه ، فقال له الفارس : خل عن الظعينة . فقال لها ربيعة : اقصدي قصد البيوت ، ثم أقبل عليه فقال :

ماذا تريد من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس (٨٩)
أرداهما عامل رمح يابس

ثم طعنه فصرعه ، وانكسر رمحه ، فارتاب دريد وظن انهم قد أخذوا الظعينة ، وقتلوا الرجل فلحق بهم ، فوجد ربيعة لا رمح معه وقد دنا من الحي ، ووجد القوم قد قتلوا . فقال دريد : أيها الفارس ، ان مثلك لا يقتل ، وان الخيل ثائرة باصحابها ، ولا أرى معك رمحا ، وأراك حديث السن ، فدونك هذا الرمح ، فاني راجع الى اصحابي ، فمثبط عنك ، فأتى دريد أصحابه ، وقال : ان فارس الظعينة قد حماها ، وقتل فوارسكم ، وانتزع رمحي ،ولا طمع لكم فيه ، فانصرف القوم. وقال دريد في ذلك :

(٨٩) شتيم : كريه الوجه .

ما أن رأيت ولا سمعت بمثله حامي الظعينة فارسا لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة ثم استمر كأنه لم يفعل(٩٠)
متهلل تبدو أسرة وجهه مثل الحسام جلته كف الصيقل
يزجي ظعينته ويسحب رمحه متوجها يمناه نحو المنزل(٩١)
وترى الفوارس من فخامة رمحه مثل البغاث خشين وقع الاجدل(٩٢)

فقال ربيعة :

ان كان ينفعك اليقين فسائلي عني الظعينة يوم وادي الاخرم
هل هي لأول من اتاها نهزة لولا طعان ربيعة بن مكدم
اذ قال لي ادنى الفوارس ميتة خل الظعينة طائعا لا تندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه عمدا ليعلم بعض ما لم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل أهابه فهوى صريعا لليدين وللفم
ومنحت آخر بعده جياشة نجلاء فاغرة كشدق الاضجم(٩٣)
ولقد شفعتهما بآخر ثالث وأبى الفرار لي الغداة تكرمي

ثم لم يلبث بنو مالك بن كنانة رهط ربيعة بن مكدم ، أن أغاروا على بني جشم رهط دريد ، فقتلوا واسروا وغنموا ، وأسروا دريد بن الصمة ، فأخفى نسبه ، فبينا هو عندهم محبوس ، اذ جاء نسوة يتهادين اليه . فصرخت امرأة منهن ، فقالت : هلكتم واهلكتم ، ماذا جر علينا قومنا ؟ هذا والله الذي اعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة ثم القت عليه ثوبها وقالت : يا آل فراس ، أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادي . فسألوه من هو ؟ فقال : أنا دريد بن الصمة ، فمن صاحبي ؟ قالوا ربيعة بن مكدم ، قال : فما فعل ؟ قالوا : قتله بنو سليم ، قال :

---

(٩٠) نهزة : فرصة لمن يريدهم بشر .
(٩١) يمناه من اليمن اي توجه ظافرا ميمونا . (٩٢) البغاث : الطيور الضعيفة . والاجدل : الصقر .
(٩٣) جياشة : طعنة تجيش بالدم . والاضجم : صفة من الضجم ، وهو عوج في الفم وميل في الشدق .

فمن الظعينة التي كانت معه ؟ قالت المرأة : ريطة بنت جذل الطعان ، وأنا هي ، وأنا امرأته • فحبسه القوم وآمروا انفسهم ، وقالوا : لا ينبغي أن تكفر نعمة دريد على صاحبنا • وقال بعضهم والله لا يخرج من أيدينا الا برضا المخارق الذي أسره • وانبعثت المرأة في الليل فقالت :

سنجزي دريدا عن ربيعة نعمة ... وكل فتى يجزى بما كان قدما
فان كان خيرا كان خيرا جزاؤه ... وان كان شرا كان شرا مذمما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة ... باعطائه الرمح السديد المقوما
فقد ادركت كفاه فينا جزاءه ... وأهل بأن يجزى الذي كان انعما
فلا تكفروه حق نعماه فيكم ... ولا تركبوا تلك التي تملأ الفما
فلو كان حيا لم يضق بثوابه ... ذراعا ، غنيا كان او كان معدما
ففكوا دريدا من اسار مخارق ... ولا تجعلوا البؤسى الى الشر سلما

فاصبح القوم فتعاونوا بينهم ، فأطلقوه وكسته ريطة وجهزته ، ولحق بقومه ولم يزل كافا عن غزو بني فراس حتى هلك •

وكما سمي ربيعة بن مكدم حامي الظعينة سمي حنظلة بن ثعلبة مقطع الوضن(٩٤) لأنه قطع وضن النساء في يوم ذي قار ليدفع الرجال الى الاستماتة والقتال ، فعندما قام قال : يا معشر بكر • ان النشاب التي مع هؤلاء الاعاجم تفرقكم فعالجوا اللقاء وابدأوا بالشدة • وقال هاني بن مسعود : يا قوم : مهلك معذور خير من منجى مغرور • ان الجزع لا يرد القدر وان الصبر من أسباب الظفر • المنية خير من الدنية• واستقبال الموت خير من استدباره ، فالجد الجد ، فما من الموت بد ، ثم قام حنظلة بن ثعلبة ، فقطع وضن النساء ، فسقطن الى الارض وقال :

(٩٤) الوضينة : الكرسي المنسوج ، والوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر والوضين للهودج بمنزلة البطان للقتب والحزام للسرج . والوضين: بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير وقيل الوضين يصلح للرحل والهودج والبطان للقتب خاصة (لسان العرب ج ١٧ ص ٣٤٢) .

ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته ، فسبي مقطع الوضن [٩٥] .

وفي غزوة أحد ، خرجت قريش بحدها وجدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظعن [٩٦] ، التماس الحفيظة [٩٧] ، وأن لا يفروا ، فخرج أبو سفيان بن حرب ، وهو قائد الناس (معه) بهند ابنة عتبة . وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحرث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة[٩٨] .

كما كانت المرأة عاملا قويا من عوامل استمرار الحروب بين القبائل العربية ، بتحريضها على أخذ الثأر ، فلو لم تتغن البسوس بنت منقذ خالة جساس حينما اصاب كليب سرابا ناقة جارها الجرمي ، لما اندفع جساس الى قتل صهره كليب ، ولما وقعت حرب البسوس[٩٩] . ولو لم تعير كبشه أخت عمرو بن معد يكرب قومها ، وتثر في نفوسهم الحمية ، وتهجهم لادراك الثأر ، وترك التباطوء والتكاسل ، لما ثار قومها . ووقعت بينهم الحرب[١٠٠] .

كما روى الراوون أن ذؤاب بن اسماء العبسي ، قتل عبدالله بن الصمة ــ وكان ذؤاب بطلا أيدا قويا ــ فلبث دريد يترقبه ، حتى أعياه ، فلما انقضى الحول ، ولم يأخذ بثأر أخيه ، قالت أمه ريحانه بنت معد يكرب : يا بني . ان كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك ، فاستعن بخالك وعشيرته من ز بيد ، فأنف لذلك . وحلف لا يدّهن ولا

(٩٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/٢٦٣ ــ ٢٦٤ .
(٩٦) الظعن : جمع ظعينة وهي المراة في الهودج واصلها الهودج فلما كانوا لا يطلقون على الهودج ظعينة حتى تكون فيه النساء ، توسعوا فاطلقوها على المراة .
(٩٧) الحفيظة : الانفة والفضب .
(٩٨) ابن هشام : السيرة ٣/٥ ــ ٦
(٩٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/٢١٤
(١٠٠) الاصفهاني : الاغاني ١٤/٢٣ ساسي .

يكتحل ولا يمس طيبا ولا يأكل لحما ولا يشرب خمرا حتى يدرك ثأره.

ثم استجمع بعبس وفاجأهم ، وأوقع بهم واقتاد ذؤابا أسيرا وذهب به الى فناء أمه ، فقتله بمرقب منها ثم قال لها : هل بلغت ما في نفسك ؟ قالت : نعم . مُتعت بك (١٠١) .

لقد كانت المرأة مبعث الهمم ، فكانت الكلمة تخرج من فيها هادئة وادعة فيكون لها أبعد الآثار في اثارة النفوس .

أما مشاركتها في غناء الحرب ، فقد كانت مشاركة فعالة ، فكن يذهبن مع الرجال ـ كما مر ـ الى ساح المعارك فيثرن في قلوب الرجال الحماسة والاقدام ويحضضنهم على لقاء الاعداء والصبر على ذلك ويبثن فيهم روح المقاومة والاستماتة ، وأي رجل يرى ذات خدر تخوض غمرات الحرب ، وتقاتل قتال الابطال ، ولا تثار نخوته ، وتضطرم الحمية في نفسه ، فيندفع في حومة الوغى ساخراً بالموت ، ولا يأبه لصلصلة البيض ، ولا يجزع من رنين القسي ، ولا يخشى التماع الأسنة ؟ .

وقد ازدهرت صفحات الادب الجاهلي ببطولة بعض النساء اللواتي خلدن أمجادهن ، ورسمن أروع المآثر الخالدة ، وبذلك حفل التاريخ العربي بسواطن سامية لها وآيات رفيعة لمناقبها ، التي تستحق كل تقدير واجلال .

فهذه صفية بنت ثعلبة الشيبانية تخاطب قومها وتستثير في نفوسهم الهمم ليكونوا أكثر ثباتا في المعركة ضد كسرى وجيوشه عندما غزوهم فتقول :(١٠٢) :

ماذا ترون بني بكر فقد نزلت كبرُ الذوائب والاخرى على الاثر
أتصبرون لشعواء ململمةٍ فيها الاعاجم بالنشاب والوتر

---

(١٠١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/٧١٣ .
(١٠٢) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ١٦ .

أم لستـــم أهل صبر في لوازمها عند الحفائظ والجارات والخَفَر
أنى أجرت بكم يا قوم فاصطبروا فالصبر يحلل فوق الانجم الزهر
ايهاً أجيبوا بني بكر حجيجتـــكم ما عندكم ويحكم من غاية الخبر[103]
يا أيها الشم أنتم حافظـــو ذممي وانتم فلعمري العز مـــن عمـــري
اما صبرتم فـــلا ادعو لغيركـــم وان جزعتم انادي كل ذي حـــضر
بكـــل سام الى الهيجاء ذي شرف واري الزناد كريم الجد مـــن مضر
ذي مرة لا يخاف الجند ان كثروا في سادة قـــادة معروفـــة صبـــر

فاجابها قومها الى طلبها ، وقاموا على الاستعداد للقاء جنـــد كسرى ، فلما قدموا ، أقبلت صفية على قومها تحرضهم وتشجعهـــم ، فرقـــة فرقـــة ، وقبيلة قبيلة ، فخاطبت بني حنيفة بقولها[104] :

ايهاً أجيدوا الضرب يا حنيفة فانتم الجمجمـــة الشـــريفة
ان الجنود حولكم كثيفـــــة فلا تهلكم وتزدكم خيفـــــة

ثم أقبلت على بني لجيم فقالت[105] :

لجيم قومي وبنو أبينـــا ليسوا لدى الهيجا مُغَلَّبينا
بل ظافرون وحماة فينـــا العز فيهم حين يلجمونـــا
ويسرحون ثم يحملونـــا ايهاً بني الاعمام فانصرونا

ثم اقبلت الى بني عجل وفيهم أبوها وأخوها وهي تردد شعرا تثير فيه حبتهم[106] ، ثم مرت على بني ذهل وبني شيبان فسارت وهـــم من خافها وهي تقول شعرا[107] .

فحمل العرب على جنود كسرى (الذي كان يقود جنوده في تلك

---

(١٠٣) حجيجتكم : لقب الشاعرة صفية بنت ثعلبة .
(١٠٤) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ١٦
(١٠٥) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ١٦
(١٠٦) نفس المصدر ص ١٧
(١٠٧) نفس المصدر ص ١٧

الوقعة) • وتكاثر جنود العجم على العرب ، حتى كادوا ينهزمون • فقامت صفية تقطع الحبال ، فسقطت النساء عن الجمال ، ورأى رجالهن ذلك فعطفوا على القتال عطفة من لا يرجو الحياة ، وصاحت صفية بأعلى صوتها تنادي أخاها [١٠٨] :

يا عمرو يا عمرو الفتى بن ثعلبه   حامٍ على جارتك المُستقربه

وهكذا انتهت معركة ذي قار بانتصار العرب ، فكانت معركة فاصلة في حياتهم ، بذل الرجال فيها ما يستطيعون من قوة ، وبذلت النساء ما يملكن من شجاعة وبطولة ••

الحرب :

الحرب ظاهرة بشرية صحبت الانسان منذ فجر التاريخ ، وان تباينت الصور التي جاء فيها القتال ، ولا بد ان يكون الامر قد بدأ قتالا بين أفراد ، للتنازع على ملكية شيء ما ، مهما كانت قيمة هذا الشيء ، وان هذا القتال قد بدأ تماسكا بالايدي ، او تقاذفا بالاحجار ، أو تضاربا بالعصي • ولكن الفكرة لا تخرج عن نطاق القوة الجسدية التي كانت عاملا له قيمته في تلك البيئة •

فالحياة البدوية ، بطبيعتها الصحراوية ، وظروفها الحيوية • كانت منطلقا واسعا ، وميدانا فسيحا لقيام الحرب • وهي في الوقت نفسه وهبت العربي حب الانطلاق ، فعاشت الحرية في دمه فقدسها • وجعلها مثلا عاليا من مثله • وتقليدا محترما من تقاليده ، فهو يأبى العبودية ، ولا يرضى بها من أية جهة كانت ، ويتمرد على الهوان ولا يخضع للمذلة ويفضل الموت ، وهو يقتل تحت صليل السيوف ، من أن يعيش عبدا ذليلا في ظل نعيم وافر :

---

(١٠٨) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ١٨ •

نفود ونأبى أن نقـاد ولا نرى   لقوم علينا في مكارمهم فضلا (١٠٩)

والحرب • أكبر ميدان لتدريب الفرسان ، فيها يتقوم الضعيف، ويشتد ساعده ، ويقوى عوده ليكون اهلا للنزال اذا التحمت المعارك، واشتدت المنازعات ، وليذود عن حماه ، ويدافع عن الحقيقة ، ويصون العرض ، ويرفع اسم القبيلة عاليا في مجالات المجد والرفعة والسؤدد ، قال الطفيل الغنوي(١١٠) :

وفينا ترى الطُّولى وكلَّ سميدع   مُدرب حرب وابن كل مدرب(١١١)
طويـل نجـاد السـيف لم يرض خُطـة   من الخسف وراد الى الموت صقعب(١١٢)
وفينا رباط الخيل كل مطهـم   رَجيـل كسرحان الغضا المتأوِّب

فهذه الطبيعة وهذا المزاج ، كانا يؤديان الى اصطدام مع القبائل الاخرى التي كانت تؤمن ايمانا كليا باخضاع القبائل لمشيئتها ، فبعض القبائل كانت تسعى وراء المجد الرفيع ، والسلطان الشامل على حساب القبائل الاخرى ، وهذا بطبيعته كان يدفع القبائل الى التناحر والتصادم محافظة على وحدتها وسمعتها ، ويدفع بكثير من القبائل القليلة العـدد والتي تستشعر بتهديد الحرب لها على تكوين الاحلاف(١١٣) دفاعا عن المصالح المشتركة ، وتقوية لنفوذها • وكانت معظم القبائل داخلـة في هذه الاحلاف ، الا عددا قليلا منها لا تدخل مع غيرها ، وتسمى

---

(١٠٩) شعر الافوه الاودي ص ٢٢ الطرائف الادبية .
(١١٠) شعر الطفيل الغنوي ص ٤ ــ ٥ كرنكو .
(١١١) السميدع : السيد الموطأ الاكناف او السيد الذي يلاذ به ويضاف في كنفه .
(١١٢) الصقعب : الطويل .
(١١٣) الاصل في الحلف ان يكون بين قبائل او عشائر ، كانت مرتبطة فيما بينها برباط ، تتفاوت وثاقته . والظاهر انهم كانوا يرمـون من اقامة هذا الحلف الى توحيد الجماعات التي كانت مفرقة الكلمة وقد كان لقسم من هذه الاحلاف اهمية كبيرة ، لانها عقدت للاخذ بناصر المظلومين ، كما هو الحال بالنسبة لحلف الفضول .

هذه القبائل « جمرات العرب » . منها بنو عامر بن صعصعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة ، وبنو عبس ، فاذا تحالفت اطفئت . فقد جاء في كتاب التاج قول أبي عبيدة : « اطفئت جمرتان من جمرات العرب ، بنو ضبة لانها صارت الى الرباب فحالفتها . وبنو الحارث ، لانها صارت الى مذحج فحالفتها . وبقيت بنو نمير الى الساعة ولم يدخل بينها أحد (١١٤) .

وتتميز هذه القبائل عن غيرها بقوتها ، وكثرة عددها . فكانت تتفاخر بنفسها لانها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ حقها بيدها . وتنال ثأرها بسلاحها ، كما ان بعض القبائل كانت تشرك مواليها في الحرب اذا وجدت حاجة لذلك ، الى جانب الصرحاء ، كما فعلت مذحج في يوم الكلاب ، والى ذلك يشير ربيعة بن مقروم فيقول : (١١٥) :

وساقت لنا مذحج بالكلاب ... مواليها كلها والصميما(١١٦)
فدارت رحانا بفرسانهم ... فعادوا ، كأن لم يكونوا ، رميما
بطعن يجيش له عاند ... وضرب يفلق هاما جثوما

ومما تقدم ، نستطيع أن نقول ان العرب كانوا يخوضون الحرب من أجل مظاهر الخصب كلها ، الى جانب أسباب أخرى ، منها اجارة المستجير التي كانت تكفي للمحاربة في سبيل ايوائه ، أو حماية الجار ، أو الدفاع عن العرض ، والاخذ بالثأر ، والوصول الى الرئاسة والزعامة . ومع ذلك فان اباءة النفوس عندهم ، مع ما هم عليه من الشجاعة والبأس ، وما هم عليه من المجاورة والاتصالات ، كانت

---

(١١٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٣٦٧ ، ابن رشيق : العمده ٢/١٨٨

(١١٥) المفضل الضبى : المفضليات ١/١٨٢ . وكما فعلت قريش في فتح مكة ، حيث استعانت بالاحباش لمعاونتها .

(١١٦) الموالي هنا : الحلفاء ، الصميم ، الصريح . الخالص في نسبه واراد بالكلاب ، الوقعة بين مذحج وتميم .

تقتضي المنافسة لامور كثيرة . فكم لطمة جرت حربا كما حصلت حرب داحس والغبراء التي تحدثنا عنها في « أيام العرب » ، وكلمة رمّلت المئات كما هو الحال بالنسبة لحرب البسوس (117) وحروب الاوس والخزرج الطويلة التي كانت بسبب كلمة قالها رجل يقال له سُمير فجرت ذلك الويل الطويل (118) . ونظرة يتمت الوفا من الاطفال (119) وضربة فرشت البر جماجم (120) .

---

(117) ومن حديثها انه عندما اعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا مجامعة بني شيبان ومساعدتهم على قتال اخوتهم ، واعظموا قتل جساس كليبا رئيسهم بناب من الابل ، انقبض الحارث بن عباد في أهل بيته ، واعتزل الحرب حتى قتل ابنه بُجير بن الحارث ، ويقال انه كان ابن اخيه ... فلما بلغ الحارث قتله ، قال : نعم القتيل قتيل اصلح بين بني وائل ، وظن ان المهلهل قد ادرك به ثار كليب وجعله كفئا له فقيل له : انما قتله بشسع نعل كليب . وذلك ان المهلهل لما قتل بجيرا قال : بؤ بشسع نعل كليب . فغضب الحارث ابن عباد ، وكان له فرس يقال لها النعامة . فركبها وتولى امر بكر فقاتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب .
(ابن عبد ربه العقد الفريد ٥/٢٢٠)

(119) كما وقع في يوم الفجار الثاني . وكان الذي هاجه ان فتية من قريش قعدوا الى امراة من بني عامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وقالوا بل اطاف بها شباب من بني كنانة وعليها برقع وهي في درع فضل فأعجبهم ما رأوا من هيئتها ، فسألوها ان تسفر عن وجهها ، فأبت عليهم . فاتى احدهم من خلفها ، فشد دبر درعها بشوكة الى ظهرها وهي لا تدري ، فلما قامت تقلص الدرع عن دبرها ، فضحكوا فنادت المراة يا لعامر ، فتحاور الناس ، وكان بينهم قتال ودماء يسيره ، فحملها حرب بن أمية واصلح بينهم .
(ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/٢٥٢)

(120) كما وقع في الفجار الاول عندما كان بدر بن معشر الكناني يمد رجله في سوق عكاظ ويقول : انا أعز العرب ، فمن كان أعز منها فليضربها بالسيف ، فضربها الاحمر بن هوازن فكان بين القبيلتين التشاجر .
(ابن رشيق : العمدة ٢/٢٠٧)

ومهما تكن اساليب الحروب التي وقعت في الجاهلية . فان قسما منها كانت بدافع الحصول على الكلأ والمرعى ، كما حصل بالنسبة ليوم سفوان ، عندما التقوا بنو مازن وبنو شيبان على ماء يقال له سفوان ، فزعمت كل واحدة منهما انه لها[١٢١] .

وكما وقع في يوم هرا ميت بين الضباب وجعفر بسبب بئر اراد أحد أن يحتفرها [١٢٢] ، وكما وقع في غيرهما من الايام ..

وكان القسم الآخر منها بدافع الاستيلاء على اكبر قدر من الغنائم والاسرى . فقد روي أن أبا براء عامر بن مالك (ملاعب الاسنة) ، كان يلح على ضرار ، طمعا في فدائه أثناء حرب يوم السلان ، التي وقعت بين بني عامر بن صعصعة وبين قوم النعمان بن المنذر ، وجعل بنوه يحمونه ، فلما رأى ذلك أبو براء قال له : لتموتن أو لاموتن دونك، فأحلني على رجل له فداء ، فأومأ ضرار الى حبيش بن دلف ـ وكان سيدا ـ فحمل عليه أبو براء فأسره ، وكان حبيش أسود مخيفا دميما ، فلما رآه كذلك ظنه عبدا ، وان ضرارا خدعه ، فقال أنا لله الا في الشؤم وقعتُ ، فلما سمعها حبيش منه خاف أن يقتله ، فقال ايها الرجل ان كنت تريد اللبن ، فقد أصبته . وأفتدى نفسه بأربعمائة بعير [١٢٣] .

ومن وصية أكثم بن صيفي عندما بلغ قومه أن مذحجا وأحلافهم عازمون على غزوهم قال : « البسوا جلود النمر ، والثبات أفضل من القوة ، اهنأ الظفر كثرة الاسرى ، وخير الغنيمة المال »[١٢٤] .

ان نفس العربي وما فطرت عليه من شجاعة واباء وشمم وفروسية

---

(١٢١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/٢٠١
(١٢٢) ابن رشيق : العمدة ٢/٢٠٤
(١٢٣) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١/٢٦١
(١٢٤) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١/٢٦١

كانت تجعل الحرب قريبة منه ، مألوفة لديه ، بل محبوبة عنده في كثير من الاحيان ، لانه يعدها مجالا لبطولته ، وامتحانا لمواهبه ، فالمجتمع الجاهلي كان يؤمن بالقوة ايمانا جعلها من مقومات الحياة ، وعنصرا أساسيا من عناصر البقاء ، كما جعل الغزو السبيل الوحيد لاستمرار هذا البقاء ، فالحروب كانت ضرورة للحصول على العيش ، وتحقيق الكرامة والحرية ، ثم صارت غاية يفتخر بها • فكانت بالنسبة لهم المشغلة الاساسية ، وكانوا يعدون ابناءهم لها اعدادا ، لانها مسرح الرجولة والبأس،ووسيلة الظفر بالثناء ، والعمل المثير لاعجاب المرأةبهم•

وكان الفارس يدرك ثقل المهمة الملقاة على عاتقه ، والعاطفة المتأججة في نفسه ، لتركه الابناء ، وابتعاده عنهم ، ولكنه لم يستطع كبح جماح نزوته في الانتصار والغلبة والحصول على الابل والغنائم التي لا يسقيها الساقي الا بعد شق النفس والجهد الجهيد لكثرتها ، قال سلامة ابن جندل(١٢٥) :

تقول ابنتي ان انطلاقك واحدا	الى الروّع يوما تاركا لا اباليا
دعينا من الاشفاق أو قـّدمي لنا	من الحدثان والمنيـة واقيا
ستتلف نفسي أو سأجمع هجمةً	ترى ساقييها يألمان التراقيا

لقد حفل الشعر الجاهلي بصور رائعة لغارات الفرسان ، وخوارق بطولاتهم ، ومثل تضحياتهم ، وصواب آرائهم في الحرب ، وطرائق هجماتهم وفنون القتال ، كما ان الشاعر الجاهلي استطاع أن يقدم لنا موضوعات كاملة في البطولة ، يتحرك فيها الافراد ، وتلتمع الاسنة ، وتطارد الخيل الخصم ، وتلتحم الفرق المتناحرة بطريق الكر والفر ، كما صور لنا الاسرى والسبايا والغنائم بأساليب شعرية رائعة ملأت حيزا واسعا من قصائده ، واصبحت الطابع المميز للشعر في هذه الفترة •

---

(١٢٥) ديوان سلامة بن جندل ص ٢١

قال زيد الخيل يصف نفسه وقد علا غبار المعركة وجهه فشمر عن ساقه استعدادا لها [١٢٦] :

رأتني كأشلاء اللجام ولن ترى ... أخا الحرب الا ساهم الوجه اغبرا
أخا الحرب ان عضت به الحرب عضها ... وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال قيس بن الخطيم في حرب حاطب [١٢٧] :

دعوت بني عوف لحقن دمائهم ... فلما أبوا سامحت في حرب حاطب
وكنت امرءا لا ابعث الحرب ظالما ... فلما أبوا اشعلتها كل جانب
أربت بدفع الحرب حتى رأيتها ... على الدفع لا تزداد غير تقارب
فاذ لم يكن عن غاية الموت مدفع ... فأهلا بها اذ لم تزل في المراحب

والمفضل النكري من أصحاب المنصفات [١٢٨] يبدي اعجابه بأعدائه، وينصفهم انصافا ظاهرا ، فالقتل قد وقع بين القبيلتين ، والسباع قد شبعت من عشيرته وعشيرتهم ، وبكت نساؤه ونساؤهم ، فثبتوا في الحرب ، وصبروا على مصائبها ، واحتملوا عواقبها • وفي ذلك أسمى آيات الفروسية وأروع أمثلة الخلق النبيل [١٢٩] :

---

(١٢٦) البحتري : الحماسة ص ٣٧ وتنسب في حماسة ابن الشجري الى حاتم الطائي ص ١٥ .

(١٢٧) ديوان قيس بن الخطيم ص ٣٢ تحقيق الدكتور احمد مطلوب وابراهيم السامرائي ، وحاطب حليف للأوس قتل فكانت بينهم وبين قاتليه حرب في قتله .

(١٢٨) هي القصائد التي انصف قائلوها فيها اعداءهم ، وصدقوا عنهم وعن انفسهم ، فيما اصطلوه من حر اللقاء ، وفيما وصفوه من احوالهم دون مبالغة او مغالاة ، فذكروا بطولاتهم الى جانب بطولة خصومهم ، انصافا لهؤلاء الابطال ، وتأييدا لهم في ثباتهم امامهم . والمنصفات كما ذكرها صاحبا الاشباه والنظائر . ثلاثة ص ١٤٩ ، وهي دليل من ادلة شعر الفروسية .

(١٢٩) الاصمعيات ص ٢٣٢ ، وذكرت أبيات منها في الاشباه والنظائر ص ١٤٩ .

هُمُ صبروا وصبرهم تليد — على العزاء اذ بلغ المضيق[١٣٠]
وهم دفعوا المنية فاستقلت — دراكا بعدما كادت تحيق
تلاقينا بغيبة ذي طُريف — وبعضهم على بعض حنيق[١٣١]
فجاؤوا عارضا برِدا وجئنا — كسيل العرض ضاق به الطريق[١٣٢]
مشينا شطرهم ومشوا الينا — وقلنا اليوم ما تقضى الحقوق
وكم من سيد منا ومنهم — بذي الطرفاء منطقه شهيق
فأشبعنا السباع وأشبعوها — فراحت كلها تئق" يفوق[١٣٣]
فأبكينا نساءهم وأبكوا — نساء ما يسوغ لهن ريق

وقال المزرد بن ضرار الغطفاني يفخر بشجاعته ويصف سلاحه[١٣٤]:

وقد علمت فتيان ذبيان أنني — أنا الفارس الحامي الذمار المقاتل
وانى أردالكبش والكبش جامح — وأرجع رمحي وهو ريان ناهل[١٣٥]
وعندي اذا الحرب العوان تلقحت
وأبدت هواديها الخطوب الزلازل[١٣٦]

وقال ربيعة بن مقروم يفخر بقومه ويصف شدة بأسهم في الحروب[١٣٧]:

---

(١٣٠) العزاء: الشدة .
(١٣١) الغيبة: الهبطة من الارض ، وطريف موضع بالبحرين كان لهم فيه وقعة .
(١٣٢) عارضا ، اي كالعارض ، وهو السحاب يعترض في افق السماء ، العرض بكسر العين: الوادي .
(١٣٣) التئق . المتلىء . فاق ، يفوق ، فوّوقا .اخذه البهر .
(١٣٤) ديوان المزرد ص ٣٥ .
(١٣٥) كبش القوم: بطلهم وسيدهم . الناهل: الريان . وهو من الاضداد يقال ايضا للعطشان .
(١٣٦) العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة . تلقحت: اي حملت بالقتال . هواديها: اوائلها .
(١٣٧) المفضليات جـ١ ص ١٨١ .

بنو الحرب يوما اذا استلأموا حسبتهم في الحديد القروما[138]
تركنا عمارة بين الرماح عمارة عبس نزيفا كليما[139]
ولولا فوارسنا ما دعت بذات السليم تميم تميما[140]

وقد وصفوا شدتها أنها اذا باشرها الشيخ المجرب البصير غص بريقه ، قال بشير بن عمرو بن مرثد[141] :

قل لابن كلثوم الساعي بذمته أبشر بحرب تغص الشيخ بالريق
وصاحبيه فلا ينعم صباحهما اذفرت الحرب عن انيابها الروق

نستطيع أن نستنتج مما مر أن العرب شغلوا بالحرب كثيرا ، وانهم تحدثوا عنها بأشعارهم ، حتى أصبح الحديث عنها موضوعا أساسيا من موضوعات شعرهم .

اساليب القتال :

لم تكن اساليب القتال في العصر الجاهلي اساليب موحدة ، أو ذات انظمة معينة ، وانما تتحدد طريقة القتال بحسب طبيعة المقاتلين . فالقبائل البدوية لها طريقة معينة ، تعتمد على الغارة في اغلب الاحيان ، اما الدول العربية التي تمدنت قبل الاسلام كالحميريين والسبأيين والمناذرة والغساسنة ، فكانت لها كتائب من الجند على نحو ما نعرف عن الدوسر والشهباء[142] .

وكانت طريقة قتالها تعتمد على التنظيمات ، فكل مجموعة عليها

---

(138) استلأموا : لبسوا اللأمة وهي السلاح . القروم : فحول الابل .
(139) عمارة هو ابن زياد العبسي وهو احد الكملة الثلاثة:عمارة والربيع وانس وامهم فاطمة بنت الخرشب الانمارية التي مرّ ذكرها .
(140) ذات السليم : موضع كان به يوم من ايامهم .
(141) المفضل الضبي : المفضليات ٢/٧٤ .
(142) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ١/١٦٩ .

قائد تخضع له ، يليه ضابطان يقود كل واحد منهما مجموعة اقل،وهكذا تتدرج القيادة حتى تصل الى طبقة الفرسان التي تقود اقل مجموعة من الجند(١٤٣) .

على اننا لا نريد ان نبحث الموضوع من خلال هذه التنظيمات ، لان ذلك يخرج بنا عن المجال الذي يدور فيه بحثنا وهو المجتمع الجاهلي في داخل الجزيرة العربية . ولذلك سنقتصر في البحث على طريقة القبائل في القتال والتي تعتمد على الكر والفر ، وهي الطريقة التي قامت على اساسها اكثر ايام العرب .

ولقد تحدث الشعراء عن معاركهم ، وعن اساليب القتال التي كانوا يسلكونها عند التقائهم بالعدو ، الا ان بداية المعركة كان يتحدد بالنسبة للظروف التي تسودها ، فاذا اخذ القوم على حين غرة ، حدثت بينهم الفوضى وسادهم الاضطراب وخرجت النساء يتملكهن الرعب والهلع . وقد صور لنا عوف بن عطية حالة قوم غزاهم في فتيان من عشيرته،فوصف ما اصاب نساءهم من ذهول واضطراب فقال(١٤٤) :

ولنعم فتيان الصباح لقيتم	واذا النساء حواسر كالعُنقُر
من بين واضعة الخمار واختها	تسعى ومنطقها مكان المئزر
ونكر اولاهم على أُخراهم	كرِ المحلإ عن خِلاط المصدر

وقد تلتقي القبائل احيانا ، ويبدأ القتال بطريقة المبارزة ، وذلك بأن يخرج من احد الفريقين فارس مشهور يطلب ان يخرج لمبارزته فارس آخر في مثل مركزه(١٤٥) ، وقد يطلب احد الفريقين الصراع أو

---

(١٤٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ١٦٨/١ .

(١٤٤) المفضل الضبي : المفضليات ١٢٧/٢ . العنقر : اصل البقل والقصب والبردى ما دام ابيض . المحلإ : البعير يمنع من ورود الماء . المصدر هنا : صدور الابل عن الماء . وخلاطها يريد مخالطتها ، يعني تطردهم كطرد الابل عن الماء .

(١٤٥) الواقدي : مغازي رسول الله ص ٤٩ .

الطعان أو المسايفة[١٤٦] .

وقد تحدث المبارزة بعد بدء القتال[١٤٧] ، فاذا انتهى النزال تراشقوا بالنبال[١٤٨] ، حتى اذا تقاربوا من بعضهم سلّوا السيوف . واذا تباعدوا تضاربوا بالرماح . واستعمال الرماح يكون عادة بالنسبة للمشاة ، واستعمال السيوف يكون بالنسبة للفرسان .

قال انيف بن حكم النبهاني[١٤٩] :

فلما التقينا بيّن السيف بيننا صدور القنا منهم وعلت نهالُها[١٥٠]
ولما تدانوا بالرماح تضلّعت لسائلةٍ عنّا حفى سؤالُها[١٥١]

وقد تقف جماعة من المقاتلين في المؤخرة لتحمي ظهور المحاربين ، وتكون هذه الجماعة عادة من الرماة[١٥٢] . كما يعهد اليها مهمة رشق الخيل بالنبل ، لان الخيل لا تقدم على النبل[١٥٣] . وكان للفرسان شعار يتعارفون به[١٥٤] ، وكلمة يتنادون بها في المعركة . وقد يكون هذا الشعار اسم جد القبيلة كما جاء في قول انيف بن حكم النبهاني ايضا[١٥٥] :

فلما أتينا السفح من بطن حائل بحيث تلاقى طلحها وسيالها
دعوا لنزار وانتمينا لطيء كاسد الشرى اقدامها ونزالها[١٥٦]

---

(١٤٦) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١ / ٢١٩ .
(١٤٧) الواقدي : مغازي رسول الله ص ١٧٦ .
(١٤٨) الواقدي : مغازي رسول الله ص ١٧٤ ، ص ٤٨ .
(١٤٩) ابو تمام : الحماسة . شرح المرزوقي ١ / ١٧٢ .
(١٥٠) الاحفاء يكون في السؤال عن الشيء ويكون بطلب الشيء من الغير وهو المبالغة فيهما .
(١٥١) يقول ولما تقاربنا باستعمال الرماح رويت القنا من دمائهم .
(١٥٢) الواقدي : مغازي رسول الله ص ١٧٥ .
(١٥٣) الواقدي : مغازي رسول الله ص ١٧٥ .
(١٥٤) نفس المصدر ص ٥١ .
(١٥٥) ابو تمام : الحماسة . شرح المرزوقي ١ / ١٧١ .
(١٥٦) انتمينا : انتسبنا اي قالوا : يا لنزار ، وقلنا نحن : يا لطي .

اما قيادة الحرب فتكون لفارس القبيلة الذي يتسلم اللواء عند الحرب ، لتوفر مؤهلات الفروسية فيه ، كالشجاعة والبأس ، والمهارة في ركوب الخيل ، والقدرة على تدبير امور الحرب واستعمال السلاح •

وقد عرف العرب الجاهليون اللواء والراية ، وللراية شأن كبير في الحرب • لان الناس انما يؤتون من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا •وقد كان في جملة مناصب قريش منصب اللواء ، ويسمونه (العقاب) باسم رايتهم يومئذ • وكانوا اذا خرجوا الى حرب اخرجوا الراية ، فاذا أجتمع رأيهم على أحد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها • وكان تارة من بني أمية وتارة من بني عبد الدار •

فقد كان صاحبها في موقعة بدر عقبه بن ربيعة ، وفي احد والخندق ابو سفيان ابن امية[١٥٧] •

على ان الحروب الجاهلية لم تعرف الجموع الحاشدة ،لان معظمها في الواقع لم تكن حروبا بالمعنى المفهوم لها ، فهي أقرب الى المناوشات والمصادمات المحلية منها الى الحروب ، وهذا ما لا يستوجب اعدادا كبيرة من المقاتلين ، والظاهر ان معدل الذين كانوا يشتركون في معظمها يقارب المئة ، فقد روى ابن قتيبة[١٥٨] ان عمر بن الخطاب(رض) سأل بعض بني عبس : كم كنتم يوم الهباءة[١٩٥] ؟ فقال : كنا مائة كالذهب ، لم نكثر فنتواكل ولم نقل فنذل • وروى ان عنترة العبسي سئل : كم كنتم يوم الفروق[١٦٠] ؟ فقال : كنا مائة لم نكثر فنفشل ولم نقل

---

(١٥٧) ابن حبيب : المحبر ص ١٦٥ وجرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ٣٨/١ . وكان لابناء كليب وائل لواء ربيعة فكان في عنزة بن اسد ثم تحول اللواء في عبد القيس ثم تحول في النمر بن قاسط الخ ذلك . (ابن الاثير : تاريخ الكامل ٢١٤/١) .

(١٥٨) ابن قتيبة : عيون الاخبار ١٢٥/١ .

(١٥٩) الهباءة : ارض لغطفان ويومها من ايام العرب ، كان فيه النصر لعبس على ذبيان .

(١٦٠) الفروق : موضع بديار بني سعد . وهو يوم من ايام العرب المشهورة بين عبس وذبيان ايضا .

فنــذل .

ومع هذا فان جيش مذحج في يوم الكلاب الثاني بلغ ثمانيةآلاف مقاتل ، وقيل انه لا يعلم جيش في الجاهلية كان اكبر منــه ومن جيش كسرى ويوم ذي قار[١٦١] .

أما نهاية المعركة فلم تكن تقرر أمرا خطيرا في أغلب الاحيــان . لان الغالب في المعارك ان تنتهي بالصلح ، او الاتفاق على دفع الديــات والتنازل عن بعض الحقوق ، او غير ذلك مما تعارف عليه النــــاس في المجتمع الجاهلي .

وكانت المعركة تستوجب الاستعداد لها ، والتهيؤ لخوضهــا . ويتم ذلك بعقد الاحلاف مع القبائل المجاورة ، وشراء الخيل والسلاح، ووضع الخطط اللازمة[١٦٢] ، وتأمين المحافظة على النساء والذراري في أماكن مأمونة ، او اصطحابها الى المعركــة اذا اســتوجب الامر ، وارسال الطلائع للاستكشاف والاطلاع .

أما معاملة الاسرى فلم تكن تخضع لنظام معين ، فالاسرى غنائم توزع على المحاربين كبقية الغنائم،وللمحارب الخيار في التصرف باسراه. فان شاء استخدمهم في أموره الخاصة . وان شاءاكتفى بجز ناصيتهم واطلق سراحهم[١٦٣] . قال حسان بن ثابت[١٦٤] :

كم من أسير فككناه بلا ثمن   وجز ناصيــة كنا مواليهــــا

وكان البعض يحسن معاملتهم ، ويفرد لهم بيوتا خاصة ، فيطلقون

---

(١٦١) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١/ ٢٦٠ وينظر تقسيم المحاربين فيﻧﻬاية الارب ٦/ ١٩٠ .
(١٦٢) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١/١٩٦ .
(١٦٣) ابو عبيدة : النقائض بين جرير والفرزدق تصحيح الصــاوي ٢/١٥ ، ١١٥ .
(١٦٤) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٥٩ .

فيها ويتمتعون بكامل حريتهم بها ، وكانت المحافظة على ارواحهم ــ في نظر هذا البعض ــ واجبا تقتضيه الاصول ، وتوجبه الانظمة . وعلى العكس من ذلك كانت وفاتهم او التعرض لهم سبة وعارا .

فعندما ظفر عمرو بن مالك احد بني قيس بن ثعلبة بالمهلهل فأسره، احسن اساره ، ومر عليه تاجر يبيع الخمر ــ وكان صديقا للمهلهل ــ فاهدى اليه ــ وهو اسير ــ زقا من خمر ، فاجتمع شبان من قيس بن ثعلبة ونحروا عنده بكرا وشربوا عند مهلهل في بيته الذي افرد له[١٦٥] .

ولما اسر ابو مليل امتنع عن الطعام ، وكان يؤتى له به فيطرد عنه الكلاب مخافة ان تأكله فيظنوا انه أكله هو حتى جهد . فلما رأوا جهده قال بشر بن قيس لاخيه بسطام : اني لا آمن ان يموت اسيرك في يديك هزلا فتسبك به العرب[١٦٦] .

وقد ذكر ابن اسحاق : ان ابا عزيز بن عمير شقيق مصعب بن عمير ــ كان في اسرى بدر ــ قال: كنت في رهط من الانصار حين اقبلوا بي من بدر فكانوا اذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز واكلوا التمر لوصيه رسول الله (ص)[١٦٧] .

والواقع ان الحرب قد حببت الى نفوس العرب خصال الشجاعة والنجدة والبأس والقوة وهي صفات حميدة تتنافى وصفات الخور والضعف والجبن والهلع ، فكانوا يتمادحون بالموت في الهيجاء وميادين الحروب قطعا باطراف الرماح او سقوطا تحت ظلال السيوف .

قال الحصين بن الحمام المري[١٦٨] :

---

(١٦٥) ابن الاثير :تاريخ الكامل ٢٢١/١ .
(١٦٦) ابو عبيدة : النقائض ٢١/١ .
(١٦٧) ابن هشام : السيرة ٦٤٥/١ .
(١٦٨) ابو تمام : الحماسة شرح المرزوقي ١٩٧/١ .

تأخرت استبقي الحياةفلم اجد   لنفسي حياة مثل ان اتقدما
فلسناعلى الاعقاب تدمى كلومنا   ولكن على اقدامنا تقطر الدما

وقال عنترة(١٦٩) :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني   اصبحت من غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها ان المنية منهل   لا بد ان أسقى بكأس المنهل
ان المنية لو تمثل مثلت   مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل

والشعر الجاهلي مليء بهذه الصور ، حافل بهذه البطولات ،لانه ديوان العرب الكبير ، الذي يضم بين ثناياه سجاياهم الرفيعة ، ومثلهم القيمة التي رفعوها في جزيرتهم فكانت مثالا رائعا للفروسية ، ونموذجا حيا لصور البطولة .

والحرب تستوجب في بعض الاحيان الفرار والهزيمة اذا شعر الفارس بدائرة الحرب تدور عليه ، وعلم أن بقاءه في المعركة لا يكسبه الا القتل او الاسر ، وهذا ما يدفعه الى الفرار من المعركة . وكان بعض الفرسان يدافعون عن فرارهم هذا ، ويضفون عليه طابعا من الشرعية ويدعمون دفاعهم بالحجج والبراهين ليسوغوا لانفسهم ذلك دون ان يجدوا في هذا الدفاع غضاضة اوامرا يدعو الى الخجل . فقالوا : الفرار في وقته خير من الثبات في غير وقته(١٧٠) . وقالوا ايضا : الحمام في الاقدام والسلامة في الاحجام(١٧١) . فهم لا يفرون لانهم جبناء ، فهم شجعان ولكنهم يرون ان القتال لا يجديهم نفعا ، وان استمرارهم في القتال يعني ورودهم مورد الهلاك ، لاستحالة مقاومتهم او كثرة خصومهم ، وما قصيدة عامر بن الطفيل في يوم « فيف الريح » الا صورة للمأساة التي كان يعانيها الفارس ، وهو يحس بهول الفاجعة التي تنتابه ، وعظم

---

(١٦٩) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ١/٣٨٩ .
(١٧٠) النويري : نهاية الارب ٣/٣٥٠ .
(١٧١) نفس المصدر : ٣/٣٥٠ .

المصاب الذي يحل به وبقومه فيقول[١٧٢] :

لقد علمت عليا هو ازن أنني … انا الفارس الحامي حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق أني اكره … عشية فيف الريح كر المشهر[١٧٣]
اذا أزور من وقع الرماح زجرته … وقلت له ارجع مقبلا غير مدبر
وانبأته ان الفرار خزاية … على المرء ما لم يبل عذرا فيعذر
الست ترى ارماحهم في شرعا … وانت حصان ماجد العرق فاصبر
وقد علموا اني اكر عليهم … عشية فيف الريح كر المدور
وما رمت حتى بل صدري ونحره … نجيع كهداب الدمقس المسير
اقول لنفس لايجاد بمثلها … اقلي المراح انني غير مقصر
فلو كان جمعا مثلنا لم يبزنا … ولكن اتتنا اسرة ذات مفخر
اتونا بشهران العريضة كلها … واكلب طرافي لباس السنور[١٧٤]

وكان بعض الفرسان لا يجد غضاضة من فراره في يوم من الايام ما دامت له مأثرة في الايام الماضية ، قال عمرو بن معد يكرب يخاطب اخته ريحانة وقد فر من بني عبس[١٧٥] :

اجاعلة أم الثوير خزاية … علي فراري اذ لقيت بني عبس
لقيت ابا شأس وشأسا ومالكا … وقيسا فجاشت من لقائهم نفسي
لقونا فضموا جانبينا بصادق … من الطعن مثل النار في الحطب اليبس
ولما دخلنا تحت فيء رماحهم … خبطت بكفي اطلب الارض باللمس
وليس يعاب المرء من جبن يومه … اذا عرفت منه الحماية بالامس

---

١٧٢) ديوان عامر بن الطفيل ص ٦١ .
١٧٣) المزنوق : فرسه . وفيف الريح : مكان كانت الوقعة فيه .
ويروى على جمعهم كر المنيح المشهر .
١٧٤) ويروى : اتونا بفرسان العريضة كلها ولعلها اصوب . والعريضة: اليمن . وفرسانها قبائل مذحج ومراد وخثعم وزبيد وغيرها ، والسنور : الدرع .
١٧٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/١٤٦، وتروى في حماسة البحتري لاوس بن حجر التميمي مع اختلاف كثير ص ٥٢ .

كما ان قسما منهم يعلل خروجه من المعركة بسبب نفرة فرسه الذي ابتعد عن المعركة ، فترك أصحابه في مأزق ضيق يلاقون المصير في وقت كان خليقا به الثبات معهم واظهار البلاء في نصرتهم .

قال قبيصة النصراني[١٧٦] :

ألم تر أن الورد عرّد صدره	وحاد عن الدعوى وضوء البوارق
واخرجني من فتية لم ارد لهم	فراقا وهم في مأزق متضايق

ومن اشعار الفرارين الذين حسنوا الفرار قول الفرار السلمي[١٧٧] :

وكتيبة لبستها بكتيبة	حتى اذا التبست نفضت لهايدي
وتركتهم تقص الرماح ظهورهم	من بين مقتول وآخر مسند
هل ينفعني أن تقول نساؤهم	وقتلت دون رجالها ـ لا تبعد

وكما عرف الفرسان بالفرار فقد عرف الصعاليك بالفرار ايضا ، وخاصة صعاليك هذيل التي كانت تنزل الحجاز ، وقد اشتهر منهم كثيرون . فحاجز الاسدي كان مع غارته كثير الفرار[١٧٨] .

واحاديث الفرار ظاهرة واضحة كل الوضوح في اخبار الهذليين، وللاعلم الهذلي قصيدة يتحدث فيها عن فُراره ومطاردة الخصوم له ، والفزع الذي انتابه عند اقترابهم منه ، ثم ينتقل الى الاعتذار عن فراره بانه يخشى ان يقتل بسيوفهم فيصبح طعاما للضباع والطيور والذئاب والثعالب ، ثم يصف اقترابه من اهله ، والامان الذي شعر به بعد وصوله الى ارضهم . واخيرا يضفي على القصيدة طابع الكآبة عندما

---

(١٧٦) ابو تمام : الحماسة : شرح المرزوقي ٢/٦٢٠ .

(١٧٧) النويري : نهاية الارب ١٣٩/٣ ، وتروى في حماسة البحتري مع اختلاف ص ٥٢ .

(١٧٨) الاصفهاني : الاغاني ٢١٥/١٣ . دار الكتب .

يتطرق الى ذكر اهله وفقرهم واولاده الصغار وحاجتهم اليه(١٧٩).

لما رأيتُ القوم بالـ	علياء دون قدي المُناصب(١٨٠)
وفريت من فزع فلا	ارمي ولا ودعت صاحب(١٨١)
يغرون صاحبهم بنا	جهدا واغرى غير كاذب
أغرى أبا وهب ليعـ	ـجزهم ومدوا بالحلائب(١٨٢)
وخشيت وقع ضريبة	قد جربّت كل التجارب(١٨٣)
فاكون صيدهم بها	واصير للضبُع السواغب(١٨٤)
جزرا وللطير المربّة والذئاب وللثعالب(١٨٥)	
وتجرُ مجرية لها	لحمي الى أجر حواشب(١٨٦)
حتى اذا انتصف النها	ر وقلت يومٌ حقٌ ذائب
رفّعت عيني بالحجا	زالى أناس بالمناقب
وذكرت أهلي بالعرا	ء وحاجة الشعث التوالب(١٨٧)
المصرمين من التلا	د اللاّمحين الى الاقارب(١٨٨)

وكما علل عامر بن الطفيل فراره ، وبرر الاعلم هزيمته من خصومه

---

(١٧٩) ديوان الهذليين ٧٧/٢ .

(١٨٠) يقال قدى وقيد وقاد واحد ، ويقال قيد وقاد : رمح . والمناصب بلد . والمناصب : انصاب الحرم .

(١٨١) فريت : تحيرت ودهشت .

(١٨٢) الحلائب : الجماعات .

(١٨٣) الضريبة : السيف .

(١٨٤) السواغب : الجياع . وتروى في شرح اشعار الهذليين ، فاكون صيدهم بها للذئب والضبع السواغب

(١٨٥) المربة : الثابتة .

(١٨٦) المجرية : ذات اجر . والاجر جمع جرو . والحواشب المنتفخات البطون .

(١٨٧) التوالب : الجحاش الصفار يريد بها هنا اولاده .

(١٨٨) المصرمين : المخفين ، واصله صاحب صرمة . والصرمة : القطعة من الابل ما بين الخمس الى العشر . اللامحين الى الاقارب : الى من يأتيهم من اقاربهم بشيء يأكلونه .

للحجج التي ذكرها ، دافع تأبط شرا عن فراره ايضا ــ مع انه ترك رفيقا له في المعركة ــ لانه لا يستطيع ان ينتظر حتى يدهمه مطاردوه الذين كانوا خلفه كالنحل ، ولا ان يبطيء حتى تصيبه السهام . ثم يرجع الى ذكر عذره الذي حمله على الفرار وهو الفزع من الموت على ايدي هؤلاء الاعداء(١٨٩) .

ألا تلكما عرسي منيعة ضَمّنت	من الله اثماً مستسرا وعالنا
تقول تركت صاحبا لك ضائعا	وجئت الينا فارقا متباطنا
ولم انتظر أن يدهموني كأنهم	ورائي نحل في الخلية واكنا
ولا أن تصيب النافذات مقاتلي	ولم أكُ بالشد الذليق مدانيا(١٩٠)
فارسلت مثنيا عن الشر عاطفا	وقلت تزحزح لا تكونن حائنا
وحثحثت مشعوف النجاء كأنني	هجف رأى قصراسمالاوداجنا(١٩١)
فزحزحت عنهم او تجئني منيتي	بغبراء او عرفاء تفرى الدفائنا
كأني اراها الموت لا دَرّ دَرّها	اذا امكنت انيابها والبراثنا(١٩٢)

وأبو خراش لا يفر لانه جبان ، بل هو يقاتل ولكنه اذا شعر بالمهلكة تحيط به نجا بنفسه(١٩٣) :

---

(١٨٩) الاصفهاني :الاغاني ٢١٣/١٨ .

(١٩٠) الشد : العدو . والذليق : الحاد .

(١٩١) النجاء : الاسراع . والمشعوف هنا : من اصيب قلبه بذعر . الهجف : الظليم . والقصر هنا : اختلاط الظلام . والسمال : جمع سملة وهي بقية الماءفي الحوض،ويكون الشاعر بهذا يصور فزع الظليم حين اخذ الظلام يختلط والمطر يسقط ، او حين راى عند اختلاط الظلام ماء عنده صياد متربص .

(١٩٢) العرفاء : الضبع .

(١٩٣) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ وفيه شعر كثير بهذا المعنى ، ٨٣ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٦٨ وافرد البحتري في حماسته بابا فيما قيل في الاقرار بالفرار (الثاني عشر) ، وبابا فيما قيل في الاعتذار عن الفرار (السابع عشر) ، وبابا فيما قيل في حسن الفرار (التاسع عشر)، وبابا فيما قيل في الفرار على الارجل(الباب الخامس والعشرين)،

فـان تزعمي أني جبنت فانني افر وأرمي مـرة كـل ذلك
اقاتل حتى لا ارى لي مقـاتلا وانجو اذا ما خفت بعض المهـالك

الا أن العرب كانت تعتبر الفرار من اقبح ما يهجى به الرجل ـ على الرغم من كل التبريرات التي برر بها الفارون اسباب فرارهم ـ فعندما اراد هاني الشيباني أن يحرض قومه على القتال يوم ذي قار قال : يا بني بكر . هالك معذور ، خير من ناج فرور . المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الثغر في ثغور النحور ، خير منه في الاعجاز والظهور ، يا بني بكر : قاتلوا فما من المنايا بد ، الجبان مبغض حتى لامه ، والشجاع محبب حتى لعدوه(١٩٤) .

أيـام العـرب :

هو الاسم الذي اطلقته الروايات العربية على الحروب التي قامت بين قبائل العرب في الجاهلية ، وان قسما من هذه الايام لا يتحدث عن معركة ذات اهمية ، وانما يتحدث عن معارك ومناوشات قليلة الاهمية ، لا تشترك فيها القبائل بأسرها ، بل تنشب بين عدة بيوت او بضعة أفراد . وقد سميت الايام وعرفت باسماء الاماكن التي وقعت فيها هذه المعارك ، كيوم كلاب وشعب جبلة واراب وجدود واعشاش ، أو بأسماء الاشخاص او الحوادث البارزة فيها ، كيوم البسوس ويوم حليمة ويوم داحس ، أو باسماء الصفة التي تميزت بها كيوم تحلاق اللمم ويوم الفجار . وهذه الايام تبدأ بسيطة ، ثم تتسع وتتعاظم ويستفحل امرها فتشمل قبائل كاملة وكثيرا ما تكون بدايتها نزاعا حول مرعى او ناقة او دفع الاهانة .

وبابا فيما قيل في الفرار على الخيل (السادس والعشرين) ، وكذلك فعل الخالديان في كتاب الاشباه والنظائر من اشـعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين ، وخصصا بابا في وصف الفرار ، والعدو على الرجلين والاعتذار من الفرار ص ١٧٥ .

(١٩٤) النويري : نهاية الارب ٣/٣٤٧ .

وايام العرب ينبوع غزير ، ومعين ثر يمد الدارسين باحوال العرب وعاداتهم وقيمهم ومثلهم التي دافعوا عنها ، وتوضح لنا معالم بطولتهم وفروسيتهم التي شغلت حياتهم كلها ، على ان قسما من هذه الاخبار المتعلقة بالفرسان قد تضخمت وتوسعت فاصبحت اقرب الى الاساطير منها الى الحقائق .

وايام العرب كثيرة ودائمة لدوام منازعاتهم ، وقيل انهـا سميت اياما لان المعركة كانت تستغرق يوما واحـدا او بعض يوم في اكثرها ، او لانها كانت تدور نهارا ، على أن هذا لا يمنع من استمرارهـا مدة طويلة كما حصل في حرب داحس والغبراء والبسوس وحرب البعـاث والفجـار .

والظاهر ان ايام العرب في الجاهليـة لم تصل الينا اخبارها ، لاسباب كثيرة تتعلق بالتعصب القبلي ، او غـيره من الاسباب . ومما يقال في ذلك ان ابا عبيدة المتوفى سـنة (٢١١) للهجرة صنف في الف يوم ومائتين منها ، كتابا اعتمد عليه من جاؤا بعده . ولم يصل اليـنا هذا الكتاب ، وانما وصل الينا شرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيـه طائفة كبيرة منها(١٩٥) ، ثم نقل عنه ابن حبيب بصورة مفصلة ، وتبعـه بعد ذلك ابن عبـد ربه وابن الاثير والنويري ، كما ان كتاب الاغاني يضم بعضا من هذه الايام .

والظاهر ان هذه الايام ـ وان رويت في عدة كتب ـ تكاد تكون متقاربة ، وان الفروق بينها لا تكاد تخرج عن فروق لفظية .

وهذه الايام تؤلف في الواقع القسم الاكبر من علـم الاخباريين بتاريخ الجاهلية ، ومادتها القصص الذي تناقله الناس عمن شهدوهـا وحفظوها في صدورهم ، وهي مادة محبوبة ، تناولها الناس في الجاهلية والاسـلام بلذة وشـوق ، فكانت هي والشـعر من أهم احاديث المجـالس ..

---

(١٩٥) شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص ٦٤ .

قيل لبعض اصحاب الرسول (ص) : ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنا تتناشد الشعر ، وتتحدث بأخبار جاهليتنا ، واهم اخبار الجاهلية هي هذه الايام(١٩٦) .

وكان مفهوم الايام يتضمن المآثر والبطولات التي تسعى لها القبيلة لتدخلها ضمن سجل الفخر وتدونها الى جانب امجادها ..

وقد كانت ايام العرب المشهورة ضرورة لتصفية القيم ، ولاكتمال النظام القبلي بكل مآثره ، لان القبائل العربية وقفت وجها لوجه ، تعرض ما لديها في زحمة التنافس ، وفي غمرة هذا التنافس تبلورت تلك القيم ، واخذت شكلها الاخير الذي عرفت به ، واشتهرت باصالته .

ومن ايامهم المشهورة يوم جدود ؛ وهو ماء في ديار بني سعد من بني تميم ، وفيه اغار الحوفزان (الحارث بن شريك الشيباني) على بني تميم هو وابجر بن جابر العجلي ، خرجا متساندين يريدان الغارة على بني تميم . فمرا ببني يربوع وهم بجدود ، فلما رأوهما نهدوا اليهما وحالوا بينهما وبين الماء وارادوا قتالهما(١٩٧) .

وفيف الريح وهي ارض بين ديار عامر بن صعصعة وديار مَذْحِج وخثعم . وفيه اغارت قبائل مذحج وخثعم ومراد وزبيد ورئيسهم ذو الغُصة(١٩٨) الحصين بن يزيد الحارثي على بني عامر وهم منتجعون فيه ، فأغنت يومئذ بنو عامر ورئيسهم ملاعب الاسنة ، وفقئت عين عامر بن الطفيل طعنة مُسهِر بن يزيد الحارثي(١٩٩) .

ويوم إراب وهو ماء من مياه بني يربوع(٢٠٠) . وفيه غزا الهذيل

---

(١٩٦) ابن الاثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ١٩٣/٣ وانظر جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٤٥/٤ .

(١٩٧) ابو عبيدة : النقائض بين جرير والفرزدق ١٣١/١ .

(١٩٨) لقب بذلك لانه كان بحلقه غصة لا يبين بها الكلام .

(١٩٩) ابو عبيد البكري : معجم ما استعجم ١٣٨/٣ .

(٢٠٠) نفس المصدر ١٣٣/١ .

ابن هبيرة الاكبر التغلبي ابو حسان ، فأغار على بني يربوع باراب فقتل منهم قتلا ذريعا واصاب نعما كثيرا وسبى سبيا كثيرا[٢٠١] .

وقد اعتبر ابو عبيدة عظام أيام العرب ثلاثة : يوم كلاب ربيعة ، ويوم جبلة ، ويوم ذي قار[٢٠٢] . والواقع ان يوم ذي قار يعتبر من اشهر ايام العرب ، لما تركه في نفوسهم من اثر ، وما بعث فيهم من معنوية . وقد خلد الشعراء هذا اليوم ، واعتبروه من أيام انتصاراتهم الفاصلة في التاريخ . كما نددوا بالقبائل التي لم تشترك فيه .. وقد ذكر عن النبي (ص) انه قال لما بلغه ما كان من ظفر ربيعة بجيش كسرى ، هذا اول يوم انتصفت العرب من العجم[٢٠٣] .

وذو قار ماء لبكر بن وائل ، قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، وكان من حديث ذي قار ان كسرى لما غضب على النعمان بن المنذر بسبب عدي بن زيد وزيد ابنه في قصة طويلة .. أتى النعمان طيئا فأبوا ان يدخلوه جبلهم ، ثم مر في العرب ببني عبس فعرضت عليه بنو رواحة النصرة ، فقال لهم : لا ايديَ لكم بكسرى ، وشكر ذلك لهم ثم وضع وضائع له عند احياء العرب واستودع ودائع ، فوضع اهله وسلاحه عند هانىء بن قبيصة بن هاني بن مسعود احد بني ربيعة بن ذهل بن شيبان ، وتجمعت العربان مثل بني عبس وشيبان وغيرهم وارادوا الخروج على كسرى ، فاتى رسول كسرى بالامان على الملك النعمان ، وخرج النعمان معه حتى أتى المدائن ، فامر به كسرى فحبس بساباط ، فقيل : انه مات بالطاعون ، وقيل : طرحه بين ارجل الفيلة فداسته حتى مات . ثم قيل لكسرى : ان ماله وبيته قد وضعه عند هاني ابن قبيصة بن هانيء بن مسعود الشيباني . فبعث اليه كسرى : ان اموال عبدي النعمان عندك فابعث بها الي ، فبعث اليه : ان ليس عندي

---

(٢٠١) ابو عبيدة : النقائض ١٧٦/٢

(٢٠٢) الاصفهاني : الاغاني ١٣١/١١ دار الكتب .

(٢٠٣) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١٩٦/١ .

مال ، فعاوده فقـــال : امانة عندي ولســـت مسلمها اليك ابدا ، فبعث كسرى اليه الهامرز ، وهو مرزبانه الكبـــير ، في الف فارس من العجم وخنـــاير في الف فارس واياس بن قبيصة ، وكان قد جعله في موضـــع النعمان ملك الحيرة في كتيبتين شهباوين ودوسر وخالد بن يزيدالبهراني في بهراء واياد ، والنعمان بن زرعه التغلبي في تغلب ، والنمر بن قاسط . واشارت العرب المجتمعة عند هانيء بن قبيصة عليـــــه أن يفرق دروع النعمان على قومه وعلى العربان ، فقال : هي امانة . فقيل له : ان ظفر بك العجم اخذوها هي وغيرها ، وان ظفرت انت بهم رددتها على عادتها، ففرقها على قومه وغيرهم وكانت ســبعة آلاف درع[٢٠٤] . وقال ابن الاثير اربعمائة درع ، وقيل ثمانمائة درع[٢٠٥] . وعبّى بنو شـــيبان تعبئة الفرس ، ونزلوا ارض ذي قار . ووقعت بينهم الحـــرب ونادى منادي العرب : ان القوم يغرقونكم بالنشاب فاحملوا عليهم حملة رجل واحد . وبرز الهامرز فبرز اليه يزيد بن حرثة اليشكري فقتله واخـــذ ديباجه وقرطيه واسورته[٢٠٦] .وقد ذكر ابن الاثير[٢٠٧] ان كسرى ارسل اليهم النعمان بن زرعه يخبرهم واحدة من ثلاث . اما ان يعطوا ما بأيديهم ، واما ان يتركوا ديارهم ، واما أن يحـــاربوا . فولوا امرهم حنظله بن ثعلبة العجلي فاشار بالحرب . فآذنوا الملك بالحرب فارســـل كسرى اياس بن قبيصة الطائي امير الجيش ومعه مرازبتـــــه الفرس والهامرز النسوي وغيره من العرب ، تغلب واياد وقيس بن مسعود بن قيس ذي الجـــدين ، وكان على طف سفوان فارســـل الفيـــول (وكانَ قد بعث النبي «ص») فقسم هاني بن مسعود دروع النعمان وسلاحه،فلمادنت الفرس من بني شيبان قال هانيء بن مسعود : يا معشر بكر،لاطاقةلكمفي قتال كسرى فاركنوا الى الفلاة ، فسارع الناس الى ذلك فوثب حنظلة

---

(٢٠٤) ياقوت : معجم البلدان ٢٩٤/٤ طبع بيروت .
(٢٠٥) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١٩٩/١ .
(٢٠٦) ياقوت : معجم البلدان ٢٩٤/٤ .
(٢٠٧) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١٩٩/١

بن ثعلبة العجلي وقال : يا هانيء أردت نجاءنا فالقيتنـــا في الهلكة ورد الناس وقطع وضن الهوادج[٢٠٨] ـ وهي الحزم للرحال فسمى مقطع الوضن ـ وضرب على نفسه قبة واقسم ان لا يفر حتى تفر القبـــة ، فرجع الناس واستقوا ماء لنصف شهر، فاتتهم العجم فقاتلتهم بالجنود . فأنهزمت العجم خوفا من العطش الى الجُبابات[٢٠٩]، فتبعتهم بكروعجل وأبلت يومئذ بلاء حسنا ، اصطفت عليهم جنود العجم فقال الناس هلكت عجل ثم حملت بكر فوجدت عجلا تقاتل ، فقاتلوهم ذلك اليوم، ومالت العجم الى بطحاء ذي قار خوفا من العطش فارسلت اياد الى بكر وكانوا مع الفرس وقالوا لهم ان شئتم هربنا الليلة وان شئتم اقمنا ونفر حين تلاقون الناس ، فقالوا بل تقيمون وتنهزمون اذا التقينا . وقال زيـد بن حسان السكونى وكان حليفا لبني شيبان ـ اطيعوني واكمنوا لهم ففعلوا ثم تقاتلوا وحرض بعضهم بعضا وقطع سبعمائة من بني شيبان ايدي اقبيتهم من مناكبها ، لتخف ايديهم لضرب السيوف . فجالدوهم وبارز الهامرز ، فبرز اليه برد بن حارثة اليشكري، فقتله برد. ثم حملت ميسرة بكر وميمنتها ، وخرج الكمين فشدوا على قلب الجيش وفيهم اياس بن قبيصة الطائي . وولت اياد منهزمـــة كما وعدتهم ،فانهزمت الفرس واتبعتهم بكر تقتل ولا تلتفت الى سلب أو غنيمة . وقال الشعراء في وقعة ذي قار فاكثروا[٢١٠] .

أما اثر هذه المعركة فقد كان له صدى كبير في الشعر لانه حرك مشاعر الشعراء ، واثار في نفوسهم الاحاسيس . فالهمهم بذلك اعذب المعاني ، واكد في نفوس العرب القوة والشدة . فلو لم يكونوا كذلك لما كان النصر في جانبهم في هذه المعركة الحاسمة. وبذلك كسبوا مجــدا

---

(٢٠٨) الوضين : بطان عريض منسوج من سيور او شعر،وقيل لايكون الا من الجلد .

(٢٠٩) الجُبابات : موضع قريب من ذي قار،كانت به احدى الوقائع بين بكر وائل والفرس .

(٢١٠) تاريخ الكامل جـ١ ص ٢٠٠ .

وشرفا عظيمين • وفي ذلك اليوم يقول اعشى قيس مفتخرا(٢١١) :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم مناكتائب تزجي الموت فانصرفوا(٢١٢)
جحاجح وبنو ملك غطارفة من الاعاجم في آذانها النطف(٢١٣)
اذا أمالوا الى النشاب ايديهم ملنا ببيض فظل الهام يختطف(٢١٤)
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف(٢١٥)
لو أن كل معد كان شاركنا في يوم ذي قار ما اخطاهم الشرف(٢١٦)

وقال مخاطباً كسرى حين اراد منهم رهائن(٢١٧) :

من مبلغ كسرى اذا ما جاءه عني مآلك مخمشات شردا(٢١٨)
آليت لا نعطيه من ابنائنا رهنا فيفسدهم كمن قد افسدا(٢١٩)
كلا يمين الله حتى تنزلوا من رأس شاهقة الينا الاسودا(٢٢٠)
لنقاتلنكم على ما خيلت ولنجعلن لمن بغى وتمردا(٢٢١)

وقال يمدح بني شيبان بن ثعلبة في يوم ذي قار لانهم كانوا من

---

(٢١١) ديوان الاعشى ص ٣١١ .
(٢١٢) الحنو : منعرج الوادي . ويوم الحنو هو يوم ذي قار .
(٢١٣) الجحجاح . السيد المسارع الى المكارم. النطفة : لؤلؤة تعلقها الاعاجم في الاذن .
(٢١٤) النشاب : السهام . البيض : السيوف . الهام : جمع هامة وهي الراس .
(٢١٥) انتصف النهار : بلغ النصف وقت الظهر .
(٢١٦) معد بن عدنان : هو جد عرب الشمال من قبائل ربيعة ومضر جميعا .
(٢١٧) ديوان الاعشى ص ٢٢٩ .
(٢١٨) مآلك (جمع مالكة) وهي الرسالة . مخمشات : مغضبات والخمش الخدش واللطم .
(٢١٩) آليت ان لا نجيبه الى ما يسألنا من تقديم رهائن من ابنائنا . ليعرضهم للتلف كالذين اتلفهم وآذاهم من قبل .
(٢٢٠) الاسود هو اخو الحوفزان . كان في يد كسرى .
(٢٢١) اولنقاتلنك على ما نشاء ونختار، ولنبعثها على المتمردين الطغاة .

احسن الناس بلاء فيه[٢٢٢] :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلّت[٢٢٣]
هم ضـربوا بالحنو حنو قراقر مقدمة الهامرز حتى تولت[٢٢٤]
فلله عينا من رأى من عصابـه اشدّ على ايدي السعاة من التي[٢٢٥]
اتتهم من البطحاء يبرق بيضُها وقد رفعت راياتها فاستقلت[٢٢٦]
فثاروا وثرنا والمنيـة بيننـا وهاجت علينا غمـرة فتجلت
كهوا اذ اتى الهامرز تخفق فوقه كظل العقاب اذ هوت فتدلت
واحموا حمى ما يمنعون فاصبحت لنا ظعن كانت وقوفا فحلّت[٢٢٧]
اذاقوهم كأسـا من الموت مرة وقد بذخت فرسانهم وادلّت
فجادت على الهامرز وسط بيوتهم شآبيب موت اسبلت واستهلت
تناهت بنو الاحرار اذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلب فولت[٢٢٨]
فمابرحوا حتى استحثت نساؤهم واجروا عليها بالسهام فذلت[٢٢٩]

---

(٢٢٢) ديوان الاعشى ص ٢٥٩ .

(٢٢٣) قلت من قل الشيء اي علا وقل النبات اناف وارتفع .

(٢٢٤) حنو قراقر وحنو ذي قار والبطحاء كلها مواضع قرب الكوفة حيث جرت المعركة المشهورة بين الفرس وبكر بن وائل والهـامرز احد قادة كسرى في هذا اليوم . وكانت شيبان على ميمنة بكر بازاء كتيبة الهامرز .

(٢٢٥) العصابة هم بنو ذهل بن شيبان . ومن : حرف جر زائد . السعاة : الذين يسعون للحرب ويهيجونها وهم الفرس .

(٢٢٦) البيض : جمع بيضة وهي غطاء للراس يلبسه المقـاتل ليقيه ، وكذلك المغفر . استقلت : علت وارتفعت .

(٢٢٧) ظعن : جمع ظعينة وهي الهودج فيه امراة او المراة نفسها، يشير بذلك الشاعر الى ما فعله حنظلة بن ثعلبة حين قطع الوضن حتى لا تهرب النساء فينهزم الرجـال ، حلت : اي نزلت لان النساء نزلت من الهوادج بعد تقطيع الوضن .

(٢٢٨) تناهى عن الشيء : كف . بنو الاحرار هم الفرس . غلب : جمع اغلب وهو الغليظ العنق ، يكنى به هنا عن القوة ومتانة بنيان الجسم ..

(٢٢٩) استحثت نساؤهم : سيقوا امام القوم وقد اخذن سـبايا ،

لعمرك ما شف الفتى مثلُ همه اذا حاجة بين الحيازيم جلت[٢٣٠]

وكما تغنى الاعشى بانتصار العرب في ذي قار فقد تغنى ابو كلبة التيمي به كذلك فقال[٢٣١] :

لولا فوارس لا ميــل ولا عزل من اللهازم ما فظتم بذي قار[٢٣٢]
ان الفوارس من عِجل هُم انِفوا من ان يخلو الكسرى عرصة الدار[٢٣٣]
لاقوا فوارس من عجل بشكتها ليسو اذا قلّصت حرب باغمار[٢٣٤]
قد احسنت ذهل بن شيبان وماعدلت في يوم ذي قار فرسان ابن سيّار

ثم قامت حروب الفجار التي شهدها الرسول (ص) ، وقد شارك فيها فكان يناول اهله النبل . وانه ليذكر ذلك لاصحابه فيقول[٢٣٥] : كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة . وكانت ايام الحجيج للعرب اشهرا حرما ،يأمن بعضهم فيها من بعض،فلما وقعت فيها الحروب سموها حروب الفجار . وقال بعض المؤرخين : ان القتال في ذلك لم يكن في الشهر الحرام وانما سببه كان في الشهر الحرام .

وحرب الفجار فجاران . الفجار الاول ثلاثة ايام والفجار الثاني

يدفعن طلبا للاسراع . اجروا عليها بالسـهام : اقترعوا عليهن فيخرج لكل مقاتل سهمه ، اي نصيبه من السبايا .

(٢٣٠) الحيازيم : جمع حيزوم وهو الصدر او موضع الحزام . جلت : عظمت .

(٢٣١) النقائض : يوم ذي قار . .

(٢٣٢) الاميل : الذي لا سيف معه ، وقيل الذي لا رمح معه ، وقيل هو الذي لا ترس معه ، وقيل هو الجبان ، او هو الذي لا يثبت على ظهور الخيل ، وجمعه ميل . والعزل : الذي لا سلاح معه . واللهازم : بنو تيم الله بن ثعلبة . وفاض الرجل : مات .

(٢٣٣) العرصة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

(٢٣٤) الشكة : السلاح . ورجل غمر : لا تجربة له بحرب ولا امر ، ولم تحنكه التجارب .

(٢٣٥) وفي رواية الطبقات لابن سعاد جـ١ ص١١٠ ان الرسول(ص) قال: « حضرته مع عمومتي ورميت فيه باسهم وما احب انى لم اكن فعلت » .

خمسة ايام في اربع سنين ، اما اسباب الفجار الاول فتتلخص في أن بدر بن معشر الغفاري كان رجلا منيعا ، وكان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ، ويفتخر على الناس ، وفي احد المواسم بعكاظ ، قعد وجعل يتطاول على الناس ، ثم مد رجله وقال : انا اعز العرب ، فمن زعم انه اعز مني فليضربها بالسيف ، فوثب رجل من بني نصر بن معاويه فضربه بالسيف على ركبته فاندرها(٢٣٦) • وقيل جرحه جرحا يسيرا ، فتحاور الحيان عند ذلك حتى كاد ان يكون بينهما الدماء ، ثم تراجعوا ورأوا ان الخطب يسير(٢٣٧) •

اما سبب الفجار الثاني فهو ان امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاظ ، فأطاف بها شاب من قريش من بني كنانة ، فسألها ان تكشف وجهها فأبت ، فجلس خلفها وهي لا تشعر ، وعقد ذيلها بشوكة ، فلما قامت انكشف دبرها ، فضحك الناس منها • فنادت المرأة يا آل عامر فثاروا بالسلاح ، ونادى الشاب يا بني كنانة فاقتتلوا • ووقعت بينهم دماء يسيرة(٢٣٨) •

وكانت العادة في الجاهلية ألا قتال في الاشهر الحرم لقدسيتها ومكانتها ، فهي اشهر هدنة يستريح فيها الافراد والقبائل من القتال ، ويكون الانسان فيها آمنا على نفسه وماله • فيظهر فيها الفرسان المعروفون دون خوف •

وهكذا لعبت الايام دورا في حركة الشعر العربي ، بما اثارته في نفوس الشعراء ، وما رسمته حوادثها في اذهانهم من فخر وانتصار • فكان هذا الديوان الضخم من شعر الحماسة ، وكانت هذه القصائد الرائعة في عالم الحرب والفخر •

---

(٢٣٦) اندرها : قطعها .

(٢٣٧) ابن هشام : السيرة ١/١٣٧ .

(٢٣٨) نفس المصدر ١/١٣٧ .

الدعوة الى نبذ الحرب :

لقد كابد الانسان في شتى العصور اهوال الحرب ، وعلم علم اليقين عواقبها الوخيمة ، بيد انه لم يستطع ان ينبذها ، وللحرب آثارها المشهورة في أدب كل أمة بلا استثناء ، وكان العرب في الجاهلية كغيرهم من الامم في قتال لا يكاد يهدأ ، وكانت تقع بين قبائلهم واشرافهم ثارات وعداوات لا تكاد تنتهي ، حتى اضطروا الى ان يتخذوا لهم موضعا حراما دعوه بالسوق ، ووقتا حراما سموه الاشهر الحرم ، تهدأ فيه الخصومات وتغمد الصوارم وتتصل الاسباب .

والحرب طبيعتها الغلظة والقسوة ، لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، فهي ضرام تأتي على زهرة شباب الامم ، وتأكل خيراتها ، وتحطم مدنياتها ، وقد وصفها عنترة الفوارس فقال : اولها شكوى واوسطها نجوى وآخرها بلوى(٢٣٩) .

والحرب والغارات تعود على اصحابها بالمآسي والفواجع والكوارث ، وتفرق شمل العشيرة ، وتذهب برجالها ، وتيتم اطفالها ، وهذا يحدث بعامل الثأر والانتقام ، وان هذا العامل في حد ذاته لا يقف عند حد ، وانما تتأرث العداوات وتستعر ، ويصبح الناس طعاما لها ، لا يعرفون اللحظات التي يلاقون فيه مثل هذا المصير وسط صحراء لا ترحم ، وارض لا تعرف الهدوء ، قال عامر بن الطفيل مفتخرا ببطولته وبطولة قومه ومعددا انتصاراتهم(٢٤٠) :

ونحن صبحنا حيّ اسماء بالقنا ونحن تركنا حيّ مُرةَ مأتما(٢٤١)
بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما خبطن بفيف الريح نهدا وخثعما(٢٤٢)

---

(٢٣٩) ابن عبدربه : العقد الفريد ١/٩٤ .
(٢٤٠) ديوان عامر بن الطفيل ص ١١٧ .
(٢٤١) حي اسماء : يعني بني فزارة .
(٢٤٢) شنوءة ونهد وخثعم من القبائل اليمنية .

ونحن صبحنا حَي نجران غارة   تُبيل حبالاها   مخافتنا دما[٢٤٣]

ولم يكن العربي مندفعا للحرب من اجل الحرب ، ولكنه كان مضطرا الى خوضها ، ومجبرا على الدخول فيها ، وهو يدرك بطبيعته وبلاتها ، ويقدر فظائعها ، وما تجره على الاقوام المتخاصمة من أهوال .

قال عنترة في رثاء مالك بن زهير العبسي وكان صديقا له في حرب داحس والغبراء[٢٤٤] :

فلله عينا من رأى مثل مالــــك   عقيرة قوم ان جرى فرســـان
فليتهما لم يجريا نصف غلـــوة   وليتهما لم يرسلا لرهـــــان
وليتهما ما تا جميعا ببلـــــدة   واخطاهمـا قيس فـلا يُريان

ولكن الانسان عندما يستنفد طاقته من المداراة والحلم ، ولا يجد منفذا غير الحرب يخوضها ، لان الحلم الكثير يفضي الى الذل والخضوع — في نظر الجاهليين — . وقد صور الفند الزماني ذلك بشكل واضح[٢٤٥] :

فلمـــــا صرح الشر   فأمسى وهـو عريـان
ولم يبق سوى العـــدوا   ن دناهـم كمـا دانـوا
وبعـض الحلـم عنــد الجهـل للذلـــة اذعـــان
وفي الشر نجـــاة حــــين لا ينجيـــك احسـان

كما ان الناس كانوا يميلون الى السلم ، ويؤثرون العفو عن الجناة ، ومقابلة الاساءة بالاحسان ، مع قدرتهم على الانتقام ، ومكنتهم من الثأر . وهذا دليل الابتعاد عن الشر . قال بعض شعراء بلعنبر[٢٤٦] :

---

(٢٤٣) تبيل : اي ترمي اولادها من مخافتنا .
(٢٤٤) ديوان عنترة — تحقيق عبدالمنعم عبد الرؤف شلبي ص ١٧٧ .
(٢٤٥) ابو تمام : الحماسة شرح المرزوقي ١/٣٠ .
(٢٤٦) ابو تمام : الحماسة شرح المرزوقي ١/٣٢ .

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشرفي شيء وان هانا
يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ... ومن اساءة اهل السوء احسانا

وقال قيس بن الخطيم في حرب حاطب التي قامت بين الاوس والخزرج ، نتيجة قتل جار لحاطب بتدبير من الاوس وقد اقتتلوا قتالا مريرا (٢٤٧) :

دعوة بني عوف لحقن دمائهم ... فلما ابوا سامحت في حرب حاطب
وكنت امرءا لا ابعث الحرب ظالما ... فلما ابوا اشعلتها كل جانب
اربت بدفع الحرب حتى رأيتها ... على الدفع لا تزداد غير تقارب (٢٤٨)
فاذ لم يكن عن غاية الموت مدفع ... فاهلا بها اذا لم تزل في المراحب (٢٤٩)
فلما رأيت الحرب حربا تجردت ... لبست مع البردين ثوب المحارب

وكان الحارث بن عباد قد تجنب حرب بكر وتغلب ، لانه يعتقد بان الحرب جناية • حتى قتل التغلبيون بجيرا فثارت حميته فقال (٢٥٠) :

يا بُجير الخيرات لا صلح حتى ... نملأ البيد من رؤوس الرجال
وتقر العيون بعد بكاها ... حين تَسقي الدما صدورَ العوالي
اصبحت وائل تعج من الحر ... ب عجيج الجمال بالاثقال
لم أكن من جناتها علم الله ... واني لحرها اليوم صالِ
قد تجنبت وائلا كي يُفيقوا ... فابت تغلبُ عليّ اعتزالي
واشابوا ذؤابتي ببجير ... قتلوه ظلما بغيرِ قتال

وقد وصفوها بالجناية المنكرة ، والجريمة الشنعاء ، ولعنوا من يتسبب فيها • واكبروا في نفس الوقت من يسعى الى الصلح بين

---

(٢٤٧) ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق السامرائي ومطلوب ص ٣٢ .
(٢٤٨) اربت : كانت لي اربه في دفع الحرب ، اي حاجة .
(٢٤٩) المراحب : جمع مرحب . والمرحب : السعة او المكان الواسع يريد اي لا يزال في الامر سعة قبل ان يضيق عليه .
(٢٥٠) لويس شيخو : شعراء النصرانية ١/٢٧٢ .

المتنازعين ، وتلك ادلة على انسانيــة العربي ، وشعوره بسؤولياته • ولكنهم يقدمون عليها عندما لا يجدون مفرا منها ، ولا خلاصا مـــن شرها ، ولا مهربا من اذاها ، وعند ذلك يقتحمو نهــا اقتحام الابطـــال ، ويخوضونها خوض الفرسان (٢٥١) :

وان تك حربكـم امست عوانا فاني لم اكن ممن جناهـــــا

فهم يتبرأون من اثارتها ، ويبتعدون عن جنايتها • لانهم يعلمون مسبقا انها ليست لعبة يتسلون بها ، او دعابة يفـرّجون بها كروبهـم ، وانما هي افظع من ذلك • قال أحيحة بن الجلاح الاوسي مخاطبا عاصم ابن عمرو عندما بلغ احيحة ما اضمره له عاصم (٢٥٢) :

اعصيم لا تجزع فان الحـــرب ليست بالدعابة

لا شك اننا نستطيع ان نقول ان الحرب نكبة من افدح النكبات ، وكارثة من افجع الكوارث ، فهي تجر الويلات على الغالـب والمغلوب معا ، وتكبدهما الخسائر ، وتستنزف مواردهما ، وتفقد الامم النفوس البشرية الغالية ، وتثكل الآباء والامهات •

ولم تكن الحرب في نظر الشعراء مقبولة ، ولكنها كانت تستبشع في كثير من الاحيان • فقد وصفها عمرو بن معد يكرب فقال : مرة المذاق ، اذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عرف ومن نكل عنها تلف ثم انشأ يقول (٢٥٣) :

الحرب اول ما تكون فتيـــــة تسعى بزينتهـا لكل جهـــول
حتى اذا حميت وشبّ ضرامهـا عادت عجوزا غـير ذات خليـل
شمطاء جزت رأسها وتنكـرت مكروهـــة للشم والتقبيـل

---

(٢٥١) ديوان عنترة : تحقيق وشرح عبدالمنعم عبد الرؤف شلبي ص١٨٦
(٢٥٢) ابن الاثير : تاريخ الكامل ٢٧٧/١
(٢٥٣) ابن عبدربه : العقد الفريد ٩٤/١.

والعرب تقول : الحرب غشوم لانها تنال غير الجاني(٢٥٤) .

على ان ذلك الضجيج الصخب الذي شمل الحياة بكل مظاهرها ، لم يمنع الاصوات القليلة التي كانت تنبعث من افواه العقلاء والمجربين منادية بالرجوع الى حياة الوداعة ، والاطمئنان والعودة الى السلم لحل مشكلاتهم ، لانهم يعرفون ويلات الحرب ، ويدركون قسوتها . قال الاعشى(٢٥٥) :

بني عمنا لا تبعثوا الحرب بيننا
كرد رجيع الرفض وارموا الى السلم(٢٥٦)
وكونوا كما كنا نكون وحافظوا
علينا كما كنا نحافظ عن رُهم(٢٥٧)
نساء موالينا البواكي وانتمُ
مددتم بايدينا حلاف بني غُنم(٢٥٨)
فلا تكسروا ارماحكم في صدوركم
فتغشمكم ان الرماح من الغَشْم(٢٥٩)

ومن اشهر الشعراء الذين تحدثوا عن السلام ودعوا الى نبذ الحرب ، وخوفوا الناس من ويلاتها ، زهير بن ابي سلمى ، الذي افزعته حرب واحس والغبراء ، وحز في نفسه ما آل اليه الناس ، وآلمه ما يؤلم كل حكيم يشهد ما شهد من فوضى واضطراب ، فيرجو للناس امنا وسلاما ، ترجع فيه الامور الى وازع نفسي يهديهم . وحرب داحس والغبراء حرب مناوشات ، استمرت اربعين عاما ،فجعلت من زهير صاحب

---

(٢٥٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/٩٥ .
(٢٥٥) ديوان الاعشى ص ٣٠٥ .
(٢٥٦) الرفض (بفتح فسكون) : الابل الراعية .
(٢٥٧) رهم : اسم حي .
(٢٥٨) حلاف : مصدر حالف اي عاهد .
(٢٥٩) فلا تبعثوا بيننا الشر فتكونوا كالذي يكسر رمحه في صدره .

معلقة ، ومن هرم بن سنان والحارث بن عوف علمين في عالم الامن والطمأنينة في تاريخ الادب العربي .

لقد حركت هذه الحرب الحارث بن عوف فمشى في الصلح ، وساعده في غايته رجل آخر من قبيلة بني مرة هو هرم بن سنان ، فاحتسبت عندئذ عبس وذبيان قتلاها ، واحتمل هرم والحارث الديات ، فكانت ثلاثة آلاف من الابل وفوها في ثلاثة أعوام ، وهكذا وضعت حرب داحس والغبراء اوزارها ، وعلا اسم هرم والحارث في تاريخ الادب ، وعلا معهما اسم زهير بن ابي سلمى .

لقد اتاحت هذه الحرب لزهير هذا الموقف ، وهيأت له هذه الخصومات عقلا بصيرا ، وادراكا عميقا ، فكان لزاما عليه ان يمكن للفضيلة في نفوسهم ، ويجعل للخير طريقا الى قلوبهم ، لان الحرب لن لن تبعث الا حربا ، والبغضاء لا تثير الا حقدا وغلا ... لقد وقف زهير يتأمل الحقائق ، ويبحث عن العلل التي يمكن ان تضع حدا لهذه الحرب الطاحنة ، وفعلا هب يعظ ويرشد ويدعو الى الخير والوفاق ، فاستنكر الحرب ، وهتف واصفا اهوالها .. موضحا بشاعتها وفظاعتها ، فهي ثمرة من ثمار الحقد ، تسحق الانسان ، وتجعله يتساقط تساقط الطحين على الثفال ، وهي أم تلقى ابناءها في احضان الشؤم والبؤس (٢٦٠) :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم	وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة	وتضرَ اذا ضرَّيتموها فتضرم
فتَعركُكُم عركَ الرَّحى بثفالها	وتَلقَح كِشافاثم تحمل فتُتئِمِ
فتنتج لكم غلمانَ اشأمَ كلهم	كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تُغل لاهلها	قرى بالعراق من قفيزٍ ودرهم

لقد وجد الشاعر في هذين الرجلين القيم الخيرة التي عاشت في

---

(٢٦٠) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢٣١/١ .

ذهنه ، لانهما ادركا المسؤولية الجبارة التي تحملا عبئها ، لقد كانا يحملان آلام الناس ، ويشعران باحاسيسهم ، فوهبا المال لتضميد الجروح ، وتحملا عبء الضريبة دون ان يشتركا في النزاع القائم ، او يضربا بسهم واحد في المعركة ، فاستحقا تخليد الشاعر لهما .

ان الحارث بن عوف وهرم بن سنان انفقا المال في سبيل الخير ، فبسطا فلسفتهما في استخدام المال لوقف سعير الحرب ، وبذلك تمكنا من ان يزرعا الارض سلاما وخيرا وانسانية (٢٦١) :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما	تبزل ما بين العشيرة بالدم (٢٦٢)
فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله	رجال بنوه من قريش وجرهم (٢٦٣)
يمينا لنعم السيد ان وجدتما	على كل حال من سحيل ومبرم (٢٦٤)
تداركتما عبسا وذبيان بعدما	تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٢٦٥)
وقد قلتما ان ندرك السلم واسعا	بمال ومعروف من الامر نسلم
فاصبحتما منها على خير موطن	بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد وغيرها	ومن يستبح كنزا من المجد يُعظم
تُعفّى الكلوم بالمئين فأصبحت	ينجّمها من ليس فيها بمجرم (٢٦٦)

لقد حرك صنيع هرم والحارث بواعث الاعجاب والاعظام في نفس الشاعر ، فاكبرهما وخلد مأثرتهما ، فكانت دعوته بحق دعوة خير ، ارتسمت فيها شخصيته ، واتضحت نزعته الى البر والرحمة ، لانقاذ

---

(٢٦١) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٢٢٩/١ . تبزل : تشقق .

(٢٦٢) جرهم : قبيلة من اليمن .

(٢٦٣) السحيل : الخيط المفرد وهو كناية عن الرخاء . والمبرم : الذي يجمع بين مفتولين وهو كناية عن الشدة .

(٢٦٤) منشم : ارأ عطارة كانت بمكة . اشترى منها قوم شيئا من العطر ، وتحالفوا على قتال عدوهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن اخرهم ، فطيرت العرب بعطرها .

(٢٦٥) معد : هو ابن عدنان وعليا معد رؤساؤهم .

(٢٦٦) تعفى : تمحى . الكلوم : الجروح .

الناس الذين كانوا في صلاح من امورهم ، ثم صاروا الى حرب يستعمل فيها السلاح ، وتسفك الدماء ، ثم اشتغلوا بالاستعداد لها ثانية ، فجعل عزمهم على الحرب بمنزلة الكلأ الوبيل الوخيم [٢٦٧] :

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم اوردوا غمارا تسيلُ بالرماح وبالـــدم
فقضّوا منايا بينهم ثـم اصدَروا الى كلأٍ مُستوبل مُتوخَّم [٢٦٨]

فزهير لم يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف الا لانهما تلمسا الجراح بانامل نظيفة ، وتمكنا من وضع حد لتيار الحرب ، فجعل منهما المثل الاعلى للانسان العربي في عصره ، لقد اقلق زهيرا مصير الوجود العربي في تلك الفترة ، فعبر في شعره عن آماله ، ثم خلص الى نصيحة المتحاربين لنفض الصدور من الحقد والضغائن ، لان الله يعلم كل شيء وان ظل مخفيا :

ومهما تكن عند امريء من خليقة ولوخالها تخفىعلى الناس تعلم [٢٦٩]

وهكذا يبدو لنا زهير في معلقته خاصة ، رجلا انسانيا جريئا ، يحرص على ارواح قومه وآمالهم ، مستعدا لان يتناسى شخصيتــه اذا استطاع ان يضيعها في سبيل رفع مثل اعلى امام الامم والاقوام ، وهو لا يحرص على خير الافراد فقط ، بل يفضل خير القبيلة على ذلك ، بل هو اوسع في نظره ، يُحبُّ ان يشمل بخيره القبائل اجمع ، ولا شك في أن شخصية الحارث بن عوف وهرم بن سنان ساعدته على ان يقف هذا الموقف ، ويكفيه فخرا انه كان يجاهر بدعوته هذه ويعتقد انهــا السبيل الصحيحة الى الحق .

---

(٢٦٧) ديوان زهير ضمن مجموعة الاعلم ص ٢٣٢ .
(٢٦٨) قضوا منايا : انفذوها . واصدروا : رجعوا ، والمستوبل : الذي لا يستمرا وكذا المتوخم .
(٢٦٩) ديوان زهير ضمن مجموعة الاعلم ص ٢٣٤ .

الثـــأر :

ان اندحار البدوي في المعركة ، او قتل احد من افراد عشيرته او ذوي رحمه ، كان يثير في نفسه عوامل الحقد والكراهية والانتقام ،فهو يحاول الثأر من الغالب او القاتل متى تهيأت له الظروف ، ومتى ما وجد الفرصة السانحة للانقضاض عليه ، انقاذا لكرامته ، فهذا مالك بن حريم الهمداني يفخر بسطوة قومه وبأسهم فيقول(٢٧٠) :

يقود بارسان الجيـاد سـراتُنا لينقمن وترا او ليدفعن مدفعـا
فاصبحن لم يتركن وترا علمنـه لهمدان في سعد واصبحن طُلّعا

والثأر عادة تأصلت في طباع العربي ، واصبحت جزءً من كيـانه اذا اراد ان يعيش محترما بين افراد قبيلته ، لان الاخـذ به دليل على الشجاعة والقوة ، والسكوت عنه دليل على الخضوع والذلة والاستكانة ، وباعث على الاستهانة بالفرد والقبيلة . فيكون او تكون هدفـا لغزوات اخرى .

وقد لعبت هذه العادة دورا مهما في الصراع العنيف الذي عاشه العصر الجاهلي ، وكانت سببا لكثير من الحوادث والايام التي وقعت بينهم ، كما ان الخروج عليها كان يعد عارا كبيرا ، ويعتبر الذي لا يرد اللطمة التي اصابته جبانا ، ويستحيل على الرجل الكريم المحتد ان ينسى ضررا لحقه حتى يثأر لنفسه ، وينتقم لها .

والثأر شريعة مقدسة عند العرب ، له اوار يستعر في قلوبهم ، ويعيش حياتهم كلها .. والعربي لا يهدأ له بال اذا لم يأخذ به ، وما تتبع قيس بن الخطيم لقاتلي ابيه وجده والانتقام منهما ، الا دليـل على ادراك الثأر مهما بعد(٢٧١) :

---

(٢٧٠) الاصمعي : الاصمعيات ص ٦٠ .
(٢٧١) ديوان قيس بن الخطيم ص ٢١ .

ثأرت عديا والخطيم فلم أُضـــع	ولاية اشياء جُعلت ازاءهـــــا
ضربت بذي الزرين ربقـــة مالك	فأبت بنفس قد أصبت شفاءَها[٢٧٢]
وشايحني فيها ابن عمرو بن عامر	خداش فادى نعمة واقاءها[٢٧٣]
طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر	لها نَفَذ لولا الشعاع اضاءها
ملكت بها كفي فانهرت فتقهـــا	يرى قائما من خلفها ماوراءها[٢٧٤]

وقد لعبت المرأة دورا كبيرا في استثارة همم الرجال للاخذ بالثأر، فهذه كبشة اخت عمرو بن معد يكرب تعير قومها لتكاسلهم في ادراك الثأر ، وتحرضهم على الامتناع عن قبول الديـــــة ، لان في ذلك عارا وضعفا[٢٧٥] .

ارسل عبـــدالله اذ حان يومـــه	الى قومـــــه لا تعقلوا لهم دمي
ولا تأخذوا منهم إفـــالا وابكُرا	وأتركَ في بيت بصَعْدةَ مظلم
ودع عنك عَمْرا أن عَمْرا مسالمٌ	وهل بطن عمرو غيرُ شبر لمَطعم
فان انتم لم تثـــأروا واتديتمُ	فمشوا بآذان النعـــــام المصلم
ولا تردوا إلا فضول نسائـــــكم	اذا ارتملت اعقابُهنَّ من الدم

ومثل ما كانت المرأة تحث على الاخذ بالثأر والانتقام للمقتول ، كان الرجال ايضا كذلك . فالمهلهل اخو كليب الذي لم يهدأ له قرار ولم تخفت صيحة الثأر في نفسه ، ظل ينظم القصائد المطولة في رثـــاء اخيه ، ويستجمع قوى اصحابه وعشيرته ومناصريه للاخذ بثأره مهمـــا تعاظم الخطب ، فأخذ على نفسه عهدا بأنه سيهجو الغواني ويمتنع عن الشراب ، وانه لن ينزع سلاحه حتى يأخذ بثأره فيقول[٢٧٦] :

ارى طول الحيـــاة وقد تولى	كما قد يسلب الشي المعـــــار

(٢٧٢) الزرين : وذو الزرين سيف من سيوف كان يعمل فيها .
(٢٧٣) شايحنى : تابعني .
(٢٧٤) ملكت : أي شددت . انهرت : اجريت الدم .
(٢٧٥) حماسة ابي تمام المرزوقي جـ ١ ص ٢١٧ .
(٢٧٦) شعراء النصرانية ص ١٦٤ .

كأني اذ نعى الناعي كليبا ... تطاير بين جنبيّ الشرار
فدُرتُ وقد عشا بصري عليه ... كما دارت بشاربها العقار
سألت الحيّ اين دفنتموه ... فقالوا لي بسفح الحي دار
فسرت اليه من بلدي حثيثا ... وطار النوم وامتنع القرار
اقول لتغلب والعز فيها ... اثيروها : لذلكم انتصار
تتابع اخوتي ومضوا لامر ... عليه تتابعَ القومُ الحِسار[277]
خذ العهد الاكيد عليّ عمري ... بتركي كل ما حوت الديارْ
وهجري الغانيات وشرب كأس ... ولبسي جُبّة لا تستعار
ولست بخالع درعي وسيفي ... الى أن يخلع الليل النهار
والا أن تبيد سراةُ بكر ... فلا يبقى لها ابدا أثار

وكان اذا قتل شخص قريب يحرم ابناؤه أكل اللحم، وشرب الخمر، والاقتراب من النساء، وغسل الرأس، حتى يدركوا ثاره، فعندما بلغ امرأ القيس مقتل ابيه وهو بدمون، آلى على نفسه ألا يأكل لحما، ولا يشرب خمرا، وحلف على نفسه بألا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره ببني أسد، ولما تبع بني اسد فادركهم وقتل فيهم قتلا ذريعا قال[278] :

قولا لدودان عبيد العصا ... ما نحركم بالاسد الباسل[279]
قد قرّت العينان من مالك ... ومن بني عمرو ومن كاهل[280]
حتى تركناهم لدى معرك ... ارجلهم كالخشب الشائل[281]

---

(277) الحسار والحاسر : من لا مغفر له ولا درع ولا جنة .
(278) ديوان امريء القيس ص ١١٩ — ١٢١ .
(279) دودان : قبيلة من بني اسد . وعبيد العصا : اي لا يعطون الا على الضرب والاذلال .
(280) واراد بالاسد الباسل: اباه او نفسه ، مالك وعمرو وكاهل : احياء من بني اسد .
(281) ارجلهم كالخشب الشائل : اي قتلناهم والقينا بعضهم على بعض ، فارتفعت ارجلهم فكانهم الخشب الشائل .

حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شـــاغل
فاليوم اسقى غير مستحقب اثـــا من الله ولا واغل[٢٨٢]

وكان المهلهل بن ربيعة في اول امره صاحب لهو ، كثير المحادثـة للنساء ، فسماه اخوه كليب (زير نساء) أي جليسهن ولم يكن يرجو منه خيرا ، فلما قتل كليب في حرب البسوس المشهورة كان المهلهل يعاقر الخمرة ، فهاجه مقتل اخيه ، وذهب الى قومه واستحثهم على الاخذ بالثأر ، وجز شعره ، وقصر ثوبه ، وهجر النساء وترك الغزل ، وحرم القمار والشراب ونهض للحرب .

وهذا قيس بن الخطيم يصور لنا امتناع قومه عن الخمر ثلاثين ليلة لانهم اقسموا الا يذوقوها ، حتى يبروا بقسمهم ويـــدركوا ثأرهم[٢٨٣] :

ومنـــا الذي آلى ثلاثـين ليلـة عن الخمر حتى زاركم بالكتائب
ولما هبطنـا الحزن قال اميرنـا حرام علينا الخمر ما لم نضارب
فسامحه منـــا رجال اعـزة فما بَرحوا حتى أحلّت لشارب

وقال دريد بن الصمة[٢٨٤] :

شلت يميني ولم أشرب معتقـة إذْ أخطأ الموت اسماء بن زنباع

وهذا الخلق عام فيهم ، اذ لابد ان يثأروا لقتيلهم ، ولو أدى ذلك الى هلاك القبيلة .

قال مهلهل بن ربيعة[٢٨٥] :

---

(٢٨٢) قوله غير مستحقب اثما من الله ، اي غير مكتسبه ولا محتمله واصله من حمل الشيء في الحقيبة فضربه مثلا . والواغل : الداخل على القوم يشربون ولم يدع ..
(٢٨٣) ديوان قيس بن الخطيم ص ٣١ .
(٢٨٤) شعراء النصرانية المجلد الاول ص ١٧٤ .
(٢٨٥) شعراء النصرانية جـ ٢ ص ٧٧٥ .

ان نحن لم نثأر به فاشحذوا شفاركم منا لجز الحلوق
ذبحا كذبح الشاة لا يتقى ذابحها الا بشخب العروق

ولم يكن هذا التقليد يشمل فردا واحدا ، او فارسا واحدا ، وانما يشمل في بعض الاحيان قبيلة بكاملها ، فقد حرم بنو الشريد على انفسهم النساء والدهن حتى يدركوا ثأرهم من بني كنانة[٢٨٦] .

ومن تقاليد الثأر ايضا ، جز ناصية الفرس ، وقطع ذنبها . فعندما اراد الحارث بن عباد أن يطلب ثأرا له ، طلب فرسه(النعامة) ، وقال قصيدته المشهورة التي ذكر فيها اسمها أكثر من عشرين مرة ، وقالوا اكثر من خمسين[٢٨٧] . وكانت النعامة فرسه ، ولم يكن في زمانهامثلها، فجاؤوه بها فجز ناصيتها ، وقطع ذنبها ، وكان اول من فعل ذلك من العرب ، فاتخذته العرب سنة ، اذا قتل لاحدهم عزيز واراد ان يطلب بثأره ، فعل بفرسه مثل ما فعل الحارث بن عباد .

واذا ثأرت القبيلة لنفسها وشفت غلتها وحقدها ، أخذ شعراؤها ينشدون الاناشيد ، ويحللون على انفسهم ما حرموه ، قال دريد بن الصمه يفتخر بتشفيه من قاتلي اخيه وظفره بثأره[٢٨٨] :

يا راكبا اما عرضت فبلغن ابا غالب أنْ قد ثأرنا بغالب
قتلت بعبدالله خير لداته ذؤاب بن اسماء بن زيد بن قارب

والظاهر ان اتخاذ بعض العادات خلال فترة الثأر ، كالقناعة في الطعام والشراب ، والامتناع عن الاغتسال ، وحلق الشعر . لابد ان تكون لها جذور دينية قديمة ، داخلتها بعض الاساطير الشائعة ،فاتخذت هذا الشكل الذي تعارف عليه الناس .

ولا تشتفي العشيرة في الحرب الا بمثل ما فقدت ، او تزيد على

---

(٢٨٦) العقد الفريد جـ ٥ ص ١٧٦ .
(٢٨٧) شعراء النصرانية جـ ١ ص ٢٧١ .
(٢٨٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/٢١٦ .

ذلك فتقتل بعدد قتلاها ، وتأسر مثل اسرائها ، وتسبي عدد سباياها ، وعند ذلك تبرد غلتها ، وتطفي غليلها • لانها ادركت الثأر ونالت الشرف الذي تفاخر به ، وتعتد على غيرها من القبائل • وبعدها تستطيع الوقوف على قدميها بمستوى القبائل العريقة في المجد ، الاصيلة في البطولة ، وهذا ما يفسر لنا اشتداد الحروب واستمرارها الى امد طويل ، لان الناس يعيشون حياتهم كلها بين واتر وموتور ، وطالب ومطلوب ، ومنتصر ومندحر • وهذا ما يورث الاحقاد ، ويؤجج الثارات فتنتفض الهمم ، وفي ذلك يقول الطفيل الغنوي(٢٨٩) :

قتلنا بقتلانا من القوم مثلهم وبالموثق المكلوب منا مكلب(٢٩٠)
وبالنعم المأخوذ مثل زهائه وبالسبي سبي والمحارب محرب(٢٩١)

وتغالي عشيرة المقتول بمركز القتيل ومنزلته وقيمته ، وتصر على ان تثأر ممن قتله او ممن يساويه في المنزلة ، وكثيرا ما تحاول احراج قبيلة القاتل بأمور لا تقدر عليها ، أو لا يمكن تنفيذها ، محاولة في ذلك تبرير شنها الحرب ••

فعندما قتل جساس كليبا ارسل التغلبيون رجالا منهم الى بني شيبان ؛ فاتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو في نادي قومه • فقالوا له : انكم اتيتم عظيما بقتلكم كليبا ، وقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ، انا نعرض عليكم خلالا أربعا لكم فيها مخرج ، ولنا فيها مقنع :

أما ان تحي لنا كليبا ، او تدفع الينا قاتله جساسا فنقتله به او هماما فانه كفء له ، او تمكننا من نفسك فان فيك وفاء لدمه ، فقال لهم : اما احيائي كليبا فلست قادرا عليه ، واما دفعي جساسا اليكم ،

---

(٢٨٩) ديوان الطفيل الغنوي ص ٢٤ •

(٢٩٠) المكلوب : المكبل • الموثق : المقيد •

(٢٩١) مثل زهائه : مثل محزرته ، يقال كم زهاء الكتيبة ؟ اي كم محزرتها • والمحارب محرب : يقول اسروا فاسرنا وقتلوا فقتلنا وحربنا فحربنا • والنعم : الابل •

فانه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا ادري اي بلاد قصد ، واما همام ، فانه ابو عشرة واخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان ، فلن يسلموه بجريرة غيره ، اما انا فما هو الا أن تجول الخيل جولة فأكون اول قتيل فما اتعجل الموت ، ولكن لكم عندي خصلتان : آما احداهما فهؤلاء ابنائي الباقون ، فخذوا ايهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ، واما الاخرى ، فاني ادفع اليكم الف ناقة ، سود الحدق ، حمراء الوبر ، فغضب القوم وقالوا قد اسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب . ونشبت الحرب (٢٩٢) .

وقد لا يكون الثأر بواحد ، وانما يتعداه الى اكثر ، فعندما قتل عبدالله بن الصمة ، اغار دريد على غطفان يطالبهم بدمه ، فاستقراهم حيا حيا ، وقتل من بني عبس ساعده بن مرة ، واسر ذؤاب بن اسماء بن زيد بن قارب ، اسره مرة بن عوف الجُشمي ، فقالت بنو جشم ، لو فاديناه : فابى ذلك دريد عليهم ، وقتله باخيه عبدالله ، وقتل من بني فزارة رجلا يقال له حزام واخوة له ، واصاب جماعة من بني مرة ومن بني ثعلبة (٢٩٣) .

وقد يبلغ حد الاخذ بالثأر مبلغا كبيرا كقول المهلهل اخي كليب يرثي كليبا ويتهدد قاتليه (٢٩٤) :

قتلوا كليباً ثم قالوا ارتعوا	كذبوا ورب الحل والاحرام
حتى تلف كتيبة بكتيبة	ويَحل اصرام على اصرام
وتقوم ربات الخدود حواسرا	يمسحن عرض تمائم الايتام
حتى نرى غررا تجر وجُمة	وعظام روسٍ هشمت بعظام
حتى يعض الشيخ من حسراته	مما يرى جزعا على الابهام

(٢٩٢) ابن الاثير : تاريخ الكامل ٢١٨/١ .
(٢٩٣) الاصفهاني : الاغاني ١١/١٠ دار الكتب .
(٢٩٤) لويس شيخو : شعراء النصرانية ١٧٥/١ .

اما الدية فكان بعضهم يمتنع عن أخذها ، ويعتبر اخذها سبة الى الابد ، وفتا للعضد[٢٩٥] كما قال امرؤ القيس بعد مقتل والده ، وكان البعض الآخر يغضب اذا عرضت عليه ، لأن الدم أحب اليهم من اللبن . وكان تقسيمها الفا للملوك ، ومائة للصريح ، وخمسين للحليف ، وكان هناك اصطلاح آخر وهو أقل من الدية ويسمى الخماشة ، وهي تدفع لقطع يد او اذن [٢٩٦] .

وكانت العرب تزعم ان روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره ، تقول اسقوني اسقوني . فاذا ادرك بثأره طارت، وفي ذلك يقول ذو الاصبع العدواني [٢٩٧] :

ياعمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي   اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال ابو عبيدة [٢٩٨] : كانت العرب تقول ان عظام الموتى ، وقيل ارواحهم تصير هامة فتطير . او قيل : كانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت الصدى ، فنفاه الاسلام ونهاهم عنه .

وقد زعم بعض الاعراب ان الهامة تصيح اذا قتل الرجل بأني عطشى حتى يقتل بثأره فتسكن . وقالوا : بل يخرج من رأسه طائر يقال له الهامة .

وكان قسم من العرب اذا مات احد اقربائهم يذبحون على قبره ناقة ، او يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين ان الروح لما تنفصل عن الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة او الصدى ، وهي نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجعة ، تأتيه باخبار اولاده، فاذا كان الفقيد قد مات قتيلا تصيح صداه قائلة (اسقوني) ولا تزال

---

(٢٩٥) الاصفهاني : الاغاني ١٠٥/٩ دار الكتب .
(٢٩٦) ابو عبيدة : النقائض ٢٣١/٢ .
(٢٩٧) المفضل الضبي : المفضليات ١٥٨/١
(٢٩٨) لسان العرب مادة (هام) .

تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له اهله من قاتله بسفك دمه . قال قراد ابن عوية[٢٩٩] :

ألا ليت شعري ما يقولُن مخارق   اذا جاوب الهام المُصيَّح هامتي

وقال عروة بن الورد يخاطب امرأته وقد نهته عن الغزو [٣٠٠] :

ذريني ونفسي ، ام حسان انني   بها قبل ان لا املك البيع مشترى
احاديث تبقى ، والفتى غير خالد   اذا هو امسى هامةفوق صُيَّر[٣٠١]

ومن معنى كلمة الهامة عند اللغويين الرأس ، او الجزء المقدم منه، او بعض اجزائه . وقد ذكرت في معاجم اللغة فقالوا انها طير الليل ، او طائرصغيريألف المقابر،او البومة الطائر المعروف[٣٠٢].ولاسطورةالهامة صلة باسطورة الصدى ، والصدى طائر يخرج من الرأس اذا بلى ، وقيل هو الهامة ، او ذكر البومة . وقد كانت العرب تقول الصدى في الهامة ، والظاهر انهما من اسطورة واحدة وقد فرق بينهما بعد زمن الاسطورة [٣٠٣] .

ومن هذا الخلط وجدنا اضطراب استعمالهما في اللغة ، واختلاط معانيهما عند العرب ، فاستعملت كل واحدة منهما مكان الاخرى ، كما وجدنا في النماذج الشعرية التي ذكرناها .

ويقول الدكتور عبدالمعيد خان[٣٠٤] : ان النفس كانت عند العرب عبارة عن دم الحياة ، كما كانت عند الاسرائيليين . ثم يقول : ومنهم من زعم أن النفس هي الدم ، وان الروح الهواء الذي كان في

---

(٢٩٩) ابو تمام : الحماسة : شرح المرزوقي ١٠١٥/٢
(٣٠٠) ديوان عروة بن الورد ص ٢٥ .
(٣٠١) صير : حجارة تجعل كالحظيرة زربا للغنم .
(٣٠٢) لسان العرب مادة (هام) .
(٣٠٣) جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٥ ص ٩٨ .
(٣٠٤) الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٤٥

باطن الجسم الانساني الذي منه نفسه ..

وتزعم طائفة منهم ان النفس طائر ينبسط في جسم الانسان ، فاذا هو مات او قتل ، لم يزل مطيفا به ، متصورا له في صورة الطائر ، يصدح على قبره .. ونخلص من ذلك كله الى ان العرب القدماء دهشوا من مظاهر الحياة ، فبحثوا عن حقيقتها ، فلما رأوا انه ما دام الدم يجري في شريان الانسان فهو حي ، فاذا هريق عن جسده فهو ميت .. قالوا ان الدم هو الحياة ، ثم لاحظوا ان النفس جزء مهم في الحياة . فقالوا : ان الحياة عبارة عن الهواء الذي في باطن جسم المرء . وظلت هذه الفكرة مدة من الزمان ، فاتى جيل بالغوا في تصوير النفس الذي يتكون من الدم والهواء ، حتى اعتقدوه طيرا من الطيور التي لها علاقة بالتشاؤم وهذا الطير هو البومة التي تمثل الخراب والفساد والموت[٣٠٥]

وعلى الرغم من كل ما تقدم ، فان هذه الاساطير قد لعبت دورا كبيرا في تأريث نار الحرب واستمرار دواعيها ، لانها كانت تحمل البدوي على الانتقام ، وتضطره الى ادراك الثأر بأي شكل من الاشكال ، وعلى اية طريقة من الطرق .

---

(٣٠٥) نفس المصدر ص ٤٦ .

تمجيد البطولة :

للفروسية عند الامم من قديم الزمان شأن خطير ، ولتمجيدها مقام كبير ، فكان اليونانيون يقدسون فرسانهم وابطالهم الذين اشتهروا بينهم ، وكانوا يفخرون بهم •

وكان للفرسان عند العرب في الجاهلية المقام الاكبر ، والمكانة الاولى بين العشائر والقبائل ، لانهم عنوان الشجاعة ، وملاذ القبيلة ، وحماتها عند احتدام المعارك • وكانت الفروسية حديث الناس وأقاصيصهم ، كما كانت حافزا قويا للاقتداء ، وشحذ الهمم والسير في المسلك الذي اختطه البطل لنفسه • وقد ظلت أحاديث اولئك الابطال حية في نفوس الاجيال عقب الاجيال ، يستلهمون منها القوة ، ويستمدون العون •

والحياة الجاهلية بطبيعة تكوينها ، كانت تفرض على ابنائها ادب الفروسية ، وتعلمهم تقديس البطولة ، لان هذا النمط من الحياة حافل بذكر الحروب ، مليء بحوادث الايام ، والبطل في هذه البيئة لم ينحدر من سلالة الآلهة، ولم تكن بطولته غيبيّة كما عودتنا الاساطير اليونانية والرومانية ، وانما بطولة نابعة من أعماق أبنائها ، ومتولدة من أغوار نفوسهم • فهي بطولة انسانية واضحة ، تتمثلها جوانب العربي ، وتتحسسها ذاته ووجدانه ، وهي صورة ناطقة بكل المقومات العربية ، ومثال حي لخصائصها ، تتجسد في أعمال الفروسية والشجاعة الخارقة، وتتميز في تمجيد الاخلاق المثالية ، والمناقب الرفيعة ، والمزايا الفذة التي تفرد بها عدد من الاشخاص لكي يظهروا وجوهاً رائعة ، تثير الدهشة وتبعث على الاقدام •

فالبيئة التي ينشأ فيها الفارس الجاهلي ، هي التي تصلّب عوده ، وتجعله يألف المخاطر والمغامرات ، وتربيه على مباديء الفروسية والشهامة . وهي التي تعوّد الفارس فيها على استقبال الموت بنفس الروح التي يستقبل بها الحياة . فالموت لا يقربه ركوب المخاطر ، ولا تؤخره شدة الحذر . وهذه الفلسفة الشاملة لحياة البدوي ، هي التي دفعته الى الاستبسال .

وما البطل في هذه البيئة الا ذلك الانسان الذي تتجسّد فيه آمال الناس ورغباتهم ، وتتمثل في اعماله بطولاتهم ، فيدرك بما أؤتي من قابليات وأحاسيس مطامح مجتمعه فيحاول تحقيقها ويسعى الى انجازها ، لتتمكن صورته في نفوسهم فيحاولوا اقتفاءه ، ويتوقوا للوصول الى درجته ، لانه يمثل الطليعة الصادقة لاماني الاغلبية الساحقة .

والبطل عادة لا يكون الا في مجتمع ، يمثل النموذج الحي لصفات ابنائه ، والمثال الاعلى لنوع حياتهم ومواهبهم .

والامة المحاربة ينبغ فيها البطل ، فيبلغ مكانةً لا تطاول ، وأثرا لا يُبارى ، وكلمة لا ترد ، فيغنى غناء الجحافل ، حتى اذا خلا مكانه وافتُقد ، زاد ذكره ، وارتفعت سمعته ، وتضخمت اخباره ، وتعاظمت آثاره ، وحيكت حوله الاساطير ، ونشأت القصص ، فيصبح أقرب الى الاسطورة منه الى الحقيقة .

لقد وُهب هذا النفر اقتداراً على القيام باعمال كبار ، يشغل بها اذهان معاصريه ، فكان مبعث احترامهم ، لأن المرء في اعماقه ، يحس أن في اجلاله لمن هو ارفع منه ، رفعة لنفسه ، وتقديراً لانسانيته ، فاذا ما ظهر البطل ، وتوضحت معالمه ، وتمكن الناس من اكتشاف مثلهم التي آمنوا بها ، وعاشوا من أجلها في شخصه ، تفجرت قلوبهم له عن أخلص الولاء وأصدق الاحترام . فالبطولة صورة من الصور الخالدة ،

وان احتفاء الامة بابطالها من ابرز دلائـــل حيويتها ، وان من دلائل حيويتها حفول تاريخها باسمائهم •

لقد تطور معنى البطولة مع تطور المجتمعات ، واختلاف نظرتها الى السلوك الانساني ، فقد كانت بعض المجتمعات تغالي ، فترتفع بابطالها الى مصاف الآلهة كما فعل قدماء المصريين بأوزيريس واختـه وابنه ، وكما فعل اوائل الاسكندناويين ببطلهم اودين ، او الى مراتب انصاف الآلهة كما فعل الاغريق القدماء بأبطالهم •

فالاقاصيص المتخلفة من عصور الابطال ، تبقى مليئة بروائـع الاوصاف ، وبدائع الصور ، كما تظل مجالا واسعاً لتمتع الاخيله ، ومسرحاً للمواقف والوقائع • وتبقى هذه الاقاصيص محفوظة لنفاستها، وكنزاً ثميناً لقرائح الادباء واخيلتهم • فيجرون افكارهم على ألسـنة أشخاصها ، ويستعيرون وقائعها ومشاهدها في تمثيل وقائع عصورهم، وقد برزت هذه الصفات في ملاحم اليونان والرومان[1] •

والذي نجده في هذا المجال ، هو أن تطور البطولة قد جرى فعلا في الادب الجاهلي ، وقد كان الادب صائبـاً في تصويره للبطل الذي تجاوز الناس في صفاته ، وسلك في مواجهة الاحداث مسلكاً مثالياً ، وجاء بأعمال عجز عن القيام بها سائر البشر ، وتنزه عن كثير مما يميز الناس من نقص انساني أو ضعف بشري •

والجاهلية العربية شديدةُ الشبه بالعصر الهوميري ، ففيه كـانت الامة منقسمة على نفسها ، لا تفتر عن القتال ، ولا يزال يظهر فيها من الابطال أمثـال عنترة والمهلهـل ودريد بن الصمة وعامر بن الطفيل وغيرهم ، ولا تزال تتحدث بأيام المواقع ، وتتفاخر وتتنافر كما تفـاخر أبطال الحروب الطروادية ، فكان العرب على تفرقهم يشعرون بوحدتهم

---

(١) البطولة في الادبين العربي والانجليزي ـ فخري ابو السعود مجلة الرسالة (القاهرة) السنة الخامسة ـ العدد (١٨٩) •

في الجنس واللغة والمصير المشترك وانتاريخ ، ويجتمعون في مواسم الحج واسواق التجارة والادب ، كما كان اليونانيون يجتمعون في دلفي وأولمبيا ، ولم يفتهم أن يجمعوا شملهم تحت لواء العربية لدفع الفرس في موقعة ذي قار ، كما فعل الاغريق من قبل ، اذ تجمعوا بزعامة أثينا لرد عادية الفرس ايضا[٢] .

لقد كانت ملامح هذا انتطور ، واشارات هذا التعبير ، تبدو ساطعة في آفاق الحياة ، فدار حولها معظم الشعر ، كما دار حول الصفات التي يجب توافرها في البطل ، فانشاعر الجاهلي لا يرى شيئاً أفضل من التعرض الى غزواته ومعاركه اذا أراد الحديث او رغب في الكلام ، لانها النقطة التي تنطلق منها جميع الفضائل ، وتلتقي عندها كل الصفات .

لقد كانت صورة البطل تتمثل للفرد الجاهلي بشكلها الكامل ، ومثلها الرفيعة ، وصفاتها النبيلة ، التي تعارف الناس عليها ، فترتسم في ذهنه كاملة ، جُمعت فيها كل العناصر ، وتآلفت منها كل القيم ، فحماية الجار . والكرم والشجاعة والصبر على المكاره ، كانت حلقة متصلة متماسكة ، تغنى بها في شعره ، ودافع عنها ما استطاع الدفاع ، ليثبتها في مجتمعه . هذه المثل السامية التي سنّها الفرسان ، ورفعوا لواءها عاليا ، كانت دليلا حياً على اعتزازهم بها ، لانها هيأت نفوسهم لسمو انساني نبيل ، وعودتهم على قيم خالدة ، فدعتهم الى احترامها ، واجبرتهم على تمجيدها،فحفل الادب بصورها الرائعة ، فكانت لوحات خالدة في عالم الكرم والايثار والبطولة والتضحية .

فهذا انسان ، يعد الكرم فخراً ، لاسيما اذا ارغمت الشدائدالناس على الاثرة ، فعند ذلك تجد نفسه تنطلق بكل ما يدخره من الزاد ،ليطعم

---

(٢) البطولة في الادبين العربي والانكليزي ، الرسالة ـ السنة الخامسة ـ ١٨٩ .

كل جائع ويقري كل ضيف .

قد يعلم القومُ إذْ طالتغزاتُهمُ   وارملوا الزادَ أني مُنفد زادي[٣]

وهذا الانسان يعتز بهذه الصفة ، وينحي على لائميه باللائمة ، اذا كان اللوم مبعثه الكرم ، وسببه الانفاق . ثم يدعم كلامه هذا بحجته التي اتخذها فلسفة حياة لنفسه ، وبنى عليها كل مقوماته ومثله ، وهي ان الخلود في البذل وان المنيّة غاية الاجيال[٤] .

وتقولُ عاذلتي وليس لها   بغد ولا ما بَعده عِلمُ
إن الثراء هو الخلودُ وان المرءَ يُكربُ يَومَه العُدمُ
إني وجَدّكَ ما تُخلّدني   مائة يَطيرُ عفاؤها أدم[٥]

وهذا شاعر آخر وهو عمرو بن الاهتم يبين لنا كيف انه ينكر البخل ، لانه مزر باخلاق الرجال الكريمة ، وواضع من عوالي رتبها . ويدعو زوجته الى ان تترك الحديث عن بذل المال ، وتتبع هواه ، فهو يشفق على الحسب الذي رفع بناءَه،ثم يقول ان الكرام يتقون الذم ببذل القرى ، ولقضاء حقوق الكرم ، والمروءة طريقة مسلوكة ومعروفة . ثم يتطرق الى ضيف طرقه ليلا ، وكيف رحب به وكيف كان اللقاء[٦] :

ذَريني فإن البخلَ يا أم هيثمٍ   لصالح أخلاق الرجال سَرُوقُ
ذريني وحُطّي فيهَواي فانني   على الحسب الزاكي الرفيع شفيق[٧]
واني كريمٌ ذو عيالٍ تهمّني   نوائب يَغشَى رُزؤها وحقوق

---

(٣) المفضل الضبي : المفضليات ١٥١/٢ والبيت لسنان بن ابي حارثة المري .

(٤) نفس المصدر : ١١٦/١ . والابيات للمخبل السعدي .

(٥) يطير عفاؤها : يذهب وبرها من السمن . الادم : الابل الخالصة البياض ..

(٦) المفضل الضبي : المفضليات ١٢٣/١

(٧) يقال حط في هواه : اذا تابعه ولم يعصه في كل ما امره به .

ومُستنبح بعد الهدوء دعوتهُ   وقد حان من نجم الشتاء خفوق[٨]
فقلت له : أهلا وسهلا ومرحباً   فهذا صَبُوحٌ راهن وصديق[٩]
وكل كريم يتقي الذم بالقِرىَ   وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلاد" بأهلها   ولـكن اخلاقَ الرجال تضيق

فابذل بما لا غنى عنه عن نفس مطمئنة راضية اعتقاد" اكيد في نفس البدوي على اداء واجب لابد منه ، وهو سجية تنبثق من المروءة ، وتنطلق من الايمان العميق بفضيلة هذا العمل •

وما لنا نذهب بعيدا وصورة حاتم تتمثل لنا بكل شموخ واباء ، وترتسم واضحة بكل جلاء ، لتصور لنا الكرم الاصيل ، والخلق الرفيع • فمما يروى عن كرمه ما حدّث به ابن الكلبي حيث قال : اخبرنا ابو مسكين مولى ابي هريرة عن ابيه عن جده قال : مَر ابو الخيبري في نفر من قومه بقبر حاتم ، وحوله أنصاب نوائح من حجارة كأنهن نساء ، فنزلوا به ، فبات ابو الخيبري ليلته كلها ينادي أقْرِ اضيافك يا أبا جعد ، فيقال له مهلا ، ما تكلم من رمةٍ بالية ، فيقول : ان طيئاً تزعم انه لم ينزل به احد الا قراه ، فلما كان في آخر الليل نام ابو الخيبري ، حتى اذا كان في السحر ، وثب فجعل يصيح ويقول : واراحلتاه فقال له اصحابه ، ما لك قال : بلى والله ، فنظروا الى راحلته، فاذا هي مختزاة ، لا تنبعث قالوا : والله قد قراكم ، فظلوا يأكلون لحمها ثم اردفوه وانطلقوا ، فساروا ثم نظروا الى راكب فاذا هو عُدي بن حاتم راكب جملا اسود ، حتى لحقهم فقال : أيُكم هو الخيبري ،قالوا: هذا • قال : ان حاتماً جاءني في النوم فذكرني شتمك اياه ، وانه قرى راحلتك اصحابك ، وقال لي في ذلك ابياتا رددها علي حتى حفظتها هي:

---

(٨) المستنبح : الرجل يضل الطريق ليلا فينبح لتجيبه الكلاب ان كانت قريبا منه ، فاذا اجابته تبع اصواتها ، فأتى الحي فاستضافهم.
(٩) الراهن : الدائم ، الثابت .

أبا الخيبـري وأنت امـرؤ حسود العشـيرة شـتامها
فمـاذا اردت الى رمـّـة بداوية صخب هامهـا
تبُغـّى اذاهـا واعسـارها وحولك غوث" وانعامهـا
وانـا لنطعم اضيافنـا من اللوم بالسيف نعتامهـا

وقد امرني ان احملك على بعير فدونكه ، فأخذه فركبه وذهب[10] .

فعلى الرغم مما يشوب هذه الحكاية من جو اسطوري ، وما تحمله من مبالغات ، فانها تدلنا بوضوح على مكانة حاتم ، وعن مدى احاديث كرمه التي أصبحت مضرب المثل ، على ان هذه الحادثة قـد وردت في روايات كثيرة ، وباشكال مختلفة . فقد وردت في القصيدة التي مدح فيها ابن دارة عدي بن حاتم[11] .

ابوك ابو سَفّانة الخيرُ لم يزلْ لدن شَبَّ حتى مات في الخير راغبا
به تُضربُ الامثالُ في الجود ميتاً وكان له اذ كان حياً مُصاحبـا
قرى قبرُهُ الاضياف اذ نزلوا به ولم يقرِ قبر" قبله قطُّ راكبـا

على ان هذا الخلق الرفيع ، والكرم الاصيل ، كان لا يزيد حاتماً الا تواضعا ، فقد سئل حاتم هل من العرب اجودُ منك ، فتبسّم وقال : كل العرب اجودُ مني[12] . وقصة الاسير الذي ناداه مروية كثيرا .. فقد رُوي انه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة ، فلما كان بارض عنزة ناداه أسير لهم ، يا أبا سـفانة ، اكلني الاسار والقمل . فقال : ويحك ما أنا في بلاد قومي ، وما معي شي ، وقد اسأتَ بي اذ نوهتَ باسمي ، وما لك مَتْرك . ثم ساوم به العنزيين واشتراه منهم ، فخلاه وأقـام مكانه في قيده ، حتى أتى بفدائه فاداه اليهم .

وكعب بن مامه الذي يضرب به المثل في الجود ، كانت بطولتـه

(١٠) الاصفهاني : الاغاني ١٦/٩٧ ساسي
(١١) ديوان حاتم الطائي ص ٣٠ / طبع لندن .
(١٢) اوصاف الاشراف : مخطوط في دار الكتب .

نادرة ، وتضحيته غالية ، وايثاره مضرب المثل ، فمن حديثه انه خرج في ركب ، فيهم رجل من النمر بن قاسط ، في شهر صفر ، فضلوا ، فتصافنوا ماءَهم ، وهو أن يطرح في القعب[١٣] حصاة . ثم يصب فيه من الماء بقدرما يغمر الحصاة ، وتلك الحصاة هي المقلة[١٤] .فيشرب كل انسان بقدر واحد ، فقعدوا للشرب ، فلما دار القعب وانتهى الى كعب ،ابصر النمري يحدد النظر اليه ، فأثره كعب بمائه ، وقال للساقي : اسق اخاك النمري ، فشرب النمري نصيب كعب ذلك اليوم من الماء ، ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر ، فتصافنوا بقية مائهم ، فنظر اليه النمري كنظرة امس ، فقال كعب كقوله امس ، وارتحل القوم وقالوا يا كعب ارتحل ، فلم تكن به قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقيل له ردْ كعب انك وراد ، فعجز عن الجواب ، فلما يئسوا منه ، خيمّوا عليه بثوب يمنعه من الوحوش أن تأكله ، وتركوه مكانه ففاض[١٥] .

وهذا قيس بن عاصم المنقري ، يخاطب زوجته ويوصيها اذاصنعت له الطعام أن تطلب ضيفا يشاركه فيه ، لانه لا يريد أن يأكل وحده ، مخافة ان يُتحدث عنه بالبخل بعد موته .

وهو يحرص على سمعته فيقول[١٦] :

أيا ابنةَ عبدالله وابنة مالك وياابنةذي البُردين والفرس الورد[١٧]
اذا ما أصبت الزادَ فالتمس له اكيلاً فانّي غيرُ آكله وحدي

---

(١٣) القعب : اناء ضخم كالقصعة .

(١٤) المقلة بفتح الميم ويقال مقلها : اذا القاها في الاناء وصب عليها الماء . .

(١٥) الالوسي : بلوغ الارب ١ / ٨١

(١٦) المبرد : الكامل في اللغة ٢ / ٥٢٥ .

(١٧) ذو البردين : عامر بن احيمر ، وهو جد امراته ، والبردان ثوبان لبسهما عامر حين قال النعمان في وفود العرب : ليقم اعز العرب فليلبسهما .

قصياً كريماً أو قريبـاً   فإنني أخاف مذ مَّات الاحاديث من بعدي[18]
واني لعبدُ الضيف ما دام ثاوياً   وما من خلالي غيرَها شيمةُ العبد

ففي هذه المثل الخالدة ، تتمثل عظمة الجود والايثـــار والكرم ومكارم الاخلاق التي يقف الانسان امامها معجباً بهذه البطولة ، معتزا بهذه المفاخر النادرة في سجل السنين ، ليستمد منها كل المثل الخيرة ، والقيم الانسانية الحقة ، وليجعلها روائع في صفحـــات التاريخ العربي والانساني ، وصورا لبطولات خارقة ..

ان المشاركة في الزاد لم تكن وقفاً على نفر معين من الناس ، أو جماعة مخصوصة بهذه الميزة ، وانما كانت عادة اعتادهـــا العرب في حياتهم،فكانت طابعا عاما لهم،شاركت فيها الفئات القبلية ، فالصعاليك الذين اتسمت حياتهم في ظاهرها بالفردية والخروج على تقاليد المجتمع، كان من المنطق ان يخرجوا على هذه التقاليد ، ويبتعدوا عن هـــذه المعاني ، ولكن الذي نراه فيهم هو العكس ، فقـــد تمثلت المعاني في أخلاق هـــذه الجماعة تمثلا جليا ، وحسبنا أن نقرأ قصائد الشنفرى وتأبط شرا وعروة بن الورد ، لنستبين أن تمدّحهم وتمجدّهم لم يكن بمظاهر بطولاتهم في القتال ، وانما كان بما تحققه هذه البطولة من معان نفسية وخلقية واجتماعية.وكأنما تحولت حركة الصعاليك في مضمونها وشكلها الى نظام يشبه الى حد قريب نظام الفروسية ، بما حققته من صفات ومثل .

وقد ظلت احاديث عروة بن الورد تذكر بكل اجلال وتعظيم .. فقد قال عمر بن الخطاب (رض) للحطيئـــة : كيف كنتم في حربكم ؟ قال : كنا الف حازم قال : وكيف ؟ قال : كان فينا قيس بن زهير ،وكان حازما ولا نعصيه فكأنّا الف حازم ، وكنا نُقدم اقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة بن الورد[19] .

---

(١٨) المذمة بفتح الذال : الذم واللوم وكذلك بكسرها .
(١٩) ابو عبيد : سمط اللآلي ٢ /٨٢٤

وقيل ان عبدالملك قال : من زعم أن حاتماً اسمحُ الناس ، فقد ظلم عروة بن الورد[٢٠] .

إن حاتماً الطائي ، وكعب بن مامه الايادي ، وقيس بن عاصم وعروة بن الورد ، لم يكونوا الا أمثلة من عشرات الاجواد الذين حفل بهم تاريخ العرب ، فرسموا في صفحاته أروع آيات البطولة الانسانية.

وأما الشجاعة ، فهي من الصفات التي يكتسبها الانسان بالمران والممارسة ، وهي لا تُدرك الا باستمرارها ، ولا تعلّم الا بمقتضاها . ومن مظاهرها عدم المبالاة بالحياة ولا بالممات ، وكلما كانت هذه الآثار اعظم كان مبدؤها أقوى واتم .

وقد كان العرب يتمادحون بالموت على اطراف الرماح ، وتحت ظلال السيوف ، وقعقعة السلاح ، وبين صيحات الفرسان ، ويتهاجون بالموت على الفراش . ويقولون فيمن مات مثل هذه الميتة ، مات حتف انفه . قال السمؤال[٢١] :

وما مات منا سيّد حتف انفه ... ولا طُلّ منا حيثُ كان قتيل
تسيل على حد الظُبات نفوسُنا ... وليست على غير السيوف تسيلُ

وقال الحصين بن الحمام[٢٢] :

تأخرتُ استبقي الحياة فلم اجد ... لنفسي حياة مثل ان اتقدما

وقال عروة بن الورد[٢٣] :

اذا قيل يا ابن الورد أقدم الى الوغى ... أجبتُ فلا قاني كميٌّ مُقارعُ
فلا انا مما جرّتْ الحربُ مشتكٍ ... ولا انا مما احدث الدهر جازع

---

(٢٠) الاصفهاني : الاغاني ٣/٧٤ دار الكتب .
(٢١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/١١٨
(٢٢) نفس المصدر : ١/١٢٢ .
(٢٣) ديوان عروة : صادر ص ٧٤ .

لقد كان احساس هؤلاء الابطال ببطولاتهم يتضخم في نفوسهم ، وكثيراً ما يحلو لهؤلاء الابطال أن يستذكروا الوقائع التي عُرفت فيها بطولاتهم ، وثبتت بها فروسيتهم ، فيعيدوها لتكون فخرا لهم ، وتذكيرا لاعدائهم ، وليثبتوا في قلوب الخصم ، الرعب والفزع . قال عامر بن الطفيل[٢٤] :

ألسنا نقودُ الخيلَ قُبّاً عوابساً ونخضبُ يومَ الروعِ اسيافنا دما[٢٥]
ونحمي الذمار حين يشتجر القنا ونثني عن السَّرب الرعيل المُسوما
ونستلبُ الحُو العوابس كالقنا سواهِمَ يحملن الوشيج المقوما[٢٦]
ونحنُ صبحنا حي اسماء غارة أبانت حَبالى الحي من وقعها دما

أو تراهم يُشهدون الخيل على شجاعتهم ، لانها اصـــدق ، ومظاهرها ادل ، وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل[٢٧] :

لقد تعلمُ الخيلُ المغيرة أننــا اذا ابتدر الناسَ الفعال اسُودُها
على رَبذٍ يزدادُ جَوداً اذا جرى وقد قلقتْ تحت السروج لبُودها[٢٨]
وقد خُضِبت بالماء حتى كأنما تشبه كمُتَ الخيل منهن سودُها[٢٩]

ان احاديث الشجاعة ظلت تدور على ألسنة الاجيال عقب الاجيال، وظلت معانيها السامية تعيش مع وجود العربي ، لانها عنوان بقائه . فقد روي أن عمر بن الخطاب (رض) قال لعمرو بن معـد يكرب من اشجع من رأيت ؟ قال : خرجت في بعض غزواتي فأصبحت بين دكادك (هرشى) فنظرت الى ابيات ، فعدلت اليها ، فــاذا بجوار ثلاث كأنهن نجوم ، فبكين حين رأينني فقلت ما يبكيكن ؟ قلن لما ابتلينا به منك .

(٢٤) ديوان عامر بن الطفيل : ص ١٢٨ .
(٢٥) القب من الخيل : الضوامر البطون . والواحد اقب.
(٢٦) الوشيج : الرماح .
(٢٧) ديوان عامر بن الطفيل : ص ٤٥ .
(٢٨) ربذ : سريع .
(٢٩) خضب بالماء : اراد عرقت ، وجف عرقها ، فظهر كانه اسود.

واخت لنا من وراء هذا القوز هي أجمل منا تموت هنـــاك ضياعا ، فأشرفتُ من فدفد فاذا بفتى لم أرَ قط أحسن من وجهه ، له ذؤابة يسحبها ، وهو يخصف نعله ، فلما نظر الي وثب على فرسه فبـــادر وسبقني الى الابيات ، فوجدهن قد ارتعن فسمعته يقول :

مهـــلا نُسيّاتي فلا ترتعنْ   ان تُمنَع اليوم نساءُ تُمنعَن

فلما دنوت منه ، قلت : اتطرُدني ام اطرُدك ؟ قال بل اطرُدني، فركض وركضت في اثره حتى اذا مكنت السنان منلفتته[٣٠] ، اعتمدت عليه طعنا ، فاذا هو والله مع لبب فرسه ، ثم استوى من سرجه ، فقلت اقلني ، فقال أطرُدْ ، فطردته ، حتى اذا امكنت السنان من متنـــه ، شددت عليه وانا اظن أني قد فرغت منه ، فمال عن سرجه حتى خالط الارض ، وقص السنان زالجاً ، ثم استوى على فرسه ، فقلت : اقلني فقال : اطرد . ففعلت ، وفعل مثل ذلك فلما استوى على فرسه ، قال : أبعد تريد ماذا ؟ اطرد ثكلتك أمك ، فوليت وانا منه فرق ، فلمـــا غشيني ووجدت مسَّ السنان ، التفت فاذا هو يطردني بالرمح منصلا دون سنان ، فكف عني واستنزلني فنزلت ، وجز ناصيتي وقال : انطلق فاني انفس بك عن القتل ، فكان ذلك عندي يا امير المؤمنين اشد من القتل والموت ، وسألت عنه فقيل هو ربيعة بن مكدم الفراسي فذلك والله اشجع من رأيت[٣١] .

وقال ابو عمرو بن العلاء لا نعلم قتيلا ، ولا ميتا حمى الاظعـــان غيره وكان يعقر على قبره في الجاهلية ، ولم يعقر على قبـــر أحـــد غيره[٣٢] .

وروي عن عمرو بن معد يكرب قـــال : لو طفتُ بظعينة احياء

---

(٣٠) اللفتة : إسفل من الكتف .

(٣١) ابو عبد : سمط اللالي ٢ / ٩١١ .

(٣٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ١٣٦/١ .

العرب ، ما خفت عليها ما لم ألق عَبْديها وحُريها ـ يعني بالعبدين عنترة بن شداد والسُليك بن السلكة . والحرين دريد بن الصمة وربيعة بن مكدم[٣٣] .

وفي اخبار عامر بن الطفيل ، ان الاعشى أتى الاسود العنسي وقد امتدحه ، فاستبطأ جائزته فقال الاسود : ليس عندنا عين ، ولكن نعطيك عَرَضاً . فأعطاه خمسمائة مثقال دُهناً وبخمسمائة حللا وعنبراً .

فلما مر ببلاد بني عامر خافهم على ما معه ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له : أجرني فقال : قد اجرتُك قال : من الجن والانس ؟ قال نعم . قال : ومن الموت ؟ قال : لا .

فأتى عامر بن الطفيل فقال : أجرني ، قال : أجرتك . قال : من الجن والانس ؟ قال نعم . قال : ومن الموت ؟ قال نعم . قال وكيف تُجيرني من الموت ؟ قال : ان مت وانت في جواري بعثت الى أهلك الدية . فقال الان علمت انك قد اجرتني من الموت فمدح عامرا وهجا علقمة فقال علقمة لو علمت الذي أراد كنت اعطيته اياه[٣٤] .

وكثيرا ما كانت تعقد في عكاظ المبايعة على اشهر الفرسان ، اعتزازا ببطولاتهم ، وتمجيدا لمواقفهم . فتعقد لهم الوية الفروسية ، فقداجتمع العكاظيون على أن فرسان العرب ثلاثة ، ففارس تميم عتبة بن الحارث ابن شهاب أحد بني ثعلبة بن يربوع بن حنظلة صياد الفوارس ، وفارس قيس ، عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وفارس ربيعة بسطام بن قيس بن مسعود[٣٥] .

لقد كانت فروسية هؤلاء الابطال ـ كما نراها ـ بعيدةعن التهور المضحك ، الخاص بالحمقى من رجال الحرب ، الذي يدفع الابطال الى

---

(٣٣) الاصفهاني : الاغاني ١٤/٢٧ ساسي .
(٣٤) الاصفهاني : الاغاني ٩/١٢٠ دار الكتب
(٣٥) المبرد : الكامل في اللغة والادب ١/١٣٤ .

نجدة المستغيث في أي ظرف،فيرتمون في المخاطر دون حساب للعواقب.

فعنترة كان شجاعاً ، ولكنه مقتصد في شجاعته ، مفكر في طريقة استعمالها . قيل لعنترة : انت اشجع العرب واشدها . قال : لا ، قيل: فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : أُقدم اذا رأيت الاقدام عزما ، وأُحجم اذا رأيت الاحجام حزما ، ولا ادخل موضعا لا ارى لي منه مخرجا . وكنت اعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع ، فأثني عليه واقتله[٣٦] .

لقد كانت لعنترة فراسة تصيب ولا تخطيء ، وكأنه ادرك نفسيات الرجال . وعرف كيف يتوغل في اعماقها ، فاحتفظت ذاكرة العرب على مدى الاجيال بهذه الشخصية ، وبهذا الفارس ، فكان المثال الاعلى في البسالة والبطولة الحربية ، وكانت احاديثه نواة الملحمة الكبرى في تاريخ الادب العربي .

---

(٣٦) الاصفهاني : الاغاني ١٥٨/٧ دار الكتب .

الفصل الثالث

عناصـر الفروسـية

الخيــل :

لقد استأثرت الخيل بحب العرب منذ أقدم العهود ، لما تؤديه من خدمات يعجز عن ادائها سواها . لذلك كانت عنايتهم بها ، واهتمامهم بتربينها ، عناية تفوق كل شيء ، واهتماما لا يكون مثله اهتمام ، ففيها من خصال الشرف والمنافع ، والغناء في السفر والحضر ، وفي الحرب والسلم ، وفي الزينة والبهاء ، وفي العدة والعتاد ، ما ليس في غيرها من الحيوان[1] .

وقد اشتهر العرب منذ أقدم العصور بالمحافظة على أنسابها ، وعدم الخلط بين سلالاتها ، فكانوا يتناقلونها مشافهة صغيرهم عن كبيرهم ، وخلدوا ذكرها وصفاتها في قصائدهم ومقطعاتهم ، ثم عكف فريق من العلماء ، كالاصمعي وأبي عبيدة وغيرهما على تدوينها تدوينـا منظما ، ووضعوا في ذلك رسائلهم التي لم يصل الينا منها الا النزر اليسير .

ولقد كان اطلاق الاسـماء على الخيل عادة مألوفـة ومعروفة ، ليتمكنوا من تمييزها ، وليعرفوا الاصيل منها من غيره ، وقد حفلت قصص الفروسية العربية بذكر كثير من اسماء الخيل التي كانت تمثل الاصحاب الحقيقيين لها ، والتي كانت لا تقل بطولاتها عن بطولات فرسانها ، فاستحقت بذلك الاعجاب والتقدير .

---

(1) الجاحظ : الحيوان تحقيق عبدالسلام هارون ٣/ ١٢٠.

وقد ذكر صاحب انساب الخيل[٢] اكثر من مائة فرس من أفراس الجاهلية والاسلام ، مع نسبتها الى اصحابها . نذكر قسما منها على سبيل المثال لا الحصر ، فقد حدث الكلبي عن ابي صالح عن ابن‌عباس: ان « اعوج » كان سيد الخيل المشهورة ، وانه كان لملك من ملوك كنده فغزا بني سُليم علاف فهزموه ، واخذوا « اعوج » ، فكان اوله لبني هلال ، تتجوه ، وامه « سَبَل » بنت فياض ، كانت لبني جعدة . ثم انتشرت الخيلُ الجياد في العرب[٣] .

وكان فيما سَمَّوا لنا من جيـــاد فحولها واناثها المنجبات :

« الغُرابُ » ، و « الوجيه » ، و « لاحق » ، و « المذهب » ، و « مكتوم » .

وكانت هذه جميعا لغنى بن اعصر بن سعد بن قيس بن عيلان . فقال طفيل الغنوي :

بناتُ « الغراب » و « الوجيه » و « لاحق »

و « اعوجَ » تنمى نســـــبة المتنسِّبِ

وكان منها « ذو العُقال » لبني رياح بن يربوع . ومنها«داحس» وهو ابن « ذي العقال » . وامه « جلوى » الكبرى ، وله حـــديث طويل في حرب غطفان .

ومنها « الحنفاء » اخت « داحس » من ولد « ذي العقـــال » لحذيفة بن بدر الفزاري .

ومنها « الغبراء » كانت لقيس بن زهير بن جذيمة[٤] وهي خالة « داحس » واخته لابيه .

---

(٢) ابن الكلبي : انساب الخيل ص ١٢٩ .

(٣) اعتمدت في كتابة هذا الفصل على « كتاب انساب الخيل في الجاهلية والاسلام واخبارها » لابن الكلبي وكتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان لعلي بن عبدالرحمن بن هذيل الاندلسي .

(٤) وفي حلية الفرسان انها كانت لحمل بن بدر الفزاري ص ١٥٣

وكان منها « فياض » و « اسبل » لبني جعدة ايضا • وكان منها « الحِمالة » و « القُريظ » لبني سُليم •

وكان منها « اللطيم » فرس ربيعة بن مكدم •

ومنها « الورد » فرس فضالة بن كلدة • ومنها « معروف » فرس سلمة بن هند الغاضري • ومنها « ناصح » فرس فضالة بن هند وله يقول :

« أناصحُ » شمر للرهان فانها غداة حفاظ جمعتهـــا الحلائبُ
أتذكر الباســيك في كل شتوة ردائي واطعاميك والبطن ساغبُ
فانك مجلوبٌ عليّ ضحى غـد ومالك ان لم يجلب الله جـالبُ

وكان منها « الشوهاء » • فرس حاجب بن زرارة ولها يقول بشر ابن أبي خازم الاسدي :

وافلتَ حاجبٌ تحت العوالي على « شوهاء » تركع في الظراب
ولو ادركـــن رأس بني تميم عفرن الوجـــه منه بالتـراب

وكان منها « الرقيب » • فرس الزبرقان بن بدر • وكان منهـا « أثال » فرس ضمرة بن ضمرة النهشلي •

وكان منها « الشيط » فرس أُنيف بن جبلة الضبي وهو جـد « داحس » من قبل أمه ، فيما زعم العبسيون •

ومنها « العرادة » ، فرس كلحبه وهو هبيره بن عبد منـــاف اليربوعي • ومنها « العباب » فرس مالك بن نويره • ومنها « الجون » فرس متمم بن نويرة اليربوعي • ومنها « النحام » فرس سُليك بن السُلكه السعدي •

وكان منها في قيس عيلان • وكان من مشهوري فرسان العرب ، عامر بن الطفيل فرسه : « المزنوق » • ومنها « حذفة » • فرس خالد بن جعفر • ومنها « جروة » فرس شداد بن معــاوية العبسي • ومنهـا

« الابجر » فرس عنترة بن شداد العبسي • ومنها « الادهم » فرسه ايضا •

ومنها « العرادة » فرس أبي دؤاد الايادي • ومنها « الحمالة » فرس الطفيل بن مالك ، صارت الى عامر بن الطفيل •

ومنها «قُرزُل» من ولد داحس،فرس ابي عامر الطفيل بن مالك أبن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فارس قرزل •

ومنها « خِصَاف » ، فرس سفيان بن ربيعة الباهلي ويسمى فارس خصاف • وهي التي يضرب بها الناس مثلا : « لانت اجرأ من فارس خصاف » •

ومنها « السلس » • فرس مهلهل بن ربيعة التغلبي • ومنها « الشموس » • فرس يزيد بن خذاق • ومنها « اليحموم » • وهو فرس النعمان بن المنذر • ومنها « العطاف » فرس عمرو بن معد يكرب • ومنها « الهطال » فرس زيد الخيل الطائي •

ومن هنا نستطيع ان نقول انه ليس في مملكة الحيوان نوع يتداخل تاريخه مع تاريخ الانسان كالخيل ، ولسنا نخشى الاتهام بالمغالاة اذا قلنا ، ان ظهور الخيل وترويضها لخدمة الانسان كان من العوامل الحاسمة في تسيير التاريخ القديم • لان قيام كثير من الممالك القديمة ، كان رهنا بمدى اقتناء الخيول السريعة الخفيفة ، او بمدى معرفتها لوسائل استخدامها •

ولم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئا من أموالها أو تكرمه صيانتها الخيل واكرامها لها ، لما كان لهم فيها من العز والجمال ، والمنعة والقوة ، فكانوا بها يدافعون عما يملكون ، ويحمون ذمارهم ، ويعادون اعداءهم ، ويطلبون ثاراتهم ، وينالون بها الغنائم • فأحبوها وعلق حبها بقلوبهم وظل ذكرها يتردد على شفاههم •قال ابو دؤاد(٥) :

(٥) ابن هذيل : حلية الفرسان ص ١٨٢ •

عَلِقَ الخيل حب قلبي مقلا   واذا ثاب عندي الاكثار
علقت همتي بهن فما يمنع مني الاعنة الا قتار
وانجرادي بهن نحو عدوي   وارتحال البلاد والتسيار

وكان لهم فيها من التباهي والتفاخر والتنافس ما يدعو الى التأمل، ففي اكرامها اكرام للمرء نفسه، لانها وقاية للنفوس • وفي ذلك يحث أحد بني عامر بن صعصعة قومه فيقول[٦] :

بني عامر ما لي أرى الخيل اصبحت   بطانا وبعض الضمر للخيل أفضل
بني عامر ان الخيول وقاية   لانفسكم والموت وقت مؤجل
أهيبوا لها ما تكرمون وباشروا   صيانتها والصون للخيل أجمل
متى تكرموها يكرم المرء نفسه   وكل امرىء من قومه حيث ينزل

حتى كان الرجل من العرب يبيت طاويا ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وأهله وولده، فيسقيه المحض ويشرب الماء القراح • ويُعيّر بعضهم بعضا باذالة الخيل وهزالها وسوء صيانتها[٧] •

ولم تزل العرب على ذلك من تشمير الخيل، والرغبة في اتخاذها وصيانتها، والصبر على مقاساة مؤونتها مع جدوبة بلادهم، وشدة حالهم في معيشتهم[٨]، الى حد انهم سموها الخير، وفي الحديث الشريف : الخيل معقود في نواصيها الخير•

وقال الطفيل الغنوي[٩] :
وللخيل أيام فمن يصطبر لها   ويعرف لها أيامها الخير تعقب

وليس أدل على اعزاز الخيل من قول امريء القيس في معلقته[١٠] :

---

(٦) ابو عبيدة : الخيل ص ١٢ .
(٧) نفس المصدر ص ٢ .
(٨) نفس المصدر ص ٣ .
(٩) ديوان الطفيل ص ١٦
(١٠) ديوان امريء القيس ص ٢١ .

كأن على الكتفين منه اذا انتحى   مداك عروس أو صراية حنظل[١١]
وبات عليه سـرجه ولجـامه   وبات بعيني قائما غير مرسل[١٢]

وقد اضيف لفظ الخيل الى بعض الاسماء فقيل زيـد الخيل ، لشغفه بها ، وكثرة ما اجتمع لديه منها ، مع انها كانت غالية الاثمان ، لا يقتنيها الا فارس شجاع ، يغنمها في غاراته ، أو كريم موسر يجود في شرائها بأمواله . وقد عرفت لزيد الخيل ستة افراس بأسمائها وهي : الهطال والكميت والورد وكامل ودوول ولاحق[١٣] .

والفرس عدة للفارس في الحروب ، لحميتها وغيرتها على صاحبها ، لذا فقد كانوا يربونها قريبا منهم ، اكراما لها ، وتعظيما لقدرها ، واعترافا بوصلها واعتزازا بها ، واستعدادا للقتال على ظهرها ، حتى سميت المقربة . قال الحارث بن عباد[١٤] :

قربا مربط النعـامة مني   لقحت حرب وائل عن حيـال[١٥]

وقال عامر بن الطفيل[١٦] :

وجيـاد لنـا نعودها الاقـدام   ان غارت بـدت وازبأرت[١٧]

---

(١١) مداك عروس : اي هو يبرق كما يبرق الحجر الذي يسحق عليه الطيب . وخص العروس لانها قريبة العهـد بسحق الطيب ، فمداكها براق . والصراية : الحنظلة الصفراء البراقة .

(١٢) يعني انه كان مرتقبا للصباح ليصيد ، فلم يحط عنه سرجه ولجامه . وقوله « وبات بعيني قائما » اي حيث اراه لكرامته علي . وقوله « غير مرسل » اي لم اهمله لاني مستعد .

(١٣) الاصفهاني : الاغاني ٤٦/١٦ ساسى

(١٤) الاصمعي : الاصمعيات ص ٦٧

(١٥) النعامة اسم فرسه . لقحت : حملت . عن حيال : بعد حيال ، والحيال بكسر الحاء من قولهم حالت الناقة اي لم تحمل ، وهذا مثل ضربه لشدة الحرب .

(١٦) ديوان عامر ص ٣٢ .

(١٧) ازبأر : انتفش وتكبر وتعظم .

مقربات كالهيم شعث النواصي   قد رفعنا من حضرها فاستدرت[١٨]

وقال أيضا[١٩] :

للمقربات غدو حين نُحضرُها   وغادة تستثير النقع في رهج

وقال أيضا[٢٠] :

ترى رائدات الخيل حول بيوتنا   ابابيل تردى بالعشي وبالبُكر[٢١]

وقال المزرد بن ضرار[٢٢] :

مقربة لم تقتعد غير غادة   ولم تمتر الطبيين منها السلائل[٢٣]

وقد بلغ من تعظيمهم الخيل ، انهم كانوا لا يهنئون الا بغلام يولد او شاعر ينبغ أو فرس تنتج[٢٤] :

وكما كان لفظ الخيل يضاف الى بعض الاسماء ، كان يضاف لقب الفارس الى فرسه ، تعظيما واكراما . فيقال : فارس الجون[٢٥] ، كما

---

(١٨) المقربة من الخيل التي تشد عند بيوتهم ، لا تترك تسرح . كأنها كريمة عليهم ، فهم يدنونها منهم ، والهيم : اراد العطاش ، اراد ان هذه الخيل تنازع انفسها أصحابها كما تنازع هذه الظماء من الابل انفسها أصحابها في شرب الماء . والحضر والاحضار : الاسراع . فاستدرت: جادت بدرتها في السير .

(١٩) ديوان عامر بن الطفيل ص ٣٥ .

(٢٠) ديوان عامر بن الطفيل ص ٧٣ .

(٢١) الرائدات : التي ترود . تجيء وتذهب . وابابيل : جماعات. وتردي : من الرديات . وهو ضرب من العدو .

(٢٢) ديوان المزرد ص ٤١ .

(٢٣) المقربة : المؤثرة ، المكرمة . لم تقتعد : لم تركب. غير غارة : الا في غارة . لم تمتر : لم ترضع . واصل المرى مسح الضرع ليدر . الطبيين : مفردها طبي وهو من الفرس بمنزلة الثدي من المراة. والسلائل: الاولاد .

(٢٤) ابن رشيق : العمدة ١/٤٩ .

(٢٥) الحارث بن النعمان . والجون : الحصان الاسود . انظر شعر علقمة في مختار الشعر الجاهلي للاعلام .

يقال فارس الضحياء .

وكان اشراف العرب يخدمون الخيل بأنفسهم ، ولا يتكلون على سواهم في خدمتها ، وكانوا يفتخرون بكثرة العناية بها ، حتى عد ذلك مأثرة من المآثر التي يعتزون بها ، فكانوا يمرنونها على أكل قديد اللحم . فاذا اجدبوا وقل الحليب اطخبوها منه ، كما كانوا يسقونها الماء الدافيء أيام الشتاء[٢٦] . وكان السهر على العناية بها مثار اعجاب الشعراء الذين كانوا يتخذون من ذلك موضوعا للمدح . ومما مدح الاعشى به هوذة بن علي الحنفي قوله[٢٧] :

جيادك في الصيف في نعمـــة تصان الجلال وتعطى الشعيرا[٢٨]

وكانوا لا يثقون بأحد في خيلهم الا بأولادهم ونسائهم ، وهذا دليل حرصهم عليها ،لان الاعتناء بها ، والمحافظة عليها ، محافظة على المرء نفسه . يقول الكلحبة العُرني[٢٩] :

وقلت لكأس : ألجميها فانما نزلنا الكثيب من زرود لنفزعا[٣٠]

وهذا بشر بن أبي خازم يروي لنا اهتمام العرب بالخيل منـــذ قديم الزمان ، وكيف انه وجد في كتاب بني تميم تلك التقاليد ، ليصل من ذلك الى مدح خيل قبيلته ، وثباتها في الحرب ، فقال[٣١] :

---

(٢٦) الجزائري : نخبة عقد الاجياد ص ٢٢٣ .
(٢٧) ديوان الاعشى : تحقيق محمد محمد حسين ص ٩٩
(٢٨) الجلال : جمع جل (بضم الجيم) وهو ما تلبسه الدابة لتصان به .
(٢٩) المفضل الضبي : المفضليات ١/ ٣٠
(٣٠) كاس : اسم ابنته . الكثيب : القطعة من الرمل مستطيلة محدودبة . زرود : موضع . الفزع هنا : الاغاثة وهو من الاضداد .
(٣١) ديوان بشر بن ابي خازم ص ٧٨ .

وجـــدنا في كتاب بني تسيم أحق الخيل بالركض المعـــار[٣٢]

ومن مظاهر اهتمام العربي بفرسه ، انه كان يلازمها ليل نهار ، وصيف شتاء ، وكان لا يسقيها الا الحليب ، ولا يطعمها الا من طعامه ، وفي ذلك يقول مالك بن نويره[٣٣] :

اذا ضيع الانذال في المحل خيلهم فلم يركبوا حتى تهيج المصـــايف
كفاني دوائي ذا الخمار وصنعتي على حين لا يقوى على الخيل عالف
اعلل أهلي عن قليـــل متـــاعهم وأسقيه محض الشول والحي هاتف[٣٤]

ويقول طفيل الغنوي[٣٥] :

---

(٣٢) لقد وجد هذا البيت في شعر بشر وفي شـــعر الطرماح . ولذلك اختلفوا في قائله منذ القديم . وفي معنى قوله المعـــار خلاف . فقالوا : المعار . العارية ، والمعنى : لا شفقة لك على العارية . لانهـــا ليست لك واحتجوا بالبيت الذي قبله ؛ وقال من رد هذا القول : المعـــار المسمّن . يقال اعرت الفرس اعارة اذا سمنته . وقال الجوهري في صحاحه ج ٢ ص ٧٦٣ : والناس يرونه المعار من العارية وهو خطأ . قـــال ابو عكرمه : قال ابو عبيدة : هذا البيت للطرماح ولم يروه الطوسي لبشر ، قال الانباري وقراته على احمد بن عبيد لبشر . فلم ينكره ونسبه صاحب اللسان ، تبعا للجوهري ، للطرماح . ونقل صاحب اللسان بيتا نحوه شاهدا لقولهم اعرت الفرس اسمنته وهو :

اعيروا خيلكم ثم اركضوهـــا احق الخيـــل بالركض المعـــار

والظاهر ان هذا البيت قديم جدا ، وانه هو الذي حكى بشر انه وجده في كتاب بني تميم ، فروى شطره الاخير .

ينظر الصحاح للجوهري ج ٢ ص ٧٦٣ والمخصص ص ١٨٥ وشرح المرصفي للكامل ج ٤ ص ١٨٠ ــ ١٨٢ وديوان بشر بن ابي خازم ص ٧٨ .

(٣٣) ابن هذيل : حلية الفرسان ص ١٨٢ .

(٣٤) الشول : جمع شائلة وهي من الابل ما اتى عليها من حملها او وضعها سبعة اشهر ، فجف لبنها ، والمحض : اللبن الخالص .

(٣٥) ديوان الطفيل الغنوي ص ٣٠ .

انى وان قل مالي لا يفارقني مثل النعامة في اوصالها طول[٣٦]

ويقول جعفر بن أبى كلاب فارس (حَذْفَه) الذي كان يقوتها بقوته اذا حل الشتاء ، ويلحفها بردائه عند اشتداد البرد في الليالي الباردة ، ويأمر الرعاة ليؤثرونها باللبن الخالص[٣٧] :

اريغوني اراغتكم فاني وحذفة كالشجا تحت الوريد
أسويها بنفسي أو بجزء فألحفها ردائي في الجليد
أمرت الراغبين ليؤثراها لها لبن الخلية والصعود[٣٨]

ويقول عنترة في فرس أبيه شداد[٣٩] :

فمن يك سائلا عني فاني وجروة لا ترود ولا تعار[٤٠]
مقربة الشتاء ولا تراها وراء الحي يتبعها المهار[٤١]

وقد تصل العناية بالخيل الى درجة رفيعة ، فتبلغ قيمتها في نفس صاحبها مبلغا كبيرا ، فيفضلها على ابنائه ، ويشرب ما تبقيه من اللبن ، ويلبسها غطاء الرأس لعزتها ، قال متمم بن نويره[٤٢] :

فله ضريب الشول الا سؤره والجل فهو مربب لا يخلع[٤٣]

---

(٣٦) شبه الفرس في طول الساق بالنعامة .
(٣٧) ابن هذيل : حلية الفرسان ص ١٨٢ .
(٣٨) الخلية : التي تعطف على ولد غيرها لتدر . والصعود : التي تلقى ولدها لغير تمام .
(٣٩) ديوان عنترة : تحقيق عبدالمنعم عبدالرؤف شلبي ص ٧٨ .
(٤٠) جروه بالكسر : اسم فرس شداد العبسي . ترود : تجول ، والخيل اذا اكرمت لا تترك تجول .
(٤١) خص الشتاء لانه زمن المحل والجدب ، فالكرم فيه امدح . اي انها للركوب دون النسل .
(٤٢) المفضل الضبي : المفضليات ١ / ٥٠ .
(٤٣) الضريب : اللبن الخالص . الشول : التي شولت البانها اي ارتفعت . يريد انه يسقى اللبن الخالص وما بقى سؤره لا يرده عليه بل يشربه هو واهله .

وقد بلغ من اعتزاز العربي بفرسه ، انه كان يفضلها على زوجته ، فالاعرج المعنّى يتحدث عن امرأته التي تتفجع تارة ، وتتوجع اخرى ، تعيب عليه وتلومه ، ولكنه لا يعلم الشكوى ومبعثها ، ثم يعرف بعد ذلك أن زوجته تعيب عليه ايثار فرسه (الورد) عليها باللبن ، ويقول ان فرسه أفضل من زوجته ساعة الفزع ، ووقت الغارة ، فهو عدة دفاعه ، وفي المعركة يجزيه بما كان يعامله به من ايثاره باللبن فيقول[44] :

اری أم سهل ما تزال تفجع تلوم وما ادري علام توجع
تلوم على أن اعطي الورد لقحة وماتستوي والورد ساعة تفزع

وكما لام الاعرج المعنّى زوجته ، لام عنترة أمرأته ، لذكرها فرسه، واعتراضها على سقائه اللبن ، واطعامه الطعام فقال :

لا تذكري مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الاجرب[46]
ان الغبوق له وأنت مسوءة فتأوهي ما شئت ثم تحوبي[47]

وكان الفارس يطلق عليها لفظ « صاحبي » لمصاحبتها له في غزواته وصيده ، قال متمم بن النويرة[48] :

ولقد غدوت على القنيص وصاحبي نهد مراكله مسح جرشع[49]

ووصلت منزلتها في نفسه الى درجة التقديس ، فكان يخشى عليها

---

(٤٤) ابو تمام : الحماسة : شرح المرزوقي ٣٤٩/١
(٤٥) ديوان عنترة ص ٢٠
(٤٦) ينذرها بالبعد عنها ، وهجران فراشها ان هي ذكرت هذا المهر وما يطعمه .
(٤٧) الغبوق : شراب العشي . ومسوءة مخزونة . والتحوب : التوجع .
(٤٨) المفضل الضبي : المفضليات ٤٩/١ .
(٤٩) النهد : التام . المراكل : جمع مركل بفتح الميم والكاف وهو وهو موضع رجل الفارس من حيث الفرس . المسح : السريع العدو . الجرشع : الغليظ .

كل امر ، فيعلق لها التمائم والادعية خوف الحاسدين • كقول خفاف بن ندبــه :

يعقد في الجيــد عليه الرقى   من خيفة الانفس والحاسد[٥٠]

وقد تغنى العربي بامتلاكه الفرس ، وقد كان من تقاليده ألا يبيع فرسه مهما تعاظمت الاحوال • وضاقت به المسالك ، لان في ذلك مثلبة لا تدانيها مثلبة ، وهذا ما يوحي بالثقة الاكيدة التي تغمر قلب العربي ، والاعتقاد الراسخ بحبه لهذا الحيوان الاصيل العريق ، وقد تخصص فريق من الشعراء في اوصافها •

وقد ذكر الاصمعي ، ان ثلاثة من العرب لا يقاربهم احد في وصف الخيل : ابو دؤاد الايادي والطفيل الغنوي والنابغة الجعدي • فاما ابو دؤاد فكان على خيل النعمان بن المنذر ، والطفيل كان يركبها وهو اعزل الى أن كبر ، والجعدي سمع اوصافها من اشعار اهلها فاخذها عنهم[٥١] •

وقال ابو عبيدة : ان ابا دؤاد اوصف الناس للفرس في الجاهلية والاسلام ، وبعده طفيل الغنوي ، والنابغة الجعدي ، وكان ابو عبيدة عالما باوصاف الخيل وكان يقول : ما التقى فرَسان في جاهلية ولا اسلام ، الا عرفتهما وعرفت فارسيهما[٥٢] • وقال أبن الاعرابي : لم يصف أحد قط الخيل الا احتاج الى ابي دؤاد ، وقد لقب بنعات الخيل لانه احسن نعتها[٥٣] •

والخيل العتاق ، تعتبر من اسرة الفارس ، فهو يحبها اشد الحب ، ويرعاها احسن الرعاية ، ويديم النظر اليها من كل ناحية ، وفي كـــل حركة ؛ وهو يسميها كما يسمي اولاده بما يملأ نفسه حبا اذا دعاها •

---

(٥٠) الاصمعي : الاصمعيات ص ٢٠

(٥١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٦٩

(٥٢) الجزائري : نخبة عقد الاجياد في الصافنات الجياد ص ١٠٠

(٥٣) نفس المصدر .

وقد لا يكتفي العربي باوصافه هذه ، وانما يحـــاول ان يستدق في الوصف ، ويطيل من مناحيه ، فيتناول اعضاءها وقوتها • وقد دارت اوصافها في شعرهم ،فلم يكادوا يتركون عضوا من اعضائها الا وصفوه، كما اهتموا بتربيتها في السن ، وتسمية اعضائها ، والوانها ، وشياتها ، وغررها ، وحجولها ، ودوائرها ، وما قيل في طبائعها وعاداتها ، والمحمود من صفاتها ، ومحاسنها ، والعلامات الدالة على جودتها ،ونجابتها ، وعد عيوبها التي تكون في خلقها ، وجريها ، والعيوب التي تطرأ عليها ، وقد زخرت كتب الادب بذلك وافرد لها المصنفات[٥٤] •

ومما جاء في معلقة امريء القيس قوله[٥٥] :

وقد اغتدى والطـير في وكناتها	بمنجرد قيد الاوابد هيكل[٥٦]
مكـر مفـر مقبـل مدبر معـا	كجلمود صخر حطه السيل من عل[٥٧]
كميت يزل اللبد عن حال متنـه	كما ذلّت الصفواء بالمتنزلِ[٥٨]
مسح اذا ما السابحات على الونى	اثرن غبارا بالكديد المركل[٥٩]

(٥٤) ابن سيدة : المخصص ١٣٥/٦ والثعالبي : فقه اللغة ،الابواب السابع عشر والعشرون .

(٥٥) ديوان امريء القيس ص ١٩

(٥٦) الوكنات : جمع وكنة وهو الموضع الذي يأوى اليه الطائر . المنجرد : الفرس القصير الشعر ، وهو من وصف عتاق الخيل . الاوابد : جمع آبد : وهي الوحوش النافرة . اي انه لسرعته يقيد الوحوش في الفلوات فلا تفوقه لسرعته . الهيكل : العظيم الخلقة .

(٥٧) مكر : يحسن الكر . مفر : يحسن الفر . الجلمد : الجلمود وهو الحجر الصلب . من علِ : من مكان عال .

(٥٨) كميت : احمر اللون . والحال : موضع اللبد من ظهره . والصفواء : الصخرة الملساء . والمتنزل : الموضع المنحدر .

(٥٩) المسح : الكثير الجري . والسابحات : الخيل تبسط ايديها اذا عدت . والونى : الفتور . والكديد : الارض الصلبة او الغليظـــة المرتفعة . والمراكل : الذي اثرت فيه الحوافر ، واثارت غباره ، وقيـــل الذي يركل بالرجل .

على العقبِ جياش كأن اهتزامه اذا جاش فيه حَميُه غلى مُرجل[٦٠]
يطير الغلامَ الخِفَّ عن صهواته ويلوى باثواب العنيف المثقل[٦١]
درير كخذروف الوليد أمَرّه تقلب كفيه بخيط مُوصَّل[٦٢]
له ايطلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تنفل[٦٣]

كما جاءت قصيدة الاسعر الجعفي مصداقا لما ذكرناه . فهو من خلال أبياته يصف فرسه ، معتزاً بها ، بل معتزا بالخيل كلها[٦٤] .

ولقد علمت على تجشمي الردى ان الحصون الخيل لا مدر القرى[٦٥]
راحوا بصائرهم على اكتافهم وبصيرتي يعدو بها عتَدٍ وأى[٦٦]

---

(٦٠) العقب : هو عقب الانسان : اي اذا غمزته بالعقب جاش وقيل : العقب جرى يجيء بعد جرى .

(٦١) ، (٦٢) الخف : الخفيف . والصهوات : جمع صهوة وهي موضع اللبد من ظهر الفرس . ويلوى باثواب العنيف : يذهب بها من شدة عدوه . والمثقل : الثقيل الذي لا يحسن الركوب . يقول يسقط الغلام الخف عن ظهره من سرعة عدوه وشدة دفعه ، ويخاف الثقيل ان يصرعه لدورانه فيثبت على ظهره ، ولا يثبت عليه ثوبه . الدرير من الخيل ومن كل الدواب : السريع الخفيف . والخذروف : الدوارة يلعب بها الصبي ، يشدها بخيط في يديه . وهي سريعة المر . والموصل : الذي اخلق وتقطع من كثرة اللعب به ، فوصل .

(٦٣) ايطلا الظبي : خاصرتاه . وارخاء السرحان : جرى الذئب . والتتفل : ولد الثعلب . والتقريب : وضع الرجلين موضع اليدين .

(٦٤) الاصمعي : الاصمعيات ١٥٧ .

(٦٥) تجشم الردى : ركوبه على كره ومشقة . وفي كثير من روايات البيت على تجنبي الردى ، يريد انه يتحاشى الهلاك . المدر : الطين اليابس .

(٦٦) البصيرة : ما استدار من الدم مقدار الدرهم . العتَد : بفتح التاء وكسرها : الفرس الشديد التام الخلق ، السريع الوثبة ، المعد للجري ، ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . الواى : الطويل من الخيل وقيل : الصلب . يعني إنهم حملوا دم ابيهم على اكتافهم وتركوا طلب الثار فجعلوه خلفهم ، واخذوا الدية ، فصارت عارا . وبصيرتي : اي ثاري قد حملته على فرس لاطالب به .

نهد المراكل مدمج ارســـاغه عبل المعاقم ما يُبالى ما أتى[٦٧]
اما اذا استقبلته فكأنــــــه باز يكفكف ان يطير وقدرأى[٦٨]
واذا هو استدبرته فتسوقـــــه رجل قموص الوقع عارية النسا[٦٩]
واذا هو استعرضته متمطـــرا فتقول هذا مثل سرحان الغضا[٧٠]
اني رأيت الخيـــــل عزا ظاهرا تُنجي من الغمى ويكشفن الدجى[٧١]
ويبتن بالثغر المخوف طلائعـــــا ويثبن للصعلوك جمة ذي الغنى[٧٢]

وكانت للعرب معرفة حسنة في شـؤون الخيل واحوالهـا ، لم يسبقهم اليها سواهم ، لعنايتهم بافراسهم • وقد اكثر الشعراء من ذكرها، فوصفوها في اشعارهم ، وما ذاك الا لانهم امة جلاد وكفاح ، الخيـل أول عدتهم في القتال ، والذود عن حقيقتهم • فهي حصون منيعـة ، يتحصنون بها ،ومعاقل امينة يلتجأون اليها •

وقد وضعت العرب لعتاق الخيل اسماء تدل على عتقها وكرمها في اوصاف مخصوصة فمن ذلك « الطّرف» وهو الحَسن الطويل ، المقابل في الجياد من أبويه الذي حَسُن في المرآة • و « اللّهموم » وهو الجيد الحسن الخلق،الصّبور على العدو،الذي لا يسبقه شيءٌ طَلَبه، ولا يدركه من تبعه ، و « العُنجوج » الجيد الخلق ، الحسن الصورة في طول • و « الهُذلول » الطويل القوي الجسـيم • و « الذيّـال » الطويل الذنب • و « الهيكل » العظيم الخَلْق ، الحسن المنظـــر •

---

(٦٧) المراكل جمع مركل : بفتح الميم والكاف وهو حيث يركـل الراكب الدابة برجله ، يحركها للركض . والنهد : التام الجسيم . المعاقم : المفاصل . والعبل : الممتلىء .

(٦٨) الباز : ضرب من الصقور يصاد به .

(٦٩) قموص الوقع : من قماص الفرس . يقال قمص الفرس وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معا ويعجن برجليه .

(٧٠) متمطرا : مسرعا . السرحان : الذئب .

(٧١) الغضا : شجر .

(٧٢) يثبن : يعطين من الاثابة . الجمة اصلها معظم الماء .

و « النهد » الجواد العظيم ، الشديد الاعضاء . و « الجرشع » العظّيم الخلق ، الواسع البطن ، الواسع الضلوع . و « السّلهب » الطويل المقاصّ الطويل القوائم و « الخنذيذ » الجسيم من الخيل وهو من الاضداد . و « الخارجي » هو الجواد العتيق بين ابوين هجينين . و« المُقرَب » الكريم على اهله المخالط بالعيال ، المرتبط قريبا لعزته. « البحر » الكثير الجري الذي لا يفتر . واول من تكلم في ذلك رسول الله (ص) ، ركب فرساً لابي طلحة ، فقال : انا وجدناه بحرا .

و « المسوّم » الذي خُصّ بعلامة يتميز بها عن غيره .و«الاجرد» القصير الشعر ، والاثنى جرداء ، والجميع منها : الجُرد . و«الشّطب» الحسن القَد . « الاقود » الطويل العنق . و « الضّبور » الذي يصفُّ يديه اذا جرى ، وهو من احسن جري الخيل ، واسم ذلك الجري ، الضّبْر . و « الضّرم » هو من الخيل الذي لا يبالي أفي حَزْنٍ جرى أم في سهل ، وكأنه لهيب النار .

و « السابح » الذي يسطو بيديه قُدُماً اذا جرى . و « المناقل» السريع نقل القوائم في جريه ، و « المطهّم » التام الحَسن الخلق . و « الطموح » السامي الطَّرف الحديدُ النظر . و « الشَّيْظَم » الحسن الطويل.و «الاقبُّ »المنطوي الكَشْحِ الضامر . و«المخبب» البعيد ما بين الرّجْلين من غير فَحج .

وهناك صفات اخرى يمكن الرجوع اليها في كتاب حلية الفرسان.

وكما اسلفنا فقد تخصص قسم من الشعراء في اوصافها،واشتهارهم بذكر اعضائها ، ومميزاتها ، فكان ابو دؤاد الايادي الذي قال اكثر اشعاره فيها . وطفيل الغنوي الذي اعتبر من اوصف العرب للخيل حتى سموه طفيل الخيل لكثرة وصفه اياها ، كما انه كان يُدخل وصفها في

(★) اعتمدت في هذا الفصل على ابن هذيل الاندلسي في كتابه حلية الفرسان وشعار الشجعان ، وعلى كتاب انساب الخيل لابن الكلبي .

كل باب من ابواب شعره ٠

وقد حفلت كتب اللغة بالاضافة الى كتب الادب والتاريخ باسماء الخيل ، وخلقها ، ودوائرها ، وما يستحب منها ، وما يكره فيها ، والوانها الى غير ذلك مما يتعلق باحوالها ، واشكالها ، واوصافها ٠ وفي هذا ما يدل على ان امة العرب كانت امة حرب وضرب ٠ وجدت في مفازات الصحراء مجالا لبطولاتها ، فكان هذا الديوان الكبير من الشعر ، وهذا الكتاب الضخم من الخطب ، والامثال والحكايات يحفل بهذه الاسماء ، ويمتليء بهذه المرادفات والنعوت ، ليُدلل على قوتهم وجبروتهم ٠

الخيل في الحرب :

ليست دراستنا للخيل في هذا المجال دراسة مفصلة تجمع كل ما قاله العرب فيها ، وما يتصل باحوالها ، واوضاعها ، واصنافها ، والوانها ، وامراضها ، لان ذلك يستلزم منا وقتا طويلا ، واسفارا كبيرة ، ولكننا سنتطرق في حديثنا لما قاله الشعراء عنها ، وتحدثوا به في مجال الحرب ، وما تقوم به من ادوار في حياة الفارس ، فوزا او هزيمة ، ولخطورة هذه الادوار ، نجدها اخذت نصيبا وافرا في شعر الحرب ، وشغلت حيزا واسعا من حياة الصراع في العصر الجاهلي ٠

والخيل من اولى معدات الحرب ، واشدها حاجة وقت الشدة ، وعلى مدى قوتها وخبرتها بالحرب تكون درجة القتال ، وعلى ثباتها في المعركة تتوقف نتائج المعارك ٠ فطبيعة الحياة القاسية برمالها المحرقة ، وآفاقها الممتدة عبر مضارب الخيام الشامخة ، وسط الصحارى الممحلة بكل شمم ، جعلت العربي في باديته يرتبط ارتباطا وثيقا بها ، لانها عنوان بارز من حياته الصعبة المضطربة بالاحداث ، الزاخرة بالحروب ، المفعمة بالغارات ، خلقت منه انسانا يحسن الفروسية ، لانه بفضلها يدرك غايته ، وبسرعة خيله يتعقب اثار خصمه ، وبمهارتها وذكائها يتمكن من تسديد الضربة الصائبة الى قلب عدوه ٠

وقد امن الفارس صداقة فرسه ، واطمأن الى وفائه ، فهو انيسه في المغامرة ، وصاحبه في السرى ، ورفيقه في الحل والترحال ، وقد لمس العربي تلك الصداقة في اشد محنه ، وتذوقها في احرج ساعاته ، وعرفها في التماع الاسنة ، وتحت ظلال السيوف ، يبثه شكواه ، ويقاسمه احزانه ، وقد كان يجيش في نفوس الفرسان احساس عميق نحو خيولهم التي تعيش معهم حين تنال منها سيوف الاعداء ورماحهم ، وكثيرا ما كانوا يصورون آلامها وجروحها الجسدية والنفسية كقول عنترة[73] :

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا اليّ بعبرة وتحمحم[74]
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي[75]

لقد رفع عنترة جواده في هذا الموقف الى درجة الشعور الانساني ، والادراك الحقيقي ، لان الشكاية لا تصدر الا من عاقل ، وشكاية فرس عنترة عبرة تتحدر من عين هذا الفرس الاصيل ، وحمحمة تنبعث من صدره وهو يمر بمرحلة الازورار ، فاراد الاعتذار فتمكن من التعبير ، واجاد عنترة التصوير بادق صوره ، لان فرسه عمدته في الحرب ، وحصنه الذي يتحصن به •

وقد يمنح الفارس فرسه صفة اخرى من صفات الانسانية ، وهي نداؤها للفرسان باظهار شجاعتهم ، ودعوتهم الى الثبات والصمود في القتال ، اذا وجدتهم يولون الادبار • ويصور لنا الحارث بن وعلة الجرمي هذه الصورة فيقول[76] :

ولما سمعت الخيل تدعو مُقاعِسا تطالعني من ثُغرة النحر جائر[77]

---

(٧٣) ديوان عنترة ص ١٥٣ .
(٧٤) المحاورة : المراجعة .
(٧٥) ازوّر : مال . والتحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل .
(٧٦) المفضل الضبى : المفضليات ١٦٤/١
(٧٧) مقاعس : اراد بني مقاعس . تطالعني : طلع مني وارتفع يعني فزعا . ثغرة النحر : النقرة في اعلى الصدر . الجائر حَر يؤذي الجوف عند الجوع .

وهي الى جانب كل ما تقدم ، تثبت في الحرب ، ولا تتألم حتى اذا جرحت ، لانها عريقة النسب اصيلة .

قال ربيعة بن مقروم[٧٨] :

وجُـردا يُقرّبن دون العيـال خلال البيوت يلكن الشكيما[٧٩]
تُعوّد في الحرب أن لا بَراحَ اذا كُلّمت لا تشكّى الكلوما[٨٠]

والخيل تخوض الحرب كما يخوضها الفارس ، وتخرج منها محجلة الايدي دما بعد وطئها القتلى ، وهي بعد هذا تأتي بالغُنم فمن يعرف ايامها تعقبه الخير . قال الطفيل الغنوي[٨١] :

طوامح بالطرف الظراب اذا بدت مُحجلة الايدي دما بالمُخضَّب[٨٢]
وللخيل ايام" فمن يصطبرْ لها ويعرفْ لها ايامها الخيرَ تُعقبِ[٨٣]

وقد يدعو الفارس فرسه الى التأسي والصبر اذا شعر بوقع الرماح عليه ، لينـالا شرف النصر معا كقول عامر بن الطفيل[٨٤] :

الست ترى ارماحهم فيّ شُرعاً وانت حصان ماجد العرق فأصبرِ[٨٥]

---

(٧٨) المفضل الضبي : المفضليات ١٨٣/١ .

(٧٩) الجرد : الخيل القصيرة الشعر . يقربن دون العيال : يؤثرن ويفضلن بالاكرام . يلكن : يمضغن . الشكيم : لسان اللجام .

(٨٠) كلمت : جرحت . الكلوم : الجروح . يقول اذا جرحت صبرت ولم تبرح .

(٨١) ديوان الطفيل الغنوي : ص ١٥ ــ ١٦ .

(٨٢) واحد الظراب : ظرب . اي يطمحن الى الجبال ينظرن اليهن . محجلة الايدي دما : يريد إنها خاضت الدماء ووطئت القتلى فبلغ الدم منها المخضب اي موضع الخضاب .

(٨٣) قال الاصمعي : يقول الخيل تأتي بالغنم . فمن يعرف لها إيامها الخير اعقبنه . قال والخير صفة للايام كأنك قلت وللخيل الخير فمن يعرف لها ايامها تعقبه الخير .

(٨٤) ديوان عامر بن الطفيل ص ٦٢ .

(٨٥) يخاطب فرسه يقول : انا صابر على ما يرد علي من الرماح المشرعة نحوي . وانت فرس كريم شريف العرق ما ضرب منه هجين ناصبر معي .

وكثيرا ما كان الفارس يستشهد بالخيل على بلائه في المعركة ، وبطولته ويضفي عليها صفة العلم والدراية فيقول زيد الخيل[86] .

والخيل تعلم أني كنت فارسها يوم الاكس به من نجدة روق

وقد يطلقون لفظ الخيل احيانا وهم يقصدون الفارس لتلازم المعنى واتفاقه . قال دريد بن الصمة يرثي اخاه[87] :

تنادوافقالوا : اردت الخيل فارسا فقلت أعبدالله ذلكم الردي[88]

فطاعنت عنه الخيل حتى تبددت وحتىعلاني حالكاللوناسود[89]

وقال وداك بن ثميل المازني يتوعد شيبان ويتهددهم[90] :

رويد بني شيبان بعض وعيدكم تلاقوا غدا خيلي على سفوان[91]

تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى اذا ما غدتفي المأزق المتداني[92]

وللخيل كر فيالحرب يباهى به،وكسبها في الحرب غنيمة يفخر بها، وفي ذلك يقول الحصين بن الحمام المري[93] :

فليت ابا شبل رأى كر خيلنا وخيلهم بين الستار فأظلما[94]

نطاردهم نستنقذ الجرد كالقنا ويستنقذونالسمهري المقوما[95]

---

(٨٦) ديوان المعاني : جـ ٢ ص ٤٩ .

(٨٧) حماسة ابي تمام المرزوقي : ص ٨١٦ والاصمعيات ص ١١٣

(٨٨) الردى : الهالك من الردى وهو الهلاك .

(٨٩) اسود : بالرفع وهو اقواء . وكلمة الخيل في البيت الاول الفرسان وكذلك في البيت الثاني .

(٩٠) ابو تمام : الحماسة شرح المرزوقي ١٢٧/١

(٩١) سفوان : اسم ماء قالوا هو من البصرة على اميال .

(٩٢) المراد بالخيل : الفرسان والمعنى : تلاقو فرسانا كراما لا تمل الحروب ، ولا تعدل عنها اذا ابتكرت في مضيق منها ، تتلاحم فيه الفرسان وتتدانى فيه الابطال والشجعان .

(٩٣) المفضل الضبي : المفضليات ٦٣/١ .

(٩٤) الستار واظلم : موضعان .

(٩٥) الجرد : الخيل قصيرة الشعر . السمهري : الرمح يقول نغنم منهم خيلهم ونترك في اجسادهم رماحنا اذا طعناهم فهم يحاولون اخراجها .

ويقول الافوه الاودي يصف صولة فرسه في الحرب وكرها على العدو[96] :

ان يَجُل مهري فيكم جولة فعليه الكر فيكم والغوارْ
كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

ومن عادة الخيل الاصيلة ان تبقى من عدوها بقية لوقت الحاجة. كما انها اذا علمت بانه سيغار عليها ــ وكانت عطاشا ــ شربت من الماء بعض الشرب . والبعض الآخر لا تشرب الماء البتة ، لما تلاقيه من الشدة اذا حورب عليها .

والى ذلك يشير الكلحبة اليربوعي صاحب العَرادة عندما جاءه ، نذير الحرب . وكانت فرسه قد سقيت ملء الحوض ماء . فلما الجمها وركب ظلعت فقال[97] :

فان تَنجُ منها يا حَزيم بن طارق فقدتركت ماخلف ظهرك بلقعا[98]
ونادى منادي الحي ان قد اتيتم وقد شربت ماء المزادة اجمعا[99]
وقلت لكأس : الجميها فانما نزلنا الكثيب من زرود لنفزعا[100]
كأن بليتيها وبلدة نحرها من النبل كراث الصريم المنزعا[101]

---

(٩٦) ديوان الافوه الاودي في الطرائف الابية ص ١٢ .

(٩٧) المفضل الضبي : المفضليات ١/٢٩ .

(٩٨) حزيم : ترخيم حزيمة . البلقع : الاجرد الذي لا شيء فيه. يقول ان نجوت منها فقد ذهبت بحالك ، والعرب كثيراً ما تسند عملها الى الخيل ، لانهم عليها فعلوا وادركوا .

(٩٩) المزادة : اناء كبير من جلد يتزود فيه الماء . يقول اتاهم الصريخ وقد شربت فرسه فعاقها من الجري ، فهو يعتذر عن انفلات حزيمة منه .

(١٠٠) كاس : اسم ابنته . زرود : موضع . الفزع : الاغاثة وهو من الاضداد .

(١٠١) الليت : بكسر اللام صفحة العنق . بلدة النحر : ثغرته وما حولها . الكراث : نبت . الصريم : قطع من الرمل . المنزع : المنزوع : لان

فادرك ابقاء العَرادة ضلعهـــا   وقد جعلتني من حزَيمة اصبعا[102]

وقد تفنن الشعراء الفرسان في اوصاف خيلهم ، وتصوير جريها ، وما تفعله بالارض ، وما تثيره من غبار ، وما تسحقه من حصى ، فيتطاير الغبار كالدواخن ، ويتفتت الحصى كذرى البرد الساقط ، وعليهـا الفرسان تنحدر بهم من مرتفع الى ثنية ، وتجنح بهم من واد الى سهل . قال الطفيل الغنوي[103] :

كأن سَدا قطن النوادف خلفهـا   اذا استودعته كل قاع ومذنب[104]
اذا هبطت سهلا كـأن غبُـاره   بجانبه الاقصى دواخن تنضب[105]
كأن رعال الخيل لمـا تبـددت   بوادي جراد الهبوة المتصوب[106]
وهصن الحصى حتى كأن رضاضه   ذرى برد من وابل متحلب[107]
يبادرن بالفرســـان كل ثنيـــة   جنوحا كفراط القطا المتسرب[108]

ان اهتمام العرب بتنشئة ابنائهم على الخيل ، وتعويـدهم على

ساق الكرائة تكون في الرمل فاذا انزعت اشبهت السهم . يصف كثرة ما اصاب فرسه من السهام .

(١٠٢) المبقية من الخيل : التي تبقى بعض جريها تدخره . الظلع، العرج والغمز في المشي . يقول ان شرب العرادة اضعف جريها ، فغلب ظلعها إبقاءها ففاتها حزيمة وهو قيد اصبع منها .

(١٠٣) شعر الطفيل ص ٩/٨ .

(١٠٤) يقول كانها تنشر ملاءة من الغبار . والمذانب مجاري الماء الى الروضة والواحد مذنب .

(١٠٥) تنضب : شجر له دخان ابيض .

(١٠٦) الرعلة : القطعـة . بواديه : اوائله . والهبوة : الغبرة . يقال ما هاج جراد الا هبت أو هاجت هبوة .

(١٠٧) الوهص : شدة الوطىء . رضاضه : ما ترضض منه وتكسر . ذرى برد : يريد اعاليه . يعني المطر .

(١٠٨) جنوحا : جنوحا : جنحن الى الارض قليلا . والفارط ما سبق . والمتسرب التي تمضي سربة سربة اي قطعة قطعة . والثنيـة : المطلع في الجبل والطريق المنحفر في الربوة .

ركوبها ، كانت ضرورة تحتمها الظروف القاسية ، وكانت هذه التنشئة وقفا على ابناء العرب من ذوي النسب فقط ، اما العبيد فعملهم يقتصر على الرعي والخدمة ، وكانت رياضة ركوب الخيل من الخصال التي ينشأ عليها الشباب في البادية ، ويظلون محتفظين بها ، معتزين باصولها ، لانها دليل على الحيوية والنشاط . والى ذلك يشير امرؤ القيس في قوله[١٠٩] :

واصبحت ودعت الصبا غير انني　　اراقب خلات من العيش اربعا
فمنهن قولي للندامى ترفعوا　　يداجون نشاجا من الخمر مترعا[١١٠]
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا　　يبادرن سربا آمنا ان يفزعا[١١١]

كما ان التدريب على القتال ، كان يستوجب الخيل ، ولم تكن الخيل – لارتفاع ثمنها – ميسرة لكل من يطلبها، ولذلك نجد انها اقتصرت على ابناء العرب وحدهم ، والذين يستطيعون الحصول عليها، وكما كان الاهتمام باصالة الفارس ، كان الاهتمام باصالة الفرس وكما كان العربي يتغنى ببطولته في المعركة ، وبلائه في الحرب ، كان يتغنى ببلاء فرسه ، لانها تهزم القوم ، وترفع احساب من صبر في الحرب ، وهي بعد ذلك تلاقي الغنيمة ، وتنجي مَنْ تضيق به السبل . قال الحصين بن الحمام المري[١١٢] :

فالحقن اقواما لئاما باصلهم　　وشيدن احسابا وفاجأن مغنما[١١٣]

---

(١٠٩)　ديوان امرىء القيس ص ٢٤٠ .
(١١٠)　يداجون : يداورون ويعالجون . النشاج : الذي يجيد الشرب . ومترع : مملوء .
(١١١)　ترجم بالقنا : اي تعدو عدوا شديدا . والسرب : الحي .
(١١٢)　المفضل الضبي : المفضليات ١/٦٧ .
(١١٣)　قوله الحقن : يعني الخيل : هزمت قوما وصفهم بالخور ، للؤم اصولهم . وشيدن احسابا : اي رفعنها واعظمن ذكرها يريد بذلك من صبر في الحرب . وقوله فاجأنا مغنما : لقينه .

وانجين من ابقين منا بخطـــة من العذر لم يدنس وان كان مؤلما[114]

وقد بلغ من اعتزاز الفرسان بخيلهم ، ان فريقا من الشعراء كانوا يفتتحون قصائدهم بذكرها .

قال يزيد بن الحذاق[115] :

اعددت سبحة بعـدما قرحت ولبست شكة حازم جلـد[116]

وقال قصيدة اخرى يتهدد بها النعمان وقـــد افتتحها بذكر فرسه[117] :

الاهل اتاها ان شـــكة حازم لدي وأني قد صنعت الشموسا[118]

كما افتتح الحارث بن عباد قصيدته المشهورة بقوله[119] :

قربا مربط النعـــامة مني لقحت حرب وائل عن حيال[120]

وقال عامر بن الطفيل[121] :

افراسنا بالسهل بدلن مذحجا ذرى سعف شثاً وباناً وعرعرا[122]

وقد اكثر الشعراء من وصف الخيل ، وتفننوا في تصوير ذلك .

وقد استحسن العرب تشبيه الفرس بالظبي والسرحان والنعـامة .

ويعتبر امرؤ القيس اول من فعل ذلك بـــين الشعراء الذين وصلت

---

(١١٤) من العذر : اي من ابقته هذه الحرب فقد اتى بعذر لانـه قد ابلى . وقوله لم يدنس اي لم يفر فيكون ذلك عارا عليه وان كان قد الم .

(١١٥) المفضل الضبي : ٢/٩٦ .

(١١٦) الشكة : السلاح .

(١١٧) المفضل الضبي : المفضليات ٢/٩٧

(١١٨) الشموس : اسم فرسة .

(١١٩) الاصمعي : الاصمعيات ص ٦٧ .

(١٢٠) النعامة : إسم فرسة ، لقحت : حملت .

(١٢١) ديوان عامر بن الطفيل ص ٧٠ .

(١٢٢) السعف : رؤوس الجبال . الواحدة سعفة ، يريد لحقتهم بالجبال . الشث : نبات طيب الريح . البان : شـجر معتـدل القوام ، يؤخذ من حبه دهن طيب . العرعر : شجر يشبه السرو لا ساق لـه وينبت في الجبال .

اشعارهم الينا ، وعده العلماء مثلا يقاس عليه ، ويحتكم في السبق والتخلف اليه(١٢٣) .

له ايطلا ظبي وساقا نعامة وارخاءسرحان وتقريب تنفل(١٢٤)

واعقبه الشعراء فقال طفيل الغنوي(١٢٥) :

كأنه بعد ما صدرن من عرق سيد تمطر جنح الليل مبلول(١٢٦)

وقال أيضا(١٢٧) :

وفينا رباط الخيل كل مطهم رجيل كسرحان الغضا المتأوب(١٢٨)

وقال طرفة بن العبد(١٢٩) :

وكري اذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا نبهته المتورد(١٣٠)

وقال الاسعر الجعفي يصف فرسه(١٣١) :

واذا هو استعرضته متمطرا فتقول هذا مثل سرحان الغضا(١٣٢)

---

(١٢٣) ديوان امرىء القيس ص ٢١ .

(١٢٤) شبه خاصرتي الفرس بخاصرتي الظبي ، لانه ضامر . وشبه ساقيه بساقي النعامة ، لانها قصيرة الساقين صلبتهما ، طويلة الفخذين . وشبه ارخاءه ـ وهو سير ليس بالشديد ـ بارخاء الذئب . التتفل : ولد الثعلب .

(١٢٥) ديوان الطفيل الغنوي ص ٣٣ .

(١٢٦) صدرن اي سبقا بصدره ، ويقال تمطر عني اي غلبني ذهابا . والمتمطر في العدو ان يذهب في الارض . والسيد : الذئب .

(١٢٧) ديوان الطفيل الغنوي ص ٥ .

(١٢٨) رباط الخيل : يريد انهم يتخذون الخيل . والمطهم من كل شيء : المحسن التام . والرجيل : الشديد الحافر . والسرحان : الذئب وذئاب الغضا . اخبث الذئاب .

(١٢٩) ديوان طرفه ص ٥١ .

(١٣٠) الكر : العطف والرجوع . المضاف : الخائف والمذعور . محنبا : فرسا في يده انحناء . سيد : ذئب . المتورد : الذي يرد الماء .

(١٣١) الاصمعيات ص ١٥٨ .

(١٣٢) متمطرا : مسرعا ، تمطرت الخيل ، ذهبت مسرعة .

اما صورها ، فقد جمع بعض العرب محاسنها في بيت واحد وهو قوله[١٣٣] :

وقد اغتدى قبل ضوء الصباح   وورد القطا في الفلاة كثـــاث
بصافي الثلاث رحيب الثـــلاث   قصير الثلاث طويل الثـــلاث

والمقصود بصافي الثلاث اللون والعين والغرة ، ورحب الثلاث أي واسعها وهي البطن والمراد بها منحنى الضلوع الا الخاصرتين والاتف والشدق . وقصير الثلاث وهي الظهر ، وعسيب الذنب ، والرسغ . وطويل الثلاث العنق والشعر والرأس[١٣٤] .

وكانوا يشبهونها بالطير في سرعتها . قال زيد الخيل[١٣٥] .

اذا دفعت في يوم هيجـا تتـابعت
خروج القواري الخضرمن خلل السيل[١٣٦]

وقال النابغة الذبياني[١٣٧] :

والخيـــل تمزع غربـا في أعنتهـــا
كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد[١٣٨]

كما انهم اطلقوا على عشرين عضوا من اعضائها تقريبا اسماء طيور ، فقالوا الهامة وهو العظم الذي في أعلى الرأس وفيه الدماغ . والفرخ ، الدماغ . والنعامة ، الجلدة التي تغطي الدماغ . والعصفور ، العظم

---

(١٣٣) البخشي : رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنـــات الجياد ص ١٢ .
(١٣٤) نفس المصدر .
(١٣٥) ابن قتيبة : المعاني الكبير ١/٤٢ .
(١٣٦) القواري : واحدتها قارية وهي طير اذا راوه استبشروا بالمطر ، كانه رسول الغيب او مقدمة السحاب .
(١٣٧) ديوان النابغة ص ٣٤ .
(١٣٨) تمزع : تمر مرا سريعا . غربا : حدة ونشاطا . الشؤبوب: الدفعة من المطر ، ويريد الخيل الجياد التي هي في ســـرعتها كالطير التي تخاف اذى البرد فهي شديدة الطيران .

الذي تنبت عليه الناصية • والذبابة ، النكيته الصغيرة التي في انسان العين فيها البصر • والقطاة ، مقعد الردف • والغرابان ، رأسا الوركين فوق الذنب • والحمامة،القص • والصقر ، دائرة في الرأس ،والدجاجة، اللحم الذي على زوره بين يديه • والديك ، العظم النائي خلف الاذن • والنسر وهو ما ارتفع من بطن الحافر من اعلاه كأنه النوى والحصى•

ومن شدة تعلق العرب بالخيل حيكت حولها اساطير غريبة وامور عجيبة[١٣٩] • وكما عرفوا صفاتها والوانها فقد وضعوا لاعمارها اسماء • فقالوا عن الفرس اذا وضعته امه (مهر) ثم (فلو) فاذا استكمل سنة فهو (حولي) ثم في الثانية (جذع) ثم في الثالثة (ثنى) ثم في الرابعة (رباع) وفي الخامسة (قارح) ثم بعد ذلك الى ان يتناسى عمره (مذك) •

وكذلك فعلوا في الاصوات، (فالصهيل)صوته في اكثرالاحوال• وقسموا الصهيل الى ثلاثة اقسام (اجش) و (صلصل) و (مجلجل) فالاجش ما جهر صوته ، والصلصال ماحدودق جدا • والمجلجل ما صفا ولم يدق ، وكانت فيه غنة • ثم قالوا في الاصوات (الضبح) وهو صوت نفسه اذا عدا و (القبع) صوت يردده من منخريه الى حلقه اذا نفر من شيء ، او كرهه • و (الحمحمة) صوته اذا طلب العلف • او

(١٣٩) كتاب الخيل لابي عبيدة معمر بن المثنى ، وكتاب الخيل للاصمعي ، وكتاب إنساب الخيل في الجاهلية والاسلام لابن الكلبي ، وكتاب الخيل في المخصص لابن سيدة ، وفصل الخيل في فقه اللغة للثعالبي ، وكتاب الخيل في العقد الفريد ، وادب الكاتب ، وكتاب المعاني الكبير لابن قتيبة ، وصبح الاعشى للقلقشندي ، ونهاية الارب للنويري ، وبلوغ الارب للالوسي ، وكتاب فضل الخيل للدمياطي ، المصري . ورشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد للبخشي ، وكتاب عقد الاجياد في الصافنات الجياد للجزائري ، وكتاب الخيل وفرسانها للطبيب نجيب الخوري ، وحيلة الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الاندلسي . وغير ذلك من الكتب التي ضمنت ابوابها فصولا للخيل او متعلقاتها .

رأى صاحبه ، فاستأنس اليه .واسماءأخرى كثيرة يمكن الرجوع اليها في الكتب التي تحدثت عن الخيل(١٣٩) .

وكما وضعوا للعتاق اسماء تدل على عتقها وكرمها فقد عرفوا عيوبها ومحاسنها .

فقالوا عيوب الخيل ضربان : منها يكون خلقة ، وضرب يكون عادة . فالعيوب الخِلْقية كلها بذرية ، والعيوب العادية كلها فعلية.

فمن عيوب الخيل «الخذا » وهو استرخاءفيالاذنين من اصولهما، والفرس لذلك « اخذى » . فان كانتا مائلتين على خديه كهيئة آذان الحمير ، فذلك « البَدَدُ » والفرسُ منه أبَدُّ .

فان كان الفرس قليل شعر الناصية قصيره فهو « أسفى » . فاذا كان مُبْيَضّ اعالي الناصية فهو « اسعف » . فاذا كان كثير شـعر الناصية حتى تغطى عينيه فهو « اغم » . فاذا كان قصـير العنق فهو « اهنع » .فاذا كان متطامن العنق حتى يكاد صدره يدنو من الارض فهو « ادَن » . فاذا كان منفرج ما بين الكتفين فهو « اكتَفْ » .فاذا كان هضيم اعالي الضلوع فهو « اهضَمَ » . وهو عيب ضار مع قلة قبحه في المنظر .

قال الاصمعي : ما يسبق الحلبة فرس أهضم قط ، فاذا اطمـأن صُلْبه وارتفعت قَطاته فهو« أقعسُ » .فاذا أطمأنتا معا فهو «أبزخ» . فاذا اشرفت احدى وركيه على الاخرى فهو « افرقَ » . فاذا دخلت احدى فهدتي صدره وخرجت الاخرى فهو « ازور » .فـاذا خرجت خاصرتاه فهو « أثجلْ » . فاذا التوى عَسيب ذنبه حتى يبرز بعض باطنه الذي لا شعر عليه فهو « اعصلْ » . فاذا زاد فهو « اكشف » . فاذا عزل ذنبه في احد الجانبين فهو « اعزل » . فاذا افرط تباعد ما بين رجليه فهو « افحج » .فاذا اصطكت ركبتاه وكعباه فهو « اصك » .

وعيوب اخرى يمكن الرجوع اليها في كتب الخيل او كتب اللغة .

ان هذا الاهتمام بالخيل دليل على تداخلها في حياة العربي ، ولذا فقد اهتموا بكل ما يتعلق بها ، ويتصل بحياتها ، فوضعوا الاسماء لاعمارها،وأصواتها،ووضعوا الاسماء لالوانها ، ودوائرها ، وتحجيلها وعيوبها ، وضروب جريها • فقالوا عن الفرس الذي يعض من يدنو منه (عضوضا) • واذا كان لا يثبت لمن اراد القرب منه (نفورا) • واذا كان يجر الرسن ولا يطاوع قائده (جرورا) • واذا لم يرده اللجام عن جريه (جموحا) • واذا امتنع عن المشي ووقف بموضع واحد (حرونا) • وان كان كثير العثار فهو (عثورا)[١٤٠] •

كما كانوا يستعملون لكل حال نوعا من الخيل ، فكانوا يستحبون اناث الخيل في الغارات ، ولما خفي من امور الحرب ، وكانوا يستحبون فحول الخيل في الصفوف والحصون والسير والعسكر ولما ظهر في امور الحرب • وكانوا يستحبون خصيان الخيل في الكمين والطلائع ، لانها اصبر وابقى في الجهد[١٤١] •

السلاح :

لقد عمل العرب على تحسين اسلحتهم سعيا الى المنفعة ، ومحافظة على انفسهم ، ومقارعة لاعدائهم ، وقد جاء اهتمامهم بها للاسباب التي دفعتهم الى الاهتمام بالخيل نفسها • فالسلاح عند العربي موضع تقدير واجلال ، ومثار احترام وتقديس •

ومن الطبيعي ان يتحدث الشعراء الفرسان عن اسلحتهم ، لانها القوة التي يستندون اليها في حياتهم ، والعنصر الاساس الذي تعتمد عليه بطولاتهم ، والاسلحة التي يتحدث عنها الفرسان لا تخرج عن

---

(١٤٠) ابن سيدة : المخصص القسم السادس .

(١٤١) ابن هذيل : حلية الفرسان ص ١٢٩ والنويري في نهاية الارب ٩/٦٦٣ .

نطاق الاسلحة التي عرفها العصر الجاهلي ، سواء أكانت اسلحة هجوم، كالسيف والرمح والقوس والسهم ، أم اسلحة دفاع كالدرع والترس والمغفر والبيضة .

ولم يكن الحديث الذي يتحدث به الشعراء عن هذه الاسلحة حديثا عابرا ، وانما هو حديث المناجاة والاعجاب ، حديث الاهتمام بكل جزء من اجزائها ، وبكل ميزة من ميزاتها . الحديث الذي يصف مضاءها وقوتها ، ويصف عنصرها وجوهرها ، ويتحدث عن حبه لها وقيمتها بالنسبة لحياته .. هذا الحديث الذي كان يخرج من قلبه خالصا دقيقا فيصبح اغنية عذبة يتمثلها في مواضع الشدة ، ويتغنى بها في سوح القتال .

والسلاح عند العربي رمز تنطوي تحته كثير من المعاني ، فرفعه فوق الرأس من أسمى آيات الاحترام ، وتحطيمه يعني الضعة والذلة ، وتسليمه يعني الخضوع والمسكنة . وما كان العربي يتمنى شيئا سوى رمح مدبب وسيف صقيل ، وفرس جرداء ، ودرع سابغة ، فهي عدته في الحياة ، وعماده الذي يعتمد عليه ، وسببه الى العزة والسيادة . قال عامر بن الطفيل[١٤٢] :

انني والذي يَحجُّ له النا س قليل في عامر أمثالي[١٤٣]
يوم لا مال للمحارب في الحر ب سوى نصل اسمر عسّال
ولجام في رأس اجرد كالجذ ع طوال وابيض قصّال[١٤٤]
ودلاص كالنهي ذات فضول ذاك في حلبة الحوادث مالي[١٤٥]

---

(١٤٢) ديوان عامر بن الطفيل ص ١٠٢ .

(١٤٣) الذي يحج اليه الناس : اراد به البيت الحرام .

(١٤٤) الجذع : ساق النخلة . شبه به فرسه في ضموره . القصّال : القطّاع .

(١٤٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة . النهي : الغدير . شبه بريق الدرع ببريقه . ذات فضول : اي زائدة في طولها . الحلبة : الدفعة من الخيل في الرهان خاصة : يقال هو يركض في كل حلبة من حلبات المجد ، ويريد هنا بحلبة الحوادث : اجتماعها عليه .

وقد وصفوا في شعرهم كل ما كانوا يستخدمونه منه ، وتحدثوا عن قيمته لهم في غزواتهم ، بل في حياتهم كلها ، فقد كانوا يرون فيه أهم شيء وأغلى ما يملكون فيها ، وما يخلفونه بعدها فعبدقيس بن خفاف البرجمي يعده للنائبات فيقول[146] :

فاصبحت اعددت للنائبا ت عرضابريئا وعضبا صقيلا[147]
ووقع لسان كحد السنان ورمحا طويل القناة عسولا[148]
وسابقة من جياد الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا
كماء الغدير زفته الدبور يجر المدجج منها فضولا[149]

وعروة يذكر انه لن يخلف بعد موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد فيقول[150] :

وذي أمل يرجو تراثي وان ما يصير له منه غدا لقليل
ومالي مال غير درع ومغفر وابيض من ماء الحديد صقيل
واسمر خطي القناة مثقف واجود عريان السراة طويل

وقد بلغ اهتمام العرب بالسلاح ، انهم كانوا يدفعون بسلاحهم وخيلهم الى ورثتهم الذين يثقون بهم . فعندما علم حجر ملك كنده انه ميت بعد أن طعن طعنة مميتة ، اوصى بان يدفع كتابه الى رجل وقال له : انطلق الى ابني نافع ـ وكان اكبر اولاده ـ فان بكى وجزع فاْلهُ عنه . واستقرهم واحدا واحدا ، حتى تأتي امرأ القيس ـ وكان

---

(146) المفضل الضبي : المفضليات ١٨٦/٢ .
(147) العضب : السيف القاطع .
(148) الرمح العسول : المضطرب للينه .
(149) اراد أن هذه الدروع في صفائها مثل ماء الغدير الذي تصفقه الرياح . الدبور : ريح تهب من المغرب تقابل الصبا ، وخصها لانها شديدة المر تكدر الماء . وزفيها الماء : ان تطرده وتدفعه . المدجج : بفتح الجيم وكسرها : اللابس السلاح التام ، يريد انها سابغة تفضل عن اطرافه .
(150) الاصفهاني : الاغاني ٨٧/٩ دار الكتب .

اصغرهم – فايهم لم يجزع ، فادفع اليه سلاحي وخيلي[151] .

وكان امرؤ القيس يتنقل بين القبائل ، وهو يحتفظ بادراعه الخمسة التي كانوا يتوارثونها ملكا عن ملك .

لقد قدس العربي معداته الحربية ، وعظمها اجل تعظيم ، وعد نفسه غنيا لو ملكها وحدها ، وهي في نظره لا يعدلها مال ولا تدانيها ثروة . لانهم بها كانوا يحافظون على حياتهم ، ويصونون شرفهم ، ويدافعون عن عزتهم ، ويرضون رغبتهم ، ويحققون امانيهم . وكثيرا ما يضطرون لرهن اقواسهم اذا اصابهم امر عظيم ، على ان القيمة لا تكمن في القوس نفسها ، ولكنها تمثل شرف الرجل وهو قائم بما رهنها له مهما كلفه الامر . وقد حفل الادب العربي في العصر الجاهلي بصور شتى لما كان عليه السلاح في ذلك العصر ، وما كان يتمتع به من المكانة. وما تلك المصطلحات العديدة التي تؤلف معجما نادرا عن هذه المعدات، الا دليل اكيد على المكانة المرموقة التي نالتها تلك المعدات . وقد بلغ من اهتمامهم بها انهم وضعوا لكل نوع منها اسماء كثيرة ، تربو في بعضها على المائة . فقد صنفوا في السلاح وانواعه ، واسماء السيوف وصفاتها، والرماح والنبال وترتيبها ، وتفصيل مختلف اوصاف السهام والنصال ، وترتيب اجزاء القوس ، والدروع ونعوتها ، وسائر الاسلحة الاخرى[152] .

لقد كان السلاح في خيمة العربي الى جانب المتاع البسيط الملائم للحياة البدوية ،وهو يضم على أقل تقدير رمحا وسيفا ، لان السلاح عماد حياته ، والمحور الذي يدور حوله كل سلوكه ، فهو مغير أو معرض للغارة ، غاز او متأهب لصد غزو يقع عليه .

---

(١٥١) نفس المصدر ٩/٩٣

(١٥٢) ينظر كتاب السلاح في المخصص جـ ٦ ص ١٦ وادب الكاتب ص ١٥٦ ونهاية الارب جـ٦ ص٢٠ والعقد الفريد جـ١ ص ١٧٩ وفقه اللغة للثعالبي ص ٢٤٨ .

والحياة المصبوغة بالدم ، لا مكان فيها الا للقوي ، ولا مجال في ثناياها الا للفارس الذي يعرف كيف يدافع عن نفسه ،وكيف يرد الغارة عن عشيرته ، وكيف يهجم اذا اضطر الى الهجوم ، واجبر على القتال •

ان ظروف الحياة القاسية تفرض على البدوي أن يجيد الحرب ، ويتقن اساليب القتال ، وان تكون الفروسية هي المثل الاعلى ، والهدف الرفيع الذي يسعى اليه كل مدرك لواقعه ، متحسس بظروف حياته ، وان تكون الشجاعة بكل ضروبها وسيلته الناجعة للوصول الى هـذا الهدف • ولا غرابة بعد هذا في أن يكون التدريب على القتال ، ومعرفة طرق الحرب ، وما يتعلق في ذلك من ممارسة ركوب الخيل ، وتحمل المشاق منذ الصغر ، الاساس الاول في التربية البدوية الذي يحرص عليه الرجال ، ليتمكنوا من احلال الابناء محل الآبـاء في الحرب • وليكونوا الطبقة الثانية من الفرسان التي تتمكن ان تأخذ مكانها في مجتمع القبيلة اذا لزم الامر •

ان الاحاسيس العميقة ، والمشاعر الحية التي كانت تتجاوب في نفس العربي تجاه سلاحه وفرسه،لم تكن من المشاعر العابرةوالاحاسيس الساذجة التي يحسّها الفرد تجاه مطايا لا تعقل ، وحيوانات لاتدرك، وآلات جامدة لا حياة فيها •• وانما على العكس من ذلك • كانت مطاياه وآلاته نفوسا تحس ، وارواحا تشعر • بعايشها بكل حيـاته ، ويناجيها بأعذب الحانه ، ويتسمع لكل همسة تختلج فيها ، ويتلمس كل حركة تحاول التعبير بها ، فتفهم اشاراته ، فيستجيب لها وتستجيب له • كانت قطعا من وجوده ، واعضاء عاملة من اعضائه ، لها اسماؤها المشوقة في حياته ، والقابها المحببة الى نفسه • يدعوها عندما يجد نفسه بحاجة اليها ، ويناجيها حينما يجد الضرورة واجبة في ذلك ، فتستجيب له ، وتلبي الدعوة بكل جوارحها ، فكانت الصلة وثيقة بينهما ، وكـان الاعتزاز السامي بها على اشده • وكان مثار فخر الفارس واعتزازه حينما يعرف بصاحب الصمصامة او ملاعب الاسنة •

وقد اضفى العربي على سيفه معاني الشرف،ومنحه صفةالانسانية، كما فعل مع الخيل . فهو يخاطبه ـ وبقية اسلحته ـ بلسانه ، ويتحرى نسبه وسيرته ومضاءه في الحرب ، وشدته في احتدام المعارك ، ويتعقب ايامه ، باحثا عن انتصاراته ، وكان من عادة العرب انهم اذا اصابوا سيفا قاطعا ، تناقلوا خبره واطروه .

وكما اشتهر وصاف الخيل في الجاهلية فقد عرف ايضا للسلاح وصافون ، فقيل عن اوس بن حجر اوصف الشعراء للسلاح ، ولا سيما القوس[١٥٣] . وكذلك الشنفرى ، كان من اكثر الشعراء وصفا للقوس[١٥٤] . كما كان الشماخ ، من اوصف الشعراء للقوس[١٥٥] . وكما عرفوا وصاف السلاح ، فقد أهتموا بمعرفة القيون الذين كانوا يصنعونه . فوردت اسماؤهم في حديث الشعراء ، فابن مجدع ، قين مشهور بصنع السيوف . كما جاء في بيت اوس بن حجر[١٥٦] :

وذا شطبات قده ابن مجدع　　　له رونق ذريه يتأكل[١٥٧]

وردينه امرأة كانت تقوم الرماح ، وكذلك سمهر وقعضب . ونسبت اليهم الرماح ، فقيل رماح سمهرية ، وردينية[١٥٨] .

كان السيف اقرب الاسلحة الى نفس العربي ، لانه لا يستطيع الاستغناء عنه ، ولانه يستعمله في معظم الاغراض . ومن السيوف التي اشتهرت في الجاهلية ، صمصامة عمرو بن معد يكرب ، حتى ضرب به

---

(١٥٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٥ .
(١٥٤) ديوان الشنفرى ص ٣٨ .
(١٥٥) ابن قتيبة الشعر والشعراء ص ١٠٩ .
(١٥٦) ديوان اوس بن حجر ص ٩٥ .
(١٥٧) الشطبات: جمع شطبة: وهي الطريقة من طرائق السيف.
قده . قطعه وصنعه . وابن مجدع قين مشهور بصنع السيوف . الرونق . ماء السيف وصفاؤه وحسنه . الذري : التلألؤ واللمعان . يتاكل : يبرق ويلمع .
(١٥٨) الجوهري : الصحاح ٢/٢٨٩ ، ٥/٢١٢٢ .

المثل في كرم الجوهر ، وحسن المنظر ، وشدة المضاء .

والسيف من انبل الاسلحة كما ذكرنا ، وقد قدره العرب حق قدره ، فكانوا يستجلبونه من الخارج ، فالسيف الذي يطبع بأرض الهند يقال عنه الهندي ، والمهند ، والهندواني ، وقد وردت هذه الالفاظ في الشعر بكثرة . قال المزرد بن ضرار الغطفاني يصف سلاحه(١٥٩) :

من الملس هنبدي متى يعل حده ذرى البيض لا تسلم عليه الكواهل(١٦٠)
اذا ما عدا العادي به نحو قرنه وقدسامهقولا فدتك المناصل(١٦١)
ألست نقيا لا تليق بك الذرى ولاانتانطالتبكالكف ناكل(١٦٢)
حسام خفيّ الجرس حين تسله صفيحته مما تَنَقّى الصياقل(١٦٣)

وقال سلامة بن جندل يفتخر بما كان من ايام قومه ، وغلبتهم اعداءهم ، ويصف سلاحهم ومطاعنتهم الابطال ومطاولتهم الكر والفر(١٦٤) .

ومجدُ مَعَد كان فوق عَلاَية سبقنا به اذ يرتقون ونرتقي(١٦٥)

---

(١٥٩) ديوان المزرد ص ٤٥ .
(١٦٠) في المفضليات : واملس هندي . من الملس : اي ليس بصدىء ولا كشاش اذا مسسته اي يقد البيض حتى يبري الكواهل ايضا .
(١٦١) سامه : كلفه . فدتك : اي إنك من امثلها وافضلها .
(١٦٢) في المفضليات : الست نقيا ما تليق . الذرى : جمع ذروة وهي اعلى الشيء ، يقال سيف لا يليق شيئا : اي لا يمر بشيء الا قطعه . الناكل : المقصر .
(١٦٣) في المفضليات : عند استلاله . الجرس : الحركة والصوت الخفي ، وانما يخفي جرسه لجودته وسهولته ، وانما سهل لصفاء حديده وخلوصه .
(١٦٤) الاصمعي : الاصمعيات ص ١٥١
(١٦٥) العلاية : الموضع المرتفع .

اذا الهندوانيات كن عُصينـا بها نتأيا كل ساق ومفرق[166]
تُجلّي مصاعا بالسيوف وجوهَنا اذا اعتفرت اقدامنا عند مأزق[167]

وقال حَجْل بن نضلة يفخر بسيفه[168] :

ومهند في متنه حرجية عضب اذا مس الضريبة مِفصَل[169]

اما المشرفية ، فنسبة الى المشارف . وهي قرى معروفة تجلب منها السيوف ، وتطبع فيها ، ويقال هي قرى من ارض العرب تقرب من الريف . او قرى بالشام ، او قرى من ارض اليمن . وقيل هي منسوبة الى مشرف وهو رجل من ثقيف .

قال امرؤ القيس[170] :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كانيات أغوال[171]

وقال راشد بن شهاب اليشكري مهددا قيس بن مسعود ومتوعدا اياه[172] :

---

(١٦٦) الهندوانيات : بكسر الهاء وضمها السيوف المنسوبة الى الهند . الواحد هندواني . العصي : بضم العين وكسرها : جمع عصا . اي اذا كانت سيوفهم بمثابة العصي في إلتزامها . نتأيا : نقصد. يقال « تأيا الشيء » تعمد آيته اي شخصه وآية الرجل : شخصه .

(١٦٧) المصاع : بكسر الميم : المقاتلة والمجالدة بالسيوف . اعتفر : كتعفر بالتراب وانعفر : يريد انهم في المجالدة تشرق وجوههم وتتعفر اقدامهم .

(١٦٨) الاصمعي : الاصمعيات ص ١٥٥ .

(١٦٩) حرجية : آثار دقاق جدا . والمفصل : صيغة مبالغة من

(١٧٠) الديوان ص ٣٣ .

(١٧١) المشرفي : سيف نسب الى قرى بالشام يقال لها المشارف، واراد بالمسنونة الزرق : سهاما محددة الازجة صافية ، وشبهها بانياب الاغوال تشنيعا ومبالغة في وصفها . والاغوال : الشياطين . وانما خص الشياطين لما شاع من عظيم امرهم وكثرة نكرهم .

(١٧٢) المفضل الضبي : المفضليات ١٠٨/٢ . قضم : يكسّر من كثرة ما اضرب به . وقد اسقط الفاء من قوله « معي » في جواب الشرط .

فمهلا أبـا الخنساء لا تشتمننّي فتقرع بعد اليوم سنّك من نَدَمْ
ولا توعدني انني ان تلاقني معي مشرفي في مضاربه قَضَمْ

وقال بشامة بن الغدير[173] :

قومي بنو الحرب العوان بجمعهم والمشرفية والقنا اشعالها[174]

وقال عوف بن الاحوص معترفا بهزيمة قومه ، معللا ذلك بكثرة رجال العدو وهي من المنصفات[175] :

حبت دونهم بكر فلم تستطعهمُ كأنهم بالمشـرفية سـامر[176]

اما السيوف السريجية ، فهي نسبة الى سُريج ، وهو قين كان يعملها . وقيل سمي السيف بالسريجي لكثرة مائه ورونقه ، حتى كأن فيه سراجا[177] . ومنه قيل : سرج الله امرك أي حسنه ونوره .

قال خراشة بن عمرو العبسي يمدح قومه ويفخر بانتصارهم:[178]:

بكل سُريجي جلا القين متنـه رقيق الحواشي يترك الجرح انجلا[179]

وهناك انواع اخرى من السيوف تنسب الى اماكن صنعها ، او

---

(173) ابو تمام : الحماسة : شرح المرزوق ٣٩٥/١ .

(174) والمعنى . قومي بنو الحرب التي عونت ، اي صارت عوانا بهم ، وباجتماع جيشهم . والمراد ، واشتعال نارها بالرماح والسيوف المشرفية .

(175) المفضل الضبي : المفضنيات ١٦٥/٢ .

(176) حبت : دنت . المشرفية : سيوف منسوبة الى المشارف . السامر : القوم يسمرون في الليل ، وهو إسم جامع ويقال للواحد ايضا سامر . يقول : كأن سيوفهم مخاريق سامر يلعبون بها بالليل ويتلهون ويتحدثون غ) مكترثين .

(177) ابو تمام : الحماسة . شرح المرزوقي ٦٦٧/٢ .

(178) المفضل الضبي : المفضليات ٣٠٦/٢ .

(179) سريجي : سيف نسب الى سريج اسم رجل كان صانعا للسيوف . الانجل : الواسع .

الى صناعها ، او الى معادنها ، فاليماني نسبة الى اليمن ، والقلَعي بالتحريك نسبة الى مرج القلعة وهو موضع بالبادية تنسب اليه السيوف القلعية والقُساسي نسبة الى معدن القساس بارمينية[١٨٠] .

كما نسبت جياد السيوف الى بصرى ايضا،قال الحصين بن الحمام المري[١٨١] :

صفائح بصرى اخلصتها قيونها ومطردا من نسج داودمبهما[١٨٢]

والى جانب السيف كان الرمح ، وهو أيضا يضارع السيف رفعة وتعظيما ، ولم تكن اهميته اقل من اهمية السيف بالنسبة للفارس في المعركة ، فهو كثيرا ما يذكر مع السيف . قال عمرو بن كلثوم[١٨٣] :

نطاعن ما تراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف اذا غشينا[١٨٤]

بسمر من قنا الخطيّ لدن ذوابل او ببيض يختلينا[١٨٥]

وقال عنترة[١٨٦] :

فطعنته بالرمح ثم علوته بمهند صافي الحديدة مخذمِ[١٨٧]

---

(١٨٠) الجوهري : الصحاح . تحقيق احمد عبد الغفور عطار ٣/١٢٧٠ .

(١٨١) المفضل الضبي : المفضليات ١/٦٤ .

(١٨٢) صفائح : سيوف عريضة . بُصرى : بلد تنسب اليه جياد السيوف . القين : الحداد . اخلصتها : جاءت بها خالصة من العيوب . والمطرد : المتتابع الذي ليس فيه اختلاف . يريد انها لا فتق فيها ؛ ويريد بها الدروع وهو مما يذكر ويؤنث . المبهم : الذي لا ثلم فيه ولا خرق ، او الذي لا يخالط لونه لون آخر .

(١٨٣) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ص ٣٩٤ .

(١٨٤) غشينا : دنا بعضنا من بعض .

(١٨٥) السمر من الرماح : اجودها . لدن : لينة . ذوابل : فيها بعض اليبس . يقول لم تجف كل الجفاف فتنشق اذا طعن بها وتندق ، ويروى البيت أو ببيض يعتلينا : اي ان هذه الرماح تعلو رؤوس الاعداء .

(١٨٦) الديوان ص ١٥١ .

(١٨٧) مخذم : سريع القطع . يقول طعنته فصرعته ، ثم اجهزت عليه بسيفي المهند .

وقال عمرو بن معد يكرب[188] :

اعـددت للحرب فضفاضـــة دِلاصا تثنى على الراهش[189]
واجـرد مطـردا كالرشـــاء وسيف سلامة ذي فائش[190]

وكما اهتم العرب بانساب السيوف ، اهتموا بانساب الرماح ، وفتشوا عن اصلها فقالوا : رماحا يزنية ، وهي الرماح التي تنسب الى ذي يزن[191] . وخطيه ، وهي الرماح التي تنسب الى الخط . وهو موضع باليمامة[192] او مرفأ السفن بالبحرين .

قال حاتم الطائي[193] :

واســـــمر خطيـــا ، كـأن كعوبـه
نوى القسب قـد ارمى ذراعا على العشر[194]

وقال الاعشى[195] :

ولدن من الخطيّ فيـه أسـنّة ذخائر ممّاسن ابزى وشرعب[196]

---

(188) لاصمعي : الاصمعيات ص ٢٠٣ .

(189) فضفاضة : واسعة يريد الدرع . الدلاص : اللينة البراقة، الملساء . الرواهش : عصب وعروق في باطن الذراع . وقيل في ظاهره ، واحدتها : راهشة وراهش .

(190) الاجرد . عني به الرمح ، قد سويت كعوبـه فاملس . مطرد مستقيم . الرشاء : الحبل ، شبه الرمح في طوله به . وسلامة : اسم رجل . وفائش واد في اليمن كان يحميه .

(191) ابن سيدة : المخصص ٣٣/٦ .

(192) الجوهري : الصحاح ١١٢٣/٣ .

(193) ديوان حاتم ص ٦٦ .

(194) الاسمر : الرمح . الخطي : المنسوب الى الخط . مرفـأ للسفن في البحرين تباع فيه الرماح . كعوبه : عقده . القسب : ضرب من التمر غليظ النوى . شبه كعوب الرمح بنوى هذا التمر في صلابتها. وقوله ارمى ذراعا على العشر ، اي انه لا طويل ولا قصير . فلا يكون مضطربا ولا قاصرا .

(195) ديوان الاعشى الكبير ص ٢٠٥

(196) لدن : مرن . الخطي : الرمح ينسب الى الخط وهو مرفأ

وقالوا رماحا ردينية ، وهي الرماح التي تنسب الى امرأة تسمى ردينة ، كانت تقوّم القنا بخط هجر . وكان زوجها سمهر يقوّم الرماح أيضا ونسب اليه نوع منها[197] . قال أوس بن حجر[198] :

اصم ردينيا كأن كعوبه نوى القسب عراص مزجا منصلا[199]

وقال عميرة بن جُعل[200] :

جمعتُ ردينيا كأن سنانه سنا لهب لم يستعن بدُخان[201]

وقال الحصين بن الحمام[202] :

يهزون سمرا من رماح ردينة اذا حُركت بضّت عواملها دما[203]

وكان الفارس يضفي على رمحه صفة التشخيص كما اضفاها على فرسه وسيفه . قال عنترة[204] :

للسفن بالبحرين كانت تباع فيه ، وليس هو منبتها كما يتوهم . الاسنّة : جمع سنان ، وهو حديدة الرمح المحددة . ذخائر . مدخرة للحرب . سن الرمح : ركب فيه السنان . ابزى وشرعب . رجلان من صناع الرماح .

(197) الصحاح جـ ٢ ص ٦٨٩ وجـ ٥ ص ٢١٢٢ .

(198) ديوان اوس بن حجر ص ٨٣ .

(199) الرمح الاصم : **الرمح المصمت الذي لا جوف له . والرمح** الرديني : منسوب الى ردينة بالتصغير ، وهي امراة كانت تقوم الرماح . وكان زوجها سمهر ايضا يقوم الرماح . يقال لرماحه سمهرية . الكعب : الانبوب ويسمون العقدة كعبا وهو المراد هنا . والقسب : تمر يابس نواه صلب . والعراص : الشديد الاضطراب . المزجى : الذي جعل له زجّ (بضم الزاي وتشديد الجيم) وهي الحديدة التي في اسفل الرمح تغرس في الارض . والمنصل الذي جعل له نصل وهو السنان .

(200) المفضل الضبي : المفضليات ٢/٥٩

(201) الرديني : الرمح . بدخان : اذا لم يستعن بدخان كان اصفى له . شبه السنان في صفائه بصفاء لسان النار .

(202) المفضل الضبي : المفضليات ١/٦٤ .

(203) السمر من الرماح : اصلب من غيرها لانها تنضج في منبتها . بضت : سالت . عامل الرمح : سنانه وقيل ما يلي السنان .

(204) ديوان عنترة ص ١٩ .

تصيح الردينيات في حجبـاتهم صياح العوالي في الثقاف المثقب[٢٠٥]

وقد كانت العرب تذكر القناة الصلبة التي لا تلين ،ولا تقبـل التقويم والتثقيف • لتضرب بها المثل في الخلاف والاباء والامتنـاع ، والتعسر على من يريد اكرامهم ، والتعصب على من يريد تليينهم ، أو الغض منهم • وفي ذلك يقول المساور بن هند[٢٠٦] :

ولنا قناة من ردينـــة صَدقة" زوراء حاملهـا كذلك ازور[٢٠٧]

ويخاطب عمرو بن كلثوم عمرو بن هند في معلقته فيقول[٢٠٨] :

فان قناتنـــا يا عمرو أعيت على الاعداء قبلك ان تلينا[٢٠٩]

أما حديثهم عن صفات الرماح،فهو يدلنا على تفضيلهم الرمح الاصم اللين على الرمح الاجوف •

قال عنترة[٢١٠] :

فظلنـا نكر المشـــرفية فيهم وخرصان لدن السمهري المثقف[٢١١]

وقال عبيد بن الابرص[٢١٢] :

---

(٢٠٥) الحجبات : جمع حجبـــة . وهي حرف الورك وللورك حجبتان يشرفان على الخاصرة . والعوالي : رؤوس القنا او انصافها التي تلي الاسنة . والثقاف : ما تسوى به الرماح . والمثقب : المثقوب ، جعل أصوات الرماح وهي تنفذ في حجباتهم كاصواتها وهي تنفـذ من ثقب الثقاف حين تثقف .

(٢٠٦) ابو تمام : الحماسة : شرح المرزوقي ٤٦٢/١ .

(٢٠٧) الصدقة : الصلبة والمعنى قناتنا لا تستقيم لمقوم وحاملها لا ينقاد لمجتذب .

(٢٠٨) التبريزي شرح القصائد العشر ص ٢٣٨ .

(٢٠٩) اراد بالقناة الاصل اي نحن لا نلين لاحد .

(٢١٠) ديوان عنترة ص ١٠٧ .

(٢١١) المشرفية : السيوف نسبة الى مشارف . والخرصان : الرماح ، الواحد خرص . ولدن : لينة . والسمهري : نسبة الى سمهر زوج ردينة وكانا مثقفين للرماح . والمثقف : المقوم .

(٢١٢) ديوان عبيد ص ٣٢ .

طعنوا بمران الوشيج فما ترى خلف الاسنةغير عرق يشخب[٢١٣]

وقال عنترة[٢١٤] :

واطعن في الهيجا اذا الخيل صدها غداة الصياح السمهري المقصد[٢١٥]

وكان الفرسان يميلون الى الرماح المتوسطة الطول ، حتى يتمكنوا من السيطرة عليه • وقد كان بعضهم يميل الى استعمال الرماح الطويلة كما جاء في قول الاعشى[٢١٦] :

واعـــددت للحرب اوزارهــا رماحا طوالا وخيلا ذكورا[٢١٧]

وكما وضعوا للخيل أسماء ، وللسيوف أسماء فقد وضعوا للرماح اسماء كثيرة • فاذا كان الرمح مضطربا ، فهو (عاسل) • وان كان شديد الاضطراب فهو (عسال) و (عراص) •

واذا كان ليناً فهو (لدن) ، وان كان شديدا فهو (سمهري)[٢١٨] وان كان صلبا لا ينثني فهو (صدق) •

أما القسي فهي من الاسلحة المستخدمة في الحرب • وهي اعواد من الخشب اللين المتين ، تقوس كالهلال ، ويثبت فيها وتر من جلد الابل ترمى به السهام ، واجود انواعها العصفورية •

وقد نسبت القسي الى ماسخ او ماسخة ، وهو قواس ازدي ، ويقال انه اول من عمل القسي عند التحام المعركة[٢١٩] :

---

(٢١٣) المران : الرماح اللدنة . الوشيج : الشجر الذي تصنع منه الرماح . يشخب : يسيل دما .

(٢١٤) ديوان عنترة ص ٤٧ .

(٢١٥) الهيجا : الحرب . والسمهري : الرمح صلب العود . المقصد : المكسر بنصفين حتى يبين ، يريد حين يشتد البأس ، فتنكسر الرماح في صدور الافراس .

(٢١٦) ديوان الاعشى ص ١٢ .

(٢١٧) اوزار الحرب : عدتها .

(٢١٨) وهذا تخريج آخر للسمهري .

(٢١٩) شعر الطفيل الفنوي ص ١٣ .

فما برحوا حتى رأوا في ديارهم لواء كظل الطائر المتقلب[٢٢٠]
رمت عن قسي الماسخي رجالنا بأجودما يبتاع من نبل يثرب[٢٢١]

كما نسبت الى رضوى وهي امرأة مشهورة بصنعها .

وكانت القوس رمز الرجولة ودليل الشرف ، لانها رفيق البدوي ووسيلة عيشه ، وقد بلغت منزلة القوس عند العربي انه اذا اراد ان يلتزم بتنفيذ امر ولم يستطعه رهن قوسه[٢٢٢] ، وحتى في قضايا الديات فهم يرهنونها حتى يتم دفعها ، والى ذلك يشير قراد بن حنش[٢٢٣] :

ونحن رهنا القوس ثمت فوديت بالف على ظهر الفزاري اقرعا

وكان للعرب مهارة عظمى في استخدامها ، لما كانوا عليه من حدة البصر ، فقد جاء في العقد الفريد[٢٢٤] ان العربي كان يستطيع ان يرمي بالنبال فيصيب احدى عيني غزال دون العين الاخرى ، وكان احدهم يعلق ظبيا بشجرة ويرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من اعضائه ، حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطيء واحدة منها .

وقد ترددت أسماء القوس على ألسنة الشعراء في جميع مجالات حياتهم ، وكان الحديث يدور عن صنعها وصناعها ، والخشب الذي تتخذ منه ، وان غلب شجر النبع على جميع الانواع الاخرى التي كانت تصنع منها .

قال ثعلبة بن عمرو العبدي :

وصفراء من نبع سلاح اعدها وابيض قصال الضريبة جائف[٢٢٥]

---

(٢٢٠) اللواء : العلم : يقول رأى اعداؤنا في ديارهم لواءنا .
(٢٢١) الماسخي : رجل نسبت اليه القسي . يبتاع : يشتري .
(٢٢٢) الاصفهاني . الاغاني ١١/١١١ .
(٢٢٣) ابو عبيدة : النقائض ٢/١٦٥ .
(٢٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ص ٦٨ (الطبعة القديمة) .
(٢٢٥) الصفراء : القوس . النبع : شجر تتخذ منه القسي والسهام . القصال : القطاع ، يعني سيفا . الضريبة : المضروبة . الجائف: الذي يبلغ الجوف .

وكما اهتم العرب بالقوس اهتموا بصوتها ، واهتموا بلونها . فهي في ضوء ما وصل الينا من الشعر صفراء دائما ، ولكن الشنفرى يصورها لنا حمراء تارة اخرى فيقول [٢٢٦] :

وباضعة حمر القسي بعثتها ومن يغزُ يغنم مرة ويشمّت [٢٢٧]

والظاهر ان القوس تكون صفراء في اول بريها فاذا كثر استعمالها وطال بها العهد احمر عودها .

اما اصواتها التي كانت تحدثها عند الرمي ، فقد كانت تفتنهم فتنة شديدة ، تبدو في تلك الصور الشعرية التي رسموها ، وتتجسم في الاصوات الحزينة المعولة التي شبهوها بها . قال الشنفرى في لاميته [٢٢٨] :

واني كفاني فَقدَ من ليس جازياً بحسنى ولا في قربه متعلل [٢٢٩]
ثلاثة اصحاب فؤاد مشيع وابيض اصليت وصفراء عيطل [٢٣٠]
هتوف من الملس المتون يزينها رصائع قد نيطت اليها ومحمل [٢٣١]

---

(٢٢٦) المفضل الضبي : المفضليات ١٠٨/١ . وانظر الديوان ص ٣٨ (الطرائف الادبية) .

(٢٢٧) الباضعة : القاطعة . يعني قوما غزاة . حمر القسي غزوا مرة بعد مرة . فاحمرت قسيهم للشمس والمطر . بعثتها : بعثت هؤلاء وغزوت بهم . يشمت : من قولهم : شمته الله اي خيبه ، والشمات بكسر الشين وتخفيف الميم : الخيبة .

(٢٢٨) عجب العجب في شرح لامية العرب ص ١٤ .

(٢٢٩) التعلل : التلهي بالشيء ، يقال فلان يتعلل بكذا اي يتلهى .

(٢٣٠) المشيع : الشجاع المقدام . الاصليت : الصقيل ويجوز ان يكون في معنى مصلت ولهذا يقال سيف مصلت اي مجرد من غمده . الصفراء : اسم للقوس . العيطل : الطويلة العنق .

(٢٣١) الهتف : الصوت . يقال هتفت الحمامة اي صوتت وصاحت ، وقوس هتافه وهتفى اي ذات صوت ، والملاسة ضد الخشونة . اي هذه القوس ملساء لا عقد فيها ولا خشونة ، وتمتين القوس صلابتها ومتن الشيء : صلبه والمتون : الصلبة . نيطت : علقت . والمحمل مثال

اذا زل عنها السـهم حنت كأنها مرزأة عجلى ترن وتعول[٢٣٢]

وقال راشد بن شهاب اليشكري [٢٣٣] :

ونبل قران كالسيور سـلاجم وفرع هتوف لاسقي ولانشم[٢٣٤]

وقال عمرو بن معد يكرب[٢٣٥] :

وذات عداد لهـا ازمـل برتهـا رماة بني وابش[٢٣٦]

وقال أوس بن حجر[٢٣٧]:

فجردها صفراء لا الطول عابهـا ولا قصر اذرى بها فتعطـلا[٢٣٨]

كتوم طلاع الكف لا دون ملئها ولاعجسهاعن موضع الكف افضلا[٢٣٩]

المرجل : علاقة السيف وهو السير الذي يقلده المتقلد وقد سمي عـرق الشجر بذلك . والرصائع : ما يرصع به من جوهر وغيره : اي محلـى بالرصائع ، وهي حلق يحلى بها ، والمراد بهاالسيور التي تزين بها القوس.

(٢٣٢) زل السهم : خرج منها . حنت : صوتت وكذلك حنت الناقة الى ولدها اي صوتت في نزاعها اليه ، والمرزاة التي تعتادها الرزايا، والمعنى ان هذه القوس كثيرة التصويت لكثرة الرمي عنها . عجـلى : مسرعة . وترن : تصوت مأخود من الرنة وهي الصوت . وتعول : ترفـع صوتها بالبكاء .

(٢٣٣) المفضل الضبي : المفضليات ١٠٨/٢ .

(٢٣٤) القران : المتشابهة . السلاجم : الطوال ، الواحد سلجم . الفرع . القوس اخذت من اعلى الغصن . الهتوف : المصوتة . السقي : ما شرب الماء على الانهار من الشجر . النشم : شجر خوار ضعيف .

(٢٣٥) الاصمعي : الاصمعيات ص ٢٠٣ .

(٢٣٦) ذات عداد : يريد القوس ، وعدادها : صوتها ورنينها . وهو صوت الوتر . الازمل : الصوت . وبنو وابش : قبيلـة اشتهرت بكونها ارمى الناس .

(٢٣٧) الديوان ص ٨٨ ــ ٨٩

(٢٣٨) يقول لو كانت قصيرة لتعطلت ، وكانت اصغر من ان يرمى عنها ولم تعب من طول . فتعطل : تترك لا تتخذ قوسا .

(٢٣٩) كتوم : يصف القوس يريد مرتفعة الصوت فسماها كتوما من الاضداد . وقوس طلاع الكف اي ملء الكف ، والعجس : موضع كف الرامي من كبد القوس .

اذا ما تعطوها سمعت لصوتهـا اذا انبضوا عنها نئيما وازملا[240]

وكما اهتم العرب باصوات القسي والوانها ، اهتموا ايضا بصنعها وكيف كانت تعمل ، والشجر الذي تؤخذ منه ، وكيف يتعهدون عوده وهو صغير فيختلفون اليه حتى يصبح صالحا لاتخاذ القسي ، ثم يبدؤن بسقيها ماء لحائها ، وتتم هذه العملية بتقطيع هـذا العود وهو رطب ، ثم يترك في الظل حتى يجف ، ليكون أكثر صلابة . ويصور لنا اوس ابن حجر هذه العملية فيقول[241] :

وصفراء من نبع كأن نذيرهـا اذالم تخفضه عن الوحش افكل[242]
تعلمها في غيلهـا وهي حظوة بواد به نبـع طوال وحثيل[243]
وبانٌ وظيانٌ ورنقٌ وشوحط ألفٌ اثيث ناعم متغيّل[244]
فمظعها حولين ماء لحائهـا تعالى على ظهر العريش وتنزل[245]
فملك بالليط الذي تحت قشـرها كغرقىء بيض كنّه القيض من عل[246]

---

(240) تعاطوها : تناولوها . انبض القوس : جـذب وترهـا لتصوت . النئيم : الصوت الضعيف وصوت القوس وكذلك الازمل . الازمل .

(241) ديوان اوس بن حجر ص 96 .

(242) يصف قوسه . النبع : شجر من تؤخذ منه القسى . نذيرها : صوتها ، الافكل : الرعدة .

(243) يعني انه ابصر عود هذه القوس وهو صغير مثل السهم ، فلم يزل يتعهده ويختلف اليه ، حتى صلح ان يتخذ منـه قوسه . الحظوة : القضيب الصغير ينبت في اصل الشجرة . والغيـل : الشجر الملتف . والنبع والحثيل : من اشجار الجبال .

(244) البان والظيان والرنق والشوحط : من اشجار الجبال . الالف : الملتف : الاثيث : الكثيف المتشابك ، وكذلك المتغيل .

(245) مظعت القوس : اذا سقيتها ماء لحائها . العريش : البيت يقول ترفع عليه بالليل وتنزل بالنهار لئلا تصيبها الشمس فتتفطر .

(246) ملكا : ترك من القشر شيئا يتمالك به ، يكنّه لئلا يبدو قلب القوس . والقيض : قشر البيض الغليظ . والغرقىء : القشر الرقيق

وازعجه ان قيل شـتان ما ترى   اليك وعود من سراءٍ معطل[٢٤٧]

وللشماخ قصيدة طويلة ومشهورة يصف فيهـا قوسه منذ أن كانت قنـاة من نبع الى أن تمت تسويتها وأعدت للرمي[٢٤٨] . وهي قصيدة طويلة نختار منها ما يلي :

قليل التلاد غيرَ قوس واسـهم   كأن الذي يرمي من الوحش تارز[٢٤٩]

مطلا بزرق ما يُداوى رَميُّهـا   وصفراءَ من نبع عليها الجلائز[٢٥٠]

تخيرها القوّاس من فرع ضَالةٍ   لها شذَبٌ من دونها وحواجز[٢٥١]

نمت في مكان كنَّها فاستوت به   فما دونها من غيلها متلاحز[٢٥٢]

فما زال ينجو كـل رطب ويابس   ويَنغل حتى نالها وهو بارز[٢٥٣]

فانحى عليها ذات حد غرابهـا   عدو لاوساط العضاة مشارز[٢٥٤]

---

(٢٤٧) السراء : النبع . معطل : غير صالح .

(٢٤٨) ديوان الشماخ بن ضرار ص ٤٦ وقد اعتبرها ابو زيد القرشي في جمهرته من المشوبات .

(٢٤٩) قليل التلاد : اي لا تلاد له وتارز : اي ميت يابس لا حراك به ، ولا روح له . والمعنى : كان الذي يرمي من الوحش الميت .

(٢٥٠) مطلا : مشرفا بطلله اي شخصه . بزرق : ي برماح زرق . ويداوي : يعالج . ورميها : الذي يرمي بها . وصفراء : أي قوس صفراء . والنبع : شجر اجود ما تتخذ منه القسي . والجلائز : عقبات تلوى على كل موضع من القوس واحدها جلاز وجلازة .

(٢٥١) تخيرها : اختارها . والقواس : الذي يبري القسي . وفرع ضالة : اعلاها والضالة واحـدة الضال : وهو السـدر البري . الشذب : قطع الشجر وقيل قشره . وحواجز : جمع حاجز وهو مـا يحجز بين الشيئين اي هي ممتنعة بما دونها من الاغصان والشذب .

(٢٥٢) كنها : سترها واستوت به : اعتدلت . والغيل بالكسر : الشجر الكثير الملتف الذي ليس بذي شوك . ومتلاحز : متضايق داخل بعضه في بعض .

(٢٥٣) ينجو : يقطع . والرطب : ضد اليابس . وينغل : يدخل تحت الشجر لياخذها . وبارز : ظاهر .

(٢٥٤) نحى : امال . واوساط : جمع وسط . وعضاة : جمـع عضاهة وهي اعظم الشجر . المشارز : المعادي ، اي امال على النبعـة فاسا ذات حد . عدو لاوساط العضاة لانه يعتاد قطعها .

فلما اطمأنت في يديـه رأى غنى ... احاط به وازور عمن يحاوز[٢٥٥]

فمظعهـــا عامين ماء لحائهـــا ... وينظر منهـــا ايها هو غامز[٢٥٦]

اقام الثقافَ والطريدَةَ درأهـــا ... كما قومت ضغن الشموس المهامز[٢٥٧]

فوافى بها أهل المواســم فانبرى ... لها بيّع يُغلى بها السومَ رائز[٢٥٨]

فقال له هل نشتريها فانهـــا ... تباع بما بيع التلاد الحرائز[٢٥٩]

فقال ازار شرعبي واربـــع ... من السيراء او اوق نواجز[٢٦٠]

ثـــان من الكوري حمر كأنهـــا ... من الجمر ما اذكى على النار خابز[٢٦١]

وبردان من خال وتسعون درهما ... على ذاك مقروظ من الجلد ماعز[٢٦٢]

فظل يُنـــاجي نفسه واميرَهـــا ... أيأتي الذي يُعطى بها أم يجاوز[٢٦٣]

---

(٢٥٥) اطمأنت : سكنت؛ واحاط به : من الاحاطة . وازور : مال. المعنى انه لما ظفر بهذه القوس راى انه استغنى عن الناس فازور عن احبابه ومن كان يحتاج اليه .

(٢٥٦) مظعها : قطعها رطبة ثم وضعها بلحائها في الشمس حتى تشرب ماءها لئلا تتصدع وتتشقق ، وقيل مظعها : الانها . وغامز : اسم فاعل . غمز القناة سوى المعوج منها .

(٢٥٧) اقام : اصلح ، والثقاف : ما تسوى به الرماح والقسي . والطريدة : القصبة التي فيها حزة ، توضع على المغازل . ودرؤها : ميلها. والشموس من الخيل : الصعب . والمهامز : جمع مهماز وهي حديدة في مؤخر خف الرائض . المعنى : ان الثقاف إصلح هذه القوس .

(٢٥٨) وافى بها : اتى بها . انبرى لها . اعترض . والبيع من الاضداد للمشتري والبائع . والمراد : الاول . ويغلى بها السوم : يسومها سوما غاليا . ورائز : مجرب لصاحبها ايبيعها ام لا .

(٢٥٩) التلاد : من المال ما ولد عندك وقيل كل مال قديم موروث عن الاباء ، والحرائز من الابل : التي لا تباع نفاسة بها .

(٢٦٠) الازر : الملحفة . والشرعبي : ضرب من البرود . والسيراء : ضرب من البرود ايضا . والنواجز : الحاضرة التي لا مطل فيها .

(٢٦١) الكوري : الذهب المصنوع بالكور بالضم ، وهو مجمرة الحداد . المعنى إنه سامها بهذه الاشياء لنفاستها .

(٢٦٢) الخال : ثياب تصنع باليمن ، وقيل هو موضع باليمن تصنع به الثياب . والمقروظ : الجلد المدبوغ بالقرظ .

(٢٦٣) اميرها : قلبها .

فقالوا له بايع اخاك ولا يكن لك اليوم عن ربح من البيع لاهز[٢٦٤]
فلما شراها فاضت العين عبرةً وفي الصدر حزاز من الوجد حامز[٢٦٥]
وذاق فاعطته من اللين جانبا كفى ولها ان يُغرق السهمَ حاجز[٢٦٦]
اذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى اوجعتها الجنائز[٢٦٧]
هتوف اذا ما خالط الظبي سهمها وان ريع منها اسلمته النواقز[٢٦٨]
كأن عليها زعفرانا تُميرُهُ خوازنُ عطار يمان كوانز[٢٦٩]
اذا سقط الانداء صينت واشعرت حبيرا ولم تُدرج عليها المعاوز[٢٧٠]

وهكذا تتبع الشماخ قوسه منذ ان كانت قناة من نبع ، ممتنعة بما دونها من الاغصان والشذب ، فأمال عليها القواس بفأس ذات حد فظفر بها ، واستغنى عن الناس ، وازور عن احبابه ، وما كان يحتاج اليه ، فقطعها رطبة ، ثم وضعها بلحائها في الشمس حتى تشرب ماءها

---

(٢٦٤) لاهز : دافع اي بع ولا تتأخر .

(٢٦٥) شراها : باعها . وفاضت : سالت . والعبرة : الدمعة . وحزاز : يحز القلب وحامز : شديد . وقيل ممض محرق .

(٢٦٦) ذاق القوس : جذب وترها اختبارا لينظر ما شدتها ، واللين : ضد الصعوبة . والجانب : الناحية . والوله : الحزن . والحاجز : من يجعل السهم حاجزا بينه وبين من يريده . يعني ان من سدد اليه سهم بهذه القوس يتحقق هلاكه .

(٢٦٧) انبضها : جذب وترها لترن . والرامون : جمع رام المعنى اذا جذب الرامون وتر هذه القوس ، صوتت مثل بكاء فاقدة اولادها .

(٢٦٨) النواقز جمع ناقزة وهي قوائمه والمعنى ان هذه القوس تصوت اذا خالط السهم المرمي بها الظبي ، فاذا ريع منها واراد الفرار اسلمته قوائمه ، لانها اصيبت ، فلا يقدر على الجري .

(٢٦٩) كوانز : جمع كانزة يقال كنز المال حفظه . والمعنى ان هذه القوس صفراء اللون .

(٢٧٠) الانداء : جمع ندى وهو المطر والبلل . وصينت : حفظت. وشعرت : البست . وحبيرا : ثوبا ناعما جديدا ، وقيل هو ثوب موشى. ولم تدرج : لم تطو . والمعاوز : جمع معوز والمعنى ان هذه القوس تغطى بالثياب النفيسة اذا سقطت الانداء ، خوفا عليها ان تفسد اوتارها لعزتها على صاحبها .

لئلا تتصدع وتتشقق ، ثم اصلح هذه القوس بآلته التي تسوى بها الرماح والقسي •• واضفى عليها من البرود والسيراء زيادة في تجميلها وتزيينها • ثم جاء بها الى السوق ليعرضها للبيع ، ففاضت دموعه حسرة عليها •

وجاء من يختبرها لينظر ما شدتها ، فوجد انها قوية ، وان من يسدد اليه بهذه القوس يتحقق هلاكه •• وقلبها ثانية ، وجذب وترها لترن فصوتت مثل بكاء الثكلى •• واخيرا فهذه القوس تغطى بالثياب النفيسة اذا سقطت الانداء خوفا عليها ان تفسد اوتارها لعزتها على اصحابها •

وكان الشعراء الجاهليون يكثرون من اوصاف السهام في جميع مراحلها منذ بريها وتركيب الريش فوقها حتى لحظة استخدامها ، وهم في كل تلك العمليات انما يسعون الى غرض واحد ، وهدف مقصود هو اعداد هذه الهدية الى اعدائهم الذين يبغضونهم ليصوبوها الى قلوبهم، وفي ذلك يقول الشنفرى[٢٧١] :

وردت بمأثور يمان وضالة تخيرتها مما اريش وارصف
اركبها في كل احمر غائر وانسج للولدان ما هو مقرف
وتابعت فيه البري حتى تركته يرن اذا انزفته ويزفزف
بكفيّ منها للبغيض عراضة اذا بعت خلا ماله متعرف[٢٧٢]

وقال ذو الاصبع العدواني ناعتا سهامه وريشها :

السيف والرمح والكنانة والنبل جيادا محشورة صنعا
قوّم افواقها وترّصها انبلُ عدوان كلها صنعا
ثم كساها احم اسود قينانا وكان الثلاث والتبعا

هذه هي اشهر اسلحة الهجوم التي اعتمدها العربي في حياته ،

---

(٢٧١) ديوان الشنفرى ص ٣٨

(٢٧٢) وفي الاغاني ٢١/٩٢ مع اختلاف .

وهناك جانب آخر من الاسلحة كان يتوقى فيها هجمات الاعداء ، وهي أسلحه الدفاع ، منها الدروع والبيض والمغافر والترس .

والدرع ثوب ينسج من زرد الحديد ، يلبس في الحرب ، وله اكمام قصيرة تصل الى منتصف الذراع ، ويصنع احيانا من حلقات معدنية صغيرة . متداخل بعضها في بعض .وجرى لبس الدرع على ثوب من النسيج المبطن اشبه بوسادة تحت حلقات المعدن او صفائحه الرفيعة .

وقد شغل وصف الدروع جانبا كبيرا من الشعر الجاهلي ، لانه وقاية الفارس وحاجز الموت عنه ، ووسيلته في الدفاع عن نفسه . قال عمرو بن كلثوم(٢٧٣) :

علينا البيض واليلب اليماني واسياف يقمن وينحنينا(٢٧٤)
علينا كل سابغة دلاص ترى فوق النجاد لها غضونا(٢٧٥)

وقال عامر بن الطفيل(٢٧٥) :
بالباسلين من الكماة عليهم حلق الحديد يزينها السرد.(٢٧٦)

وقد استحب العربي الدروع المضاعفة النسج التي نسجت حلقتين

---

(٢٧٣) التبريزي : شرح القصائد العشر ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٢٧٤) البيض : جمع بيضة الحديد ، واليلب : الدرع وقيل الديباج وقيل ترسة تعمل في اليمن من جلود الابل ، لا يكاد يعمل فيها شيء . ينحنين : اي ينثنين من كثرة الضراب . وقال الاصمعي اليلب : جلود يخرز بعضها الى بعض ، تلبس على الرؤوس خاصة وليست على الاجساد ، وقال ابو عبيدة : هي جلود تعمل منها دروع فتلبس وليست بترسة . وقيل إليلب جلود تلبس تحت الدروع .

(٢٧٥) السابغة : التامة من الدروع . والدلاص : اللينة التي تزل عنها السيوف . والنجاد : حمائل السيف . والغضون : التكسر .

(٢٧٥) الديوان ص ٤٢ .

(٢٧٦) الباسلون : الاشداء والشجعان . والكماة : الواحد كمي : اي يكمي عدوه ، يقمعه . والسرد : تتابع عمل الدرع .

حلقتين ، والتي تغشى القدم والكف والبنان ، قال راشد بن شهاب اليشكري[٢٧٧] :

ومطردٌ الكعبين اسمر عاترٌ وذاتَ قَتير في مواصلها دَرَم[٢٧٨]
مضاعفة جدلاء او حُطميّة تُغشّي بنان المرء والكف والقدم[٢٧٩]

وقال الجميح[٢٨٠] :

مدرّعا ريطةً مضاعفةً كالنهي وفّى سَراره الرهَمُ[٢٨١]

وقال قيس بن الخطيم[٢٨٢] :

فلما رأيت الحرب حربا تجردت لبست مع البردين ثوب المحارب
مضاعفة يغشى الانامل فضلها كأن قتيريها عيون الجنادب[٢٨٣]

وقال بشامة بن عمرو[٢٨٤] :

---

(٢٧٧) المفضل الضبي : المفضليات ٢/١٠٨ – ١٠٩ .

(٢٧٨) المطرد : يعني رمحا اذا هز اضطرب كله واطرد في اضطرابه كاطراد الماء في جريه . العاتر : الصلب . ذات قتير : يعني درعا . والقتير : رؤوس مسامير الدرع . الدرم : الاستواء واراد بمواصلها ما يتصل بالحلقتين .

(٢٧٩) المضاعفة التي نسجت حلقتين حلقتين . الجدلاء : المحكمة . الحطمية : المنسوبة الى حطمه بن محارب بن عبد القيس وكان صانع دروع ويقال انها التي تحطم السيوف .

(٢٨٠) المفضل الضبي : المفضليات ١/ ٤٠ .

(٢٨١) الريطة : الملاءة واراد بالريطة هنا الدرع شبهها بها لصفاء حديدها . المضاعفة التي نسجت من حلقتين حلقتين . النهي بفتح النون وكسرها : الغدير وسراره بالفتح : وسطه . الرهم بكسر ففتح : جمع رهمة بكسر فسكون . المطرة الضعيفة الدائمة . ووفته الرهم : ملأته ، فاذا امتلأ الغدير وضربته الرياح بدت فيه طرائق وصفاء تشبه به الدروع .

(٢٨٢) ديوان قيس بن الخطيم ص ٣٣ .

(٢٨٣) القتير : رؤوس المسامير لحلق الدروع . ويشبه القتير بحدق الاساود وبحدق الجراد .

(٢٨٤) المفضل الضبي : المفضليات ١/ ٥٧ .

ومن نسـج داود موضونـــة ترى للقواضب فيها صليلا[٢٨٥]

وقال ابو قيس بن الاسلت الانصاري[٢٨٦] :

اعددت للاعداء موضونـــة فضفاضة كالنهي بالقـــاع[٢٨٧]

وكانوا يميلون الى لبس الدروع الواسعة السابغة ، التي تفضل عن اطراف الفارس ، والصلبة المتينة التي تتثلم عليها السيوف ، وتتكسر عندها السهام . قال عبد قيس بن خفاف البرجمي يصف قوة درعه واتساعها[٢٨٨] :

وســـابغة من جيـــاد الدرو ع تسمع للسيف فيها صليـــلا
كماء الغـــدير زفته الدبور يَجُرُ المدجج منها فضولا[٢٨٩]

وقال يزيد بن الخذاق يصف درعه[٢٩٠] :

نعد ليوم الروع زغفاً مُفاضـــةً دلاصاوذاغرباحذ ضروسا[٢٩١]

وقال طريف العنبري[٢٩٢] :

---

(٢٨٥) نسج داود : يريد الدروع . الموضونة : التي نسـجت حلقتين حلقتين مضاعفة . القواضب : السيوف القاطعة . الصليل : الصوت على الشيء اليابس . عبر عن السماع بالرؤية توكيدا للمعنى .

(٢٨٦) المفضل الضبي : المفضليات ٢/٨٤

(٢٨٧) الموضونة : التي نسجت حلقتين حلقتين ، يعني الدرع . الفضفاضة : الواسعة . النهي : الغدير .

(٢٨٨) المفضل الضبي : المفضليات ٢/١٨٦ .

(٢٨٩) اراد ان هذه الدرع في صفائها مثل ماء الغدير الذي تصفقه الرياح . الدبور : ريح تهب من المغرب تقابل الصبا ، وخصها لانها شديدة المر تكدر الماء . وزفيها الماء : ان تطرده وتدفعه . المدجج بفتح الجيم وكسرها : اللابس السلاح التام . يريد انها سابغة تفضل عن اطرافه .

(٢٩٠) المفضل الضبي : المفضليات ٢/٩٨ .

(٢٩١) الزغف : الدرع اللينة . المفاضـــة : الواسعة . الدلاص : السهلة . الغرب : الحد واراد بذي الغرب : السيف . الاحذ : الخفيف . الضروس : السيء الخلق في الابل وهو في السيف تشبيه .

(٢٩٢) الاصمعيات ص ١٤٠ .

تحتى الاغر وفوق جلدي نَثْرة" زغف ترد السيف وهو مثلم[٢٩٣]

وقال المزرد اخو الشماخ يفخر بشجاعته ويصف درعه[٢٩٤] :

ومسفوحة فضفاضة تُبعيّـــة وأتها القتير تجتويها المعابل[٢٩٥]
دلاص كظهر النون ما يستطيعها سنان ولا تلك الحِظاء الدواخل[٢٩٦]
موشحة بيضاء حاب حبيكهـا لها حلق بعد الأنامل فاضل[٢٩٧]
مشهرة تُحنى الاصابع نحوها اذا جُمعت يوم الحفاظ القبائل[٢٩٨]
وتسبغةٍ في تركـةٍ حميريةٍ دلا مصةٍ ترفض عنها الجنادل[٢٩٩]

وكما نالت الاسلحة المتقدمة احترام العربي وتقديسه، نالت الدروع نفس الاحترام والاعتزاز ، فكانوا يتوارثونها ، ويحتفظون بها . ولقد روي في أخبار امريء القيس ان عدد الدروع التي ورثها عن ابيـه خمسة ، وهي الفضفاضة والضافية والمحصنة والخريق وام الذيول . وكان بنو آكل المرار يتوارثونها ملكا عن ملك[٣٠٠] . وقد اعتنى بها

---

(٢٩٣) الاغر : فرسه . النثرة : الدرع السلسلة الملبس . الزغف: الدرع اللينة .

(٢٩٤) ديوان المزرد ص ٤٣ .

(٢٩٥) مسفوحة : درع مصبوبة صبا . فضفاضة : واسـعة . واتها . شدتها . والواي من الخيل : الشديد . والقتير: رؤوس المسامير. تجتويها : تنبو عنها لا تستمرؤها . المعابل : اي تضعف عنها كما يضعف الرجل عن الارض الوبيئة .

(٢٩٦) الدلاص : الخلقاء اللينة . والحظاء الدواخل : السهام الصغار يلعب بها الصبيان . كظهر النون : اي كالسمكة في ملاستها .

(٢٩٧) موشحة : فيها طرائق صفر . اي نحاس . الحبيك : الطرائق من النسج . فاضل : زائد يريد انها سابغة .

(٢٩٨) تحنى الاصابع نحوها : يشار اليها لجودتها . الحفاظ : الذب عن المحارم والغضب لها .

(٢٩٩) التسبغة : نسيج يكون من حلق يلبس تحت البيضـة المستديرة . الدلامصة : السهلة اللينة ، واذا لان الحديد كان اجود له . ترفض : تنكسر وتتفرق عنها لصلابتها .

(٣٠٠) الاصفهاني : الاغاني ٩/ ٩٣ .

العربي عناية فائقة ، فكان يجلوها بعد انتهاء المعركة ، ويضعها في اماكن خاصة خشية الصدأ والتلف •

أما البيضة فهي غطاء الرأس الذي تحدث عنه الشعراء ، فامتدحوه وأكثروا من ذكره في أشعارهم • قال عمرو بن معد يكرب يذكر بلاء قومه في الحرب(٣٠١) :

صبحتُهم بيضاء يبرق بيضُها اذا نظرت فيها العيون ازمهرت(٣٠٢)

وكان الفرسان يشدون البيض الى الدروع خشية سقوطها • قال المنخل اليشكري(٣٠٣) :

وفوارس كأوارِ حرَّ النار احلاس الذكور(٣٠٤)
شدوا دوابر بيضهم في كل محكمة القتير(٣٠٥)

واذا طالت الحرب وبعدت ايامها ظل الفارس محتفظا بعدته لا يخلعها ، فتتغير ملامح الفرسان ، وتتبدل الوان اسلحتهم بسبب ما يصيبها من العوارض ، وتبقى البيض على رؤوسهم طوال تلك المدة ، حتى تذهب بشعر رؤوسهم ، قال ابو قيس بن الاسلت(٣٠٦) :

من يذق الحرب يجد طعمها مرا وتحبسه بجعجاع(٣٠٧)
قد حصت البيضة رأسي فما اطعم غمضا غير تهجاع(٣٠٨)

---

(٣٠١) الاصمعي : الاصمعيات ص ١٢٩ .

(٣٠٢) صبحتهم : جئتهم بالكتيبة صباحا . بيضاء يريد كتيبة بيضاء عليها بياض الحديد . بيضها : قلانس الحديد على رؤوسها واحدها بيضة . ازمهرت : احمرت من الغضب .

(٣٠٣) الاصمعي : الاصمعيات ص ٥٤ .

(٣٠٤) الاوار : الوهج . الاحلاس : جمع حلس ، وهو كل شيء ولي ظهر الدابة تحت السرج ونحوه .

(٣٠٥) البيض : قلانس الحديد . ودوابرها : مآخيرها . القتير : مسامير الدروع .

(٣٠٦) المفضليات جـ٢ ص٨٤ .

(٣٠٧) الجعجاع : المحبس في المكان الغليظ او الضيق .

(٣٠٨) حصته : اذهبت شعره ونثرته لطول مكثها على راسه ، ومعنى البيت انه يطيل لبس السلاح ويقل النوم .

وقد تشبه البيض وهي على رؤوس الفرسان ببيض النعام في املاسه وصفائه . قال سلامة بن جندل[٣٠٩] :

كأن النعام باض فوق رؤوسهم بنهي القذاف او بنهي مخفق[٣١٠]

اما الترس فهو من معدات الحرب التي تستعمل للوقاية ، وكانوا يتخذونه من جلود الابل ، لذلك قالوا عنه الاسمر . قال ابو قيس بن الاسلت الانصاري[٣١١] :

صدق حسام وادق حده ومجناء اسمر قراح[٣١٢]

ويشبه الترس وسط المعركة بالشمس في القتام . قال المزرد[٣١٣] :

وجوب يرى كالشمس في طخية الدجى
وابيض رساب الكريهة قاصل[٣١٤]

من هذه النماذج الكثيرة التي لم نطل في سردها ، نستطيع ان نصور الحالة التي كانت تسود المجتمع الجاهلي ، والتي دفعت العرب الى الاهتمام بالسلاح . لانه اصبح ضرورة من ضروريات الحياة ،ومن هنا كانت غاية العربي الحصول على اكبر قدر منه ، ليستطيع مواجهة الحياة ومواجهة ظروفها القاسية .

---

(٣٠٩) الاصمعيات ص ١٤٩ .

(٣١٠) شبه البيض على رؤوسهم ببيض النعام . النهي : الموضع الذي له حاجز ينهي الماء ان يفيض منه ، وقيل هو الغدير . القذاف ومخفق : موضعان .

(٣١١) المفضليات ج ٢ ص ٨٥ .

(٣١٢) الصدق : الصلب . الحسام : القاطع . الوادق : الماضي الحاد : المجنإ : المعطوف ، عنى به الترس وجعله اسمر لانهم كانوا يتخذون الترس من جلود الابل . القراع : الصلب .

(٣١٣) ديوان المزرد ص ٤٤ .

(٣١٤) جوب : ترس . طخية : ظلمة . رساب : اي يرسب عند الكريهة ، اي حين تضرب به الضرائب الشداد .

الفصل الرابع

تقاليد الفروسية

ليس في امكاننا التحدث عن تقاليد الفروسية كنظم قائمة ، أو مؤسسات لها دساتير وقوانين تفرض على منتسبيها شروطا معينة ، وتحملهم واجبات محددة ، وانما هي اخلاق يرثها الابناء عن الآباء ، وقيم اجتماعية وجدت في الجزيرة العربية متسعا لها فانطلقت في رحابها، حتى أصبحت رابطة تضم العرب كلهم في مجالسها • يتدربون عليها ليصبحوا فرسانا ، يدفعون عنهم الذل ، وينتصرون ليكتبوا لهم ولقبائلهم صفحات المجد والخلود ، ويسعون ليحفظوا لتلك القيم والمثل قدسيتها •

فالرجل الجاهلي يشب وهو يحس حاجةالى التدرب على ركوب الخيل ، والقيام بأمورها ، والاستعداد لخوض غمار الحرب ، والتأهب لمقابلة الفرسان ، فهو يقدم في مواضع الاقدام ، ويحجم في مواضع الاحجام ، ولا يدخل موضعا لا يرى له فيه مخرجا •

ومن هنا نجد معاني الفروسية ومثلها متلازمة، لا تذكر منها واحدة الا أردفت ببقيتها ، فالفارس كريم جواد وقت الازمة ، يمنع جاره ويأخذ للحرب عدتها بفرس تُسقى اللبن ، وتسبق حمار الوحش كما جاء في قول عوف بن عطية[1] :

---

(١) المفضل الضبي : المفضليات ٢/٢١٣ .

وقالت كبيشةُ من جهلها : أشيبا قديما وحلما مُعارا
فما زادني الشيب الا ندى اذااستروح المرضعات القُتارا[٢]
أحيي الخليل واعطي الجزيل حياء وافعل فيه اليسارا
وامنع جاري من المجحفات والجارُ ممتنع حيث صارا
واعددت للحرب ملبونةً تُرد على سائسيها الحمارا[٣]

وهذا ربيعة بن مقروم ، يفخر بقومه ، ويصف شدة بأسهم في الحروب ، ويذكر ايامهم ، فيقرن تلك الشجاعة بكرمهم وحمايتهم للمرأة ، وانفاقهم وقت الشدة فيقول[٤] :

وان تسأليني فاني امرؤ أُهين اللئيم واحبو الكريما
وابني المعالي بالمكرمات وأُرضي الخليل واروي النديما
ويحمد بذلي له معتفٍ اذا ذم من يعتفيه اللئيما[٥]
وقومي ، فان انت كذبتني بقولي فاسأل بقومي عليما
أليسوا الذين اذا أزْمةٌ الحت على الناس تنسي الحُلوما[٦]
يُهينون في الحق اموالهم اذا اللزباتُ التحين المُسيما[٧]

والفارس يسعى لكسب الحرب ، ويكتفي بنفوس اعدائه في ميدان الطعان ، ويترفع عن اخذ الاسلاب والغنائم ، وفي ذلك يقول عنترة[٨] :

---

(٢) استروح : تشمم . القتار : ريح الشواء : يريد اشتد الزمان ، وكان القحط ، ولم يطعم احد صاحبه لضيق العيش .
(٣) الملبونة : التي تسقى اللبن .
(٤) المفضل الضبي : المفضليات ١٨١/١ .
(٥) المعتفي : المعرض من غير مسألة .
(٦) الحلوم : العقول .
(٧) اللزَبات : بفتح الزاي . جمع لزْبة بسكونها : وهي القحط . التحين : قشرن يقال لحوت العود ولحيته : اذا قشرت ما عليه من لحائه . المسيم : صاحب الابل والغنم ، اشتق اسمه من السائمة .
(٨) ديوان عنترة : تحقيق عبدالمنعم عبدالرؤوف ص ١٠ .

اذا التقيتُ الاعادي يوم معركة   تركتُ جمعهم المغرورَ ينتهبُ
لي النفوس وللطير اللحوم   وللوحش العظام وللخيــالة السَّلبُ

ويكرر هذا المعنى في معلقته فيقول مخاطبا حبيبته[٩] :

يخبركِ من شهد الوقيعــة انني   اغشى الوغى واعفُّ عند المغنم

والفارس لا يقبل الحياة مازجها الهوان مهما تكن المغريات ، فهي في حلقه غصص وشجى ، قال عنترة[١٠] :

لا تسقني مــاءَ الحياة بذلــة   بل فاسقني بالعز كأس الحنظــل
مــاء الحيــاة بذلة كجهنــم   وجهنم بالعــز اطيبُ منــزل

وقد اتصف قسم من الشعراء الفرسان بعدم الاندفاع وراءالخيال في المبالغة ، لما يصيب اعداءهم في المعركة ، وانما كانوا معتدلين منصفين، يذكرون ما وقع لخصومهم في المعركة وما وقع لقومهم فيها دون تحيز ، ويعترفون لخصومهم بالبأس والنجدة والمروءة ، فلا يــذمونهم ، ولا يجردونهم من صفات الفروسية الحقة،ومن هنا نشأت « المنصفات»التي تحدثنا عنها في غير هذ الموضع .

وكان من عادة الفرسان ألا يقتلوا عيون الاعداء وجواسيسهم الذين يندسون في صفوفهم ليعرفوا اسرارهم ، أو يقفوا على عددهم وعدتهم ، ليرجعوا الى مرسليهم بواضح الاحوال والاخبار ، ولينبؤهم بمبلغ قوتهم واستعدادهم ، والى ذلك يشير عبد الشارق بن عبــد العزى[١١] :

ودسّوا فارســا منهم عِشاءً   فلم نغـدر بفارســهم لدينــا

ومن تقاليد الفروسية ، معاملة الاســرى بالحسنى ، لان همّ الفارس أن تكون معاملته قائمة على الحسنى ، ولا تتســم بالاذلال والاهانة ، لانهم يعتقدون بأن عز الاسير واحترامه يمثل الهدف النبيل ،

---

(٩) نفس المصدر : ص ١٥٠

(١٠) نفس المصدر : ص ١٣٥ .

(١١) ابو تمام : الحماسة . شرح المرزوقي ٤٤٤/١ .

ويصور منتهى الشهامة والسمو الانساني في معاملة شخص يقع تحت رحمة شخص آخر أقوى منه ، ومتمكن عليه ، ولكنه يرفق به ، ويحسن اليه ، وفي ذلك يقول علقمة بن عبدة الفحل يمدح الحرث بن جبلة[١٢] :

وما مثله في الناس الا اسيرُهُ مُدانٍ ولا دان لذاك قريبُ

والفرسان يصرحون باحسانهم الى الاسرى ، لانهم يريدون ان يحسن خصومهم الى اسراهم ، والفارس لا يجوز لنفسه ان ينزع عن الاسيرة حليها أو قلادتها .

أما جز النواصي[١٣] ــ وكان العرب يخيرون الاسير بين الاسر وجز الناصية ــ فكان من النعم التي ينعم بها الفارس على الرجل الشريف اذا وقع اسيرا بين يديه ، وتكون الناصية عند من جزها ، او تحفظ في الكنائن ، لتكون وسيلة من الوسائل التي يفاخر بها الفارس ، ويُقلل من شأن القبيلة التي كان الاسير منها[١٤] :

قال بشر بن ابي خازم الاسدي[١٥] :

فاذ جُزّت نواصي آل بدرٍ فادوها وأسرى في الوثاق
والا فاعلموا إنّا وانتم بُغاة ما حيينا في شقاق

وقالت الخنساء مفتخرة بقومها[١٦] :

جززنا نواصي فرسانهم وكانوا يظنون الا تُجزا
ومن ظن ممن يلاقي الحروب بان لا يُصابَ فقد ظن عجزا

اما الفراسة فقد كانت معروفة بالنسبة للفرسان ، وهذه الفراسة لا تتأتى الا نتيجة التجربة الحربية الطويلة ، والممارسة الفعلية لقيادة

---

(١٢) المفضل الضبي : المفضليات ٢/١٩٦

(١٣) النواصي : جمع ناصية ، وهي الشعر في مقدم الراس فوق الجبهة وجزّها قصّها .

(١٤) ابو عبيدة : النقائض ٢/١٥ ، ٢/١١٥ .

(١٥) ديوان بشر بن ابي خازم ص ١٦٥ .

(١٦) المبرد : الكامل في اللغة والادب ٣/١٢٢٤ .

المعارك . ففي يوم الصلعاء[١٧] عندما غزا دريد بن الصمة غطفان خرجت اليه غطفان ، فقال دريد لصاحبه : ما ترى ؟ قال : ارى خيلا عليها رجال كأنهم الصبيان ، اسنتها عند اذان خيلها . قال : هذه فزارة ثم قال : انظر ما ترى ؟ قال : أرى قوما كأن عليهم ثيابا غمست في الجادي[١٨] . قال : هذه اشجع ثم قال: انظر ما ترى ؟ قال : ارى قوما يهزون رماحهم سوداً يخدون الارض باقدامهم . قال : هذه عبس . اتاكم الموت الزؤام فاثبتوا[١٩] .

وكان منهم من يتخذ له شارات تميزه عن غيره في المعركة ، او علامات يُعرف بها ، كما وقع في يوم تحلاق اللمم ، فقد حلقت بنو بكر يومئذ رؤوسها ، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم، وقد قلدوا كل امرأة ادواة[٢٠] من ماء ، واعطوها هراوة . فاذا مرت على صريع من قبيلتها عرفته من حلاقة لمته فسقته الماء وانعشته ، واذا مرت على رجل من غير قبيلتها ضربته بالهراوة فقتلته ، فكان ذلك من اسباب انتصار بكر على تغلب .

وكان المقاتلون من الفرسان يلبسون الدروع، حماية من الضرب ، وغالبا ما تكون هذه الدروع طويلة واسعة ، يسحبها الفارس سحبا ، وهي احب عندهم لسترها معظم الجسد،فيبدون وهم يرتدونها كالسيول لكثرتها ولما كسبته من لون الحديد . قال عنترة[٢١] :

وسارت رجال" نحو اخرى عليهم الـ حديد كما تمشي الجمال الدوالح[٢٢]
اذا ما مشوا في السابغات حسبتهم سيولا وقد جاشت بهن الاباطح[٢٣]

---

(١٧) الصلعاء : رابية في ديار عظفان .
(١٨) الجادي : الزعفران .
(١٩) إبن عبد ربه : العقد الفريد ١٧٣/٥ .
(٢٠) الادواة : اناء صغير .
(٢١) ديوان عنترة : تحقيق عبدالمنعم عبدالرؤوف ص ٤٧ .
(٢٢) الدوالح : التي تمشي متثاقلة من ثقل ما تحمل .
(٢٣) الدرع السابغة : التي تجرها في الارض او على كعبيك طولا وسعة .

وتعتبر الدرع حياة ثانية لصاحبها ، لانها جلد حديدي فوق جلده، يقيه طعنات الرماح ، وضربات السيوف .

وكان بعض المياسير وكبار القواد يضاعف بين درعين يلبس احدهما فوق الاخرى ، زيادة في الحيطة والتوقي ، كما فعل الحارث بن جبلة الغساني في يوم حليمة ، وفيه يقول علقمة بن عبدة الفحل[٢٤] :

مُظاهِرُ سربالي حديدٍ ، عليهما عقيلا سيوفٍ مخذمٌ ورسوبُ[٢٥]
تخشخش ابـــدانُ الحـــديد عليهمُ
كما خشخشت يَبسَ الحصادِ جَنوبُ[٢٦]

ويروى ان رسول الله (ص) لبس يوم أُحد درعين ظاهر بينهما ، واشترى يزيد بن حاتم ادراعا ، فقال اني لست اشتري ادراعا ، وانما اشتري اعمارا[٢٧] .

وهناك فريق من الفرسان كان يلبس الدرع بلا اكمام ، لتسهيل حركة يديه عند الطعن وخفتهما اثناء القتال ، على ان بعض المبرزين من الابطال كان يعتز بشجاعته ، فيترك الدرع ويحارب حاسراً ، انفةً من أن يقي نفسه بغير سيفه ورمحه ، فالفارس الحق من يعتمد على سيفه دون أي سلاح ، وذلك لخفة حمله ، وسرعة قطعه ، واجهازه على القتيل. يقول قيس بن الخطيم[٢٨] :

---

(٢٤) المفضل الضبي : المفضليات ٢/١٩٤ .

(٢٥) السربال : القميص وعنى به ههنا الدرع . المخذم : القاطع الذي يبين الضريبة ، وكان الحارث يتقلد بسيفين .

(٢٦) الخشخشة : صوت الثوب الحديد اذا لبس . البدن : الدرع من الزرد .

(٢٧) الشمشاطي : كتاب الانوار ومحاسن الاشعار . مخطوط في مكتبة السلطان احمد الثالث باستانبول تحت رقم (٢٣٩٢) .

(٢٨) ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور احمد مطلوب ص ٣٤ .

أجـالدهم يوم الحديقـة حاسـراً
كأن يـدي بالسيف مخراقُ لاعب[٢٩]

وكان بعضهم يتمنطق النطاق في الحرب ليشد به وسطه ، ويعلق به سلاحه .

قال عبيد بن الابرص[٣٠] :
وقـد اترك القرن الـكميّ بصـدره
مشلشلـةٌ فـوق النطـاق تَفوحُ

كما كان البعض الآخر يرتدي الخوذات التي تلتمع فيها القوانس. كما جاء في قول عبيد بن الابرص[٣١] :
شـمٌ كـأن سـنا القوانسِ فوقهم
نارٌ على شـرفِ اليفـاع تَلهّبُ[٣٢].

ولذكر العمائم مواضع . لانها كانت تيجانهم وبها عزهم ، وقـد وردت في اشعارهم كثيراً ، قال اوس بن حجر[٣٣] :
ولما دخلنا تحت فيء رمـاحهم خبطتُ بكفي اطلبُ الارض باللمس
فأبتُ سليماً لم تُمزّق عمامتي ولكنهم بالطعن قد خرّقوا تُرسي

وكانوا يجعلون العمامة لواءً اذا اضطروا لذلك ، فالاحنف بن قيس عندما عقد لعبس بن طلق اللواء نزع عمامته من رأسه فعقدها له[٣٤] . وربما شدوا بالعمائم اوساطهم عند المجهدة ، واذا طالت العقبة،

(٢٩) الحديقة : قرية من اعراض المدينة في طريق مكة كانت بهـا وقعة بين الاوس والخزرج قبل الاسلام . والمخراق : خرقة مفتولة يلعب بها الصبيان .
(٣٠) ديوان عبيد ص ٤٨ .
(٣١) ديوان عبيد ص ٣٣ .
(٣٢) يريد قوانس الخوذات : وهي اوساطها في علاها . اليفاع كل ما ارتفع من الارض .
(٣٣) ديوان اوس بن حجر ص٥٢.
(٣٤) الجاحظ : البيان والتبيين ٣/٩٦ .

ولذلك قال شاعرهم[٣٥] :

دُفعنا اليه وهو كالذيخ خاطباً   نشدُّ على اكبادنا بالعمـــائم[٣٦]

وقال آخر[٣٧] :

خليليّ شدّا لي بفضل عمامتي   على كبدٍ لم يَبْقَ إلا صميمها

وكان من عادة فرسان العرب في المواسم والجموع ، وفي اسواق العرب ، كأيام عُكاظ وذي المجاز وما اشبه ذلك ، التقنّع الا ما كان من ابي سَليط طريف بن تميم احد بني عمرو بن جُندب ، فانه كان لا يتقنع ولا يبالي أن يُثبت عينه جميعُ فرسان العرب ، متحدياً اعداءه ومن يريد اخذ الثأر منه نتيجة اعتداده بنفسه ووثوقه بشجاعته والى ذلك يشير في قوله[٣٨] :

أو كلما وردتْ عُكاظ قبيلةٌ   بَعثوا الي عريفَهم يتوسّـمُ

فتوســموني إنني انا ذاكـمُ   شاكٌ سلاحي في الحوادث مُعْلَمُ

تحتي الاغر وفوق جلدي نثْرةٌ   زَغفٌ ترد السيف وهو مثلّمُ[٣٩]

وربما يعلم الفارس عن نفسه بعلامة ، كمافعل حمزة بن عبدالمطلب يوم بدر فاعلم عن نفسه بريشة نعامة حمراء ، وكان الزبير بن العوام معلما بعمامة صفراء[٤٠]،ولكن الغالب على الفرسان انهم كانوايكرهون ان يُعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم همٌ غيرهم[٤١] .

وكان قسم منهم يرفع علماً في الحرب ليدل على نفسه ومكانه ، وفي ذلك يقول اوس بن حجر[٤٢] :

---

(٣٥) نفس المصدر ٩٦/٣ .
(٣٦) الذيخ : ذكر الضباع .
(٣٧) الجاحظ : البيان والتبيين ٩٦/٣
(٣٨) نفس المصدر ٩٣/٣ .
(٣٩) النثرة : الدرع المتينة .
(٤٠) الجاحظ : البيان والتبيين ٩٣/٣
(٤١) نفس المصدر : ٩٣/٣ .
(٤٢) ديوان اوس بن حجر ص ١٢٢ .

رأتني مَعَدٌّ مُعلِماً فتناذرت   مُبادهتي أمشي براية مُعْلم[٤٣]

وقد امتدحوا البطل الذي يصل سيفه بخطواته ، لان ذلك دليل على فضل جرأته . قال الاخنس التغلبي[٤٤] :

وانقَصُرتاسيافُناكان وَصلُها   خطانا الى القوم الذين نضاربُ

وفي طريقته قال بشامة النهشلي[٤٥] :

اذا الكماةُ تنحّوا ان ينالهم   حَدٌّ الظُبات وصلناها بأيدينا

وربما زاد الفارس في طول رمحه ليخبر عن فضل قوته ، لانه لا يحمل الرمح الخطل منهم الا الشديد الأيّد ، والمدل بفضل قوته ، الذي اذا رآه الفارس في تلك الهيئة هابه وحاد عنه[٤٦] :

والى هذا يشير ربيعة بن مقروم عندما يمدح قومه[٤٧] :

طوال الرماح غداة الصباح   ذوو نجدةٍ يمنعون الحريسا

وكانوا يتخذون الفاظا يسمونها الشعار ، يتنادون بها اثناء المعركة، على أن هذه الالفاظ لم تكن معينة ، وانما هي مصطلحات يتفقون عليها حسب مقتضى الحال .

فكان شعار الاحزاب في غزوة أحد « يا للعزى يا لهبل » ، وكان شعار تنوخ في الحيرة « يا آل عباد الله » . وجعل النبي (ص) لكل من المهاجرين والانصار شعارا . فكان شعار المهاجرين«يا بني عبدالرحمن» وشعار الاوس « يا بني عبيد الله » وشعار الخزرج « يا بني عبدالله »

---

(٤٣) فتناذرت مبادهتي : جعلت مفاجاتي ومقارعتي في الحرب نذرا بينها .

(٤٤) المفضل الضبي : المفضليات ٧/٢ وفي حماسة ابي تمام شرح المرزوقي : خطانا الى اعدائنا فنضارب .

(٤٥) ابو تمام : الحماسة شرح المرزوقي ١٠٨/١ .

(٤٦) الجاحظ : البيان والتبيين ٢٢/٣ . والخطل : الذي يضطرب في يد صاحبه لافراط طوله . والايّد : القوي .

(٤٧) المفضل الضبي : المفضليات ١٨١/١ .

وكان شعار أصحاب رسول الله (ص) يوم أحد « أمت أمت » وكان شعار اصحاب رسول الله (ص) يوم خيبر « يا منصور أمت أمت »[48] .

وكان بعض الفرسان يتخلى عن السلاح ، لان التخلي عنه يُعتبر منتهى الشجاعة وقمة الفروسية .

أما السكوت في الحرب فكان من تقاليدهم التي تعارفوا عليها ، لان ذلك دليلُ رباطة الجأش ، وأما كثرة الصوت والجلبة فهي امارة الفزع ،ولان ذلك يثير الاضطراب في الصفوف،ويوهم العدو بارتباكهم، فيفتح المنافذ في صفوفهم ، وقد اوصى اكثم بن صيفي قومه في يوم الصفقة والكلاب الثاني فقال : اقلّوا الخلاف على امرائكم ، ودعوا كثرة الصياح في الحرب فانه من الفشل[49] .

كما جوزوا للفارس الهروب والفرار من المعركة اذا قدر ان الهروب في محله ، وانه انفع من الثبات . لان النجاة في مثل هذه المواقف ، وبالنسبة لفارس مشهور ، تكون انتصارا للقبيلة كلها .وان كان هذا الفرار يترك أثرا في نفوس الفرسان الآخرين الذين يخزيهم الفرار ، فيظلون في حومة المعركة ينتظرون المصير كما وقع لعبد يغوث ابن وقاص عندما وقع أسيرا في يوم الكلاب الثاني ، ولمّا لم يجد من القتل بدا طلب اليهم أن يطلقوا عن لسانه ـ وكانوا قد شدوا لسانه لئلا يهجوهم ـ ليذم أصحابه ، وينوح على نفسه . فقال[50] :

جزى الله قومي بالكُلاب ملامةً صريحهم والآخرين المواليا[51]

---

(٤٨) ابن هشام : السيرة ٣/١٣ ، ٣/٣٨٣ وجرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ١/٢١٠ .

(٤٩) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١/٢٦١ .

(٥٠) المفضل الضبي : المفضليات ١/١٥٥ .

(٥١) الكلاب : بضم الكاف : يوم الكلاب الثاني وفيه أسر عبد يغوث . صريحهم : خالصهم .

ولو شئتُ نجتني من الخيل نَهدةٌ ترى خلفها الحوَّ الجيادَ تواليا[٥٢]
ولكنني احمي ذمارَ ابيكم وكانَ الرماحُ يختطفن المُحاميا

واذا اراد الفارس ان يعتزل الحرب ويتخلى عن قومه اذا وجدهم على غير حق ، حل وتر قوسه ، ونزع سنان رمحه ، واعتزل بأهله وأقاربه . كما فعل الحارث بن عباد عندما علم بمقتل كليب[٥٣] .

وهكذا يصور لنا الادب الجاهلي تقاليد الفروسية التي عاشها الانسان الجاهلي واضحة جلية ، ويرسم لنا مجموعة القيم الخيرة التي سادت ذلك المجتمع ، وانتشرت بين ابنائه ، فكانت طريقا يسلكه الافراد، ودستورا يهتدون به دون قانون مكتوب .

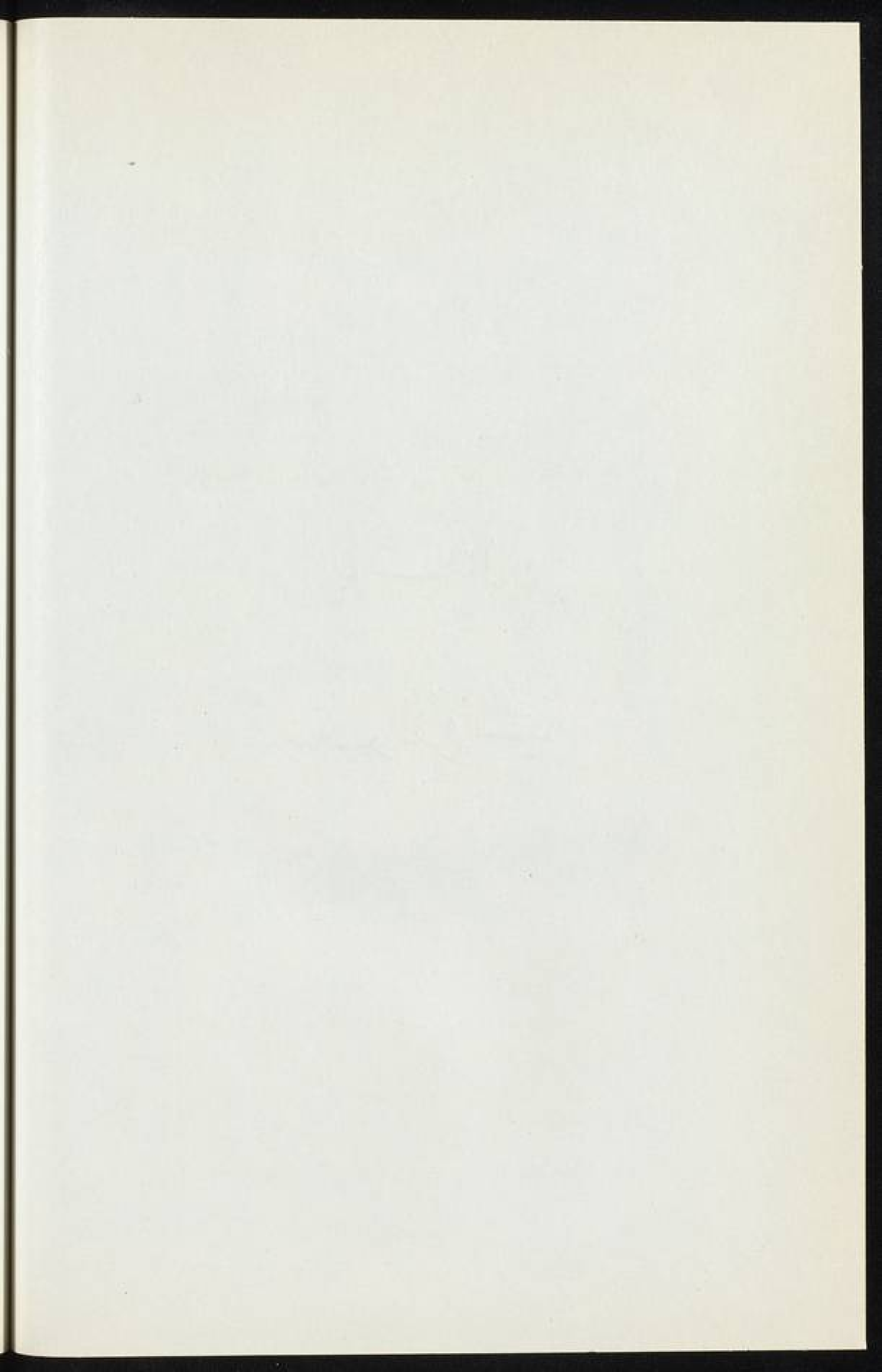
---

(٥٢) النهدة : المرتفعة الخلق . الحوة : الخضرة ، والاحوى من الخيل ما ضرب لونه الى الخضرة .

(٥٣) ابن الاثير : تاريخ الكامل ١/ ٢٢٠ .

الباب الثاني

شِعرُ الفُرُوسِيّة



الفصل الأول

اولية الشعر الجاهلي وقضية الانتحال

لم يعد خافيا على مؤرخي الادب أن الشعر الجاهلي ترجع بدايته الى خسين ومئة عام أو مائتي عام قبل الاسلام . ولم تعد هذه النظرية تجد مجالها في الاوساط العلمية التي تستند على البحث العلمي الدقيق ، وانما الذي تؤكده هذه الاوساط ، وتستطيع أن تطمئن اليه ، هو ان الشعر الجاهلي لم يكن بدائيا الى هذه الدرجة ، بل هو ثمرة ناضجة لمراحل سابقة من تطور الفن الشعري عند قبائل شبه الجزيرة العربية خلال اجيال طويلة ، وان الالتماعات الابداعية الرائعة التي نلمسها في الشعر الجاهلي لدليل ساطع على رقي هذا الشعر ومستواه الفني الرفيع .

كما ان النمو الطبيعي للقصيدة العربية ، بأوزانها وموضوعاتها ومضامينها ، تستدعي أن تكون هذه القصيدة قد مرت بأطوار كثيرة ، تعثرت خلالها تعثرات صعبة ، ووقفت أمام عوائق صلدة حتى كتب لها هذا الاكتمال الشامل . لاننا لو رجعنا الى القصائد الطويلة في الادب الجاهلي،لاحظنا انها تأخذ نمطا معينا في التعبير والاداء . وكأن الشعراء كانوا يحرصون على أسلوب موروث فيها ، وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بأن القصيدة الجاهلية مرت بمراحل معينة ، كانت تقتفي فيها انماطا

تقليدية سائدة ، فهي بذلك تكون أبعد غورا في اعماق التاريخ ، وأكثر ايغالا في ثناياه ، مما صوره لنا البعض ، ورسمته لنا اخيلة النقـــــاد القدامى •

فبلاد العرب لبثت مدة طويلة قوة من القوى العظمى على الارض، لها أعمالها الفكرية الهائلة ، وان الحيوية الدفاقة التي كانت تهـدر في الجزيرة العربية ، كانت ممهدا حاسما للمشعل الحضاري الانساني الذي حملته سواعد العرب ، فكانوا بحق من أكبر رواد الحضارة الانسانية ، ومن أمجد صانعيها •

ان هذه الحيوية الخلاقة ،انطلقتمن العصر الجاهلي الذي طبع الحضارة العربية بطابع خاص متميز ، وان دراسة هذا العصر تستوجب الوقوف طويلا عند دقائقه ، واستقصاء جوانبه ، لانها كونت فيما بعـد الاعمدة الضخمة في بناء الحضارة العربية ، ولانها تحمل ذخرا وافرا من القيم الانسانية الاصيلة ، وما الشعر الجاهلي الا صورة تلك القيم ، والتعبير الصادق عن الحنين الاصيل نحو الحياة الفضلى،فنظرة الانسان الجاهلي الى واقع الحياة والموت،كانت نظرة قوية عنيفة بالنظر لماكانت تعطيه اياه حواسه وقواه الواعية من المعطيات المادية الحية ، فـكان يعيشها بكل حياته ، وقد تمثلت هذه النزعة في الشعر الجاهلي ، وكانت آثار هذه النزعة عميقة وحاسمة في تاريخه • وان قصائد القرن السادس الميلادي الجديرة بالاعجاب ، تنبيء بأنها ثمرة صناعــة طويلة ، لان الشعر ديوان العرب ، تعرض لايامهم وحروبهم، وانسابهم ، ومفاخر القبائل ، وعقائدهم وكل ما له صلة بهم قبل الاسلام •

ولكن الاحداث الخطيرة ، والاضطرابات الجسيمة التيمرت بها جزيرة العرب ، جعلت الحياة السابقة التي مر بها الشعر العربي فياطواره الاولى ، غير واضحة المعالم ، لانصراف الناس الى الحديث عن حاضرهم الذي يعيشونه ، وايامهم التي يحيونها ، والتي شغلتهم بحروبها الكثيرة، وأيامها الدامية ، فكان الشعر صورة للمسائل الـكبيرة التي علقت

بأذهانهم ، وكانت القصائد التي وصلت الينا قصائد نفر معين من الناس يحملون لقب الزعامة والبطولة •

أما الجوانب الاخرى للشعر العربي ، والقصائد التي لم تتحدث عن هذه المسائل ، فلم نعثر عليها ، ولم تنتقل الينا،وبذلك اقطع حاضر القصيدة عن ماضيها ، فحسبها النقاد حديثةالميلاد، لا يرجع مولدها الى أكثر من قرن ونصف قرن ، أو قرنين قبل الاسلام •

ان شعرالمهلهل والشنفرى وتابطشرا لا يدل على الحداثة الاولية، وانما نجد التوافق والتكامل والانسجام قد توفر في شعر هذه الطائفة ، وهذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن هذا النوع من الشعر يمتد الى فترة طويلة ، وانها تدل على تاريخ عريض في هذا الفن •

والشعر الجاهلي يعتبر اصل الشعر الذيانبثق منه الشعر العربي في سائر عصوره ، لانه أرسى عمود الشعر ، وثبت نظام القصيدة، الى جانب ذلك فهو يمثل وفرة من القيم الفنية الاصيلة ، ويشكل مصدرا من مصادر الدراسة ، ويصور لنا النفس العربية في فترة من اصعب فتراتها التاريخية ، يرسمها وهي تجتاز مراحل عسيرة من مراحل نموها وتطورها • ونحن نستطيع ان ندرك هذا التمثيل وتلك الصورة من ثنايا الابيات التي يجمع الثقات على صحتها ، ونستدل على حقائقالحياة في ذلك العصر من الاخبار القصيرة التي احاطت بهذه الفترة ،والاحاديث التي دارت حولها •

والشعر بكل تلك المراحل والاحوال صورة للحياة ، وتعبير صادق عنها ، لتوافر العناصر الحية فيه ، المرتبطة ارتباطا وثيقا بالاصالة والعراقة ، والمتطلعة الى استكمال المقومات الادبية الناضجة •

فصفة الجمال في الشعر الجاهلي تميزه عن غيره من الآداب ، والرقة تتمثل بأظهر وجوهها في الوصف الحي لجمال المرأة ، وتبيين مزاياها ، واصالة الاحساس بجمالها ، وما تتركه في النفس ، وما يبعثه

خيالها ، تتجلى في استجلاء الجمال الطبيعي بكل اشكاله والوانه .

والقصيدة العربية ظلت محافظة على افتتاحيتها الغزلية بصورها المختلفة ، واحاسيسها المتباينة . فوصف الرحيل والنزول ، والبكاء على الطلل ، أصبحت سنة يتبعها الشعراء ، وسابقة يسلكونها في قصائدهم ، وظلت حتى العصور المتأخرة ملازمة للشعر العربي ، متمكنة في نفوس الشعراء .

وقد حفل الشعر الجاهلي بدراسات سليمة لحياة بعض الحيوانات، كالخيل والابل والنعام وبقر الوحش ، فوصفوها بدقة ، واستقصوا دقائقها ، لا سيما ما كان منها نافعا في حياتهم ، أما الشعر الحماسي فقد استنفد معظم الشعر العربي ، وشغل حيزا كبيرا من ديوان العرب ، لان الحياة الجاهلية كانت مليئة بالكفاح البطولي الشاق ، والنوازع الحماسية الصعبة ، مما جعله يواجه مأساة الموت والنهاية بعناد .

ومن هذه النظرة انطلقت طلائع الفرسان الجاهليين ، وانبثقت قيمهم الخيرة تملأ جوانب ذلك الادب العربي ، الذي صور لنا عظمة تلك الحياة ، وما كتب الحماسة الا دليل على الاهتمام بهذا النوع من الشعر . وقد دار الشعر الحماسي حول وصف المعارك ، ووصف اعمال البطولة ، ثم وصف الخيول والابل ، وادوات الحرب ، فخاطبوها مخاطبة الصديق ، وتجاوبوا معها تجاوبا ذاتيا عميقا ، فبرعوا بذلك براعة فائقة ، وصوروها تصويرا حيا نابضا بالحياة ، مليئا بالهول ، فالميادين فسيحة الارجاء ، واصوات الابطال تتعالى ، وقعقعة السلاح ترتفع ، وحمحمة الخيل تتردد ، واحياء العرب في لغط وضوضاء ، يقوم فيها المنادون يدعون الى القتال ، لان الشرف قد ديس ، ولان الدم يطلب الثأر ، أو لان المرعى قد اغتصب ، والمواشي سيقت .

وهكذا كان الجاهليون يصفون الابطال بالشدة والشجاعة والبأس،ويصفونهم بقوة الساعد وصرامة الشكيمة،والعناد في الصدام ،

ورجاحة العقل في الكر والفر ، والحيلة في مواقف الشدة ، والعفة عند تقسيم الغنائم ، والبديهة في المأزق الضيق ، والكرم في كل حال .

أما المجالات الاخرى ، فكانت ميدانا فسيحا للتعبير عنها ، هذه المجالات التي لم يجد فيها الشعراء الفرسان ما كانوا يسعون اليه ، ويقدمون من اجله أعز ما يملكون ، فكانت الشكوى ، وكان الالم ، وكان التبرم بالحياة .

هذه الالوان مازجت شعرهم ، ولونت حياتهم ، فكانت فروسية مشوبة بالالم ، ممزوجة بالشكوى ، مليئة بالفخر والبطولة .

فالشعر الجاهلي يعتبر الاساس الذي نستطيع أن نقيم عليه جميع دراساتنا ، ونبني على مراحله الشعرية احكامنا ، ولا يمكن الحكم على أي أثر فني من الآثار الا باستقصاء الحلقات المتتابعة من الحياة الادبية، وتحليل القسم الذي يعتمد عليه ، او الذي يكون قريبا من الواقع ، وبالتالي اعطاء النتائج المترتبة على كل تلك الدراسات .

وطبيعي أن يسود الاضطراب هذا الهيكل القديم ، وتدور حوله الاحاديث ، ويخوض الادباء غمار جدال طويل ، في صحته أو عدم صحته ، وقد بينا في الصفحات الاتية جزءا مما دار حول ذلك .

قضيـــة الانتحال

لقد ورثنا عن الفروسية الجاهلية شعرا حماسيا كثيرا ، تحدث فيه الفرسان عن معاركهم التي خاضوها ، وبطولاتهم التي أبدوها ، فصوروا البسالة والاقدام ، ورسموا لنا الجوانب الحية التي عاشوها خـلال المعركة ، وتغنوا بانتصاراتهم على خصومهم ، ويمثل هـذا الشـعر القسم الاكبر مما وصل الينا من الشعر الجاهلي • ولا غرابة في ذلك، فالحياة الجاهلية ــ كما اسلفنا في الفصول السابقة ــ كانت حربـــا مستمرة ، وقتالاً دائما ، لا يتذوق العربي فيـه طعم الاسـتقرار الا أشهرا معدودة • وحتى هذه الاشهر كانت لا تسلم من الحرب في بعض الاحيان •

ان هذا الشعر الذي وصل الينا يصور الفضائل الجاهليـة التي تعارف عليها القوم ، واصبحت طبيعة من حياتهم ، واخص هذه الفضائل الفروسية • لانها تصوير دقيق لما يعانيه الفارس ساعة المعركة ، وتعبير تجريبي لواقعة يخوضها فيبسط فيها ارق مشاعره ، واعنف اعماله ، مستقصيا كل حركة من حركات جواده الذي اصبح بضعة من نفسه، او متتبعا كل امارة من امارات اعدائه ، او متحدثا عن نفسه بكل مايدعو الى الفخر والاعتزاز •

لذا أصبح الفخر والحماسة والهجاء والرثاء من أبرز مواضيع شعر الفروسية •

على أن معظم المصنفات التي ألفت في تراجم الشعر وطبقاتهم ، كانت تؤلف على أساس شهرة هؤلاء المترجم لهم ، ومـدى معرفتهم بالنسبة لاهل الادب، او من الذين يحتج بشعرهم لاثبات قاعدة نحوية، او لفظة غريبة ، أو لغة شاذة • وقد حملت على هذه المجاميع أحاديث شتى ، وقصائد موضوعة ، وابيات لم يعرف قائلوها •

أما اولئك المغمورون الذين طمرت اسماؤهم ،وخفيت أخبارهم، فلم يجدوا في هذه المجاميع مجالا ، او اشارة لادبهم فطويت صفحتهم، وكتب عليهم النسيان . الا أسماء تتردد في مظان الكتب ، مذيلة بأبيات من الشعر لا تميز صاحبها ، ولا توضح شخصيته . وقد أحصيت في جزء واحد من كتاب ما يزيد على عشرين شاعرا ذيلت اسماؤهم بعبارة لم أعرفه ، أو لم اجد له ترجمة ، أو لم أعرف له ترجمة . ولا ادري كيف يكون ذلك مع ان محقق الكتاب من أعلام التحقيق في العالم العربي ، ومن اكثرهم ادراكا وعلما للقضايا الادبية العربية القديمة[1] .

هذه حقيقة ثابتة لا يمكن النقاش فيها ، فما وصل الينا من الشعر الجاهلي لا يتكافأ بأي حال من الاحوال مع كثرة الشعراء الجاهليين ، ومع الفترة الزمنية التي عاشوها ، ومرد ذلك يعود الى ضياع القسم الاكبر من هذا التراث واندثاره .

وقد أدرك القدماء هذه الحقيقة ، فقال ابن سلام نقلا عن أبي عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولوجاءكم وافرا ، لجاءكم علم وشعر كثير[2] .

ومن هذا نستطيع ان نقول : ان المشكلة التي تواجه الباحث في هذه الفترة هي أين يجد شعر هذه الفترة ؟ واين المصادر التي يمكن الاعتماد عليها لدراستها ؟ واحسب ذلك من المسائل الاولى التي تقف حائلا امام الباحثين ، وتكاد تصرف البعض منهم عن هذه الدراسة .

---

(١) الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش واخبارها ، شرح وتحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر الجزء الاول . تنظر الصفحات : ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤، ١٩٦ ، ٢٩٤ .

(٢) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ١٧ . مطبعة السعادة.

أما الملاحظة الثانية التي تقف في هــذا المجال ، وتكاد تسد على الباحث الطريق ، فهي نظرية الشك في الادب الجــاهلي ، وان تكن مسألة الشك ليست من المسائل الجديدة في عالم الادب ، وانما تمتد جذورها الى اصول عميقة ، ولكنها لم تصل الى ما وصلت اليه فيعصرنا الحاضر .

ولا نريد ان نعيد المناقشات في هذه المسألة ، والجدل الطويل الذي جرى بين أنصار الشك من جهة ، وبين المدافعين عن الادب من جهة أخرى ، لان الحديث في ذلك اصبح ضربا من التكرار . ولكننـــا سنكتفي ببعض الاشارات بقدر ما يتعلق الامر بهذه الدراسة ، التي تعتمد على الشعر الجاهلي اساسا لبحثها ، ومحورا تدور عليــه ، ثم نرجع الى مصادر الشعر الجاهلي لنتحدث عن أهميتها بالنسبة للبحث ، وقيمتها التاريخية ، أدلة تدفع عن الادب فرية ابتلى بها ، وتهمة حملت عليه حملا .

فالانتحــال من الظواهر الادبيــة العــامة التي تعرضت لهــا كثير من الآداب ، وكما عرف الادب الجاهلي هذه العملية ، فقد عرفتها العصور الاخرى ، وكما عانى الادب هذه الظاهرة ، فقد عانتهــــا العلوم الاخرى . كالحديث ، والانساب ، والاخبار ، والتاريخ .

ومشكلة الانتحال هذه بحثت بحثا كثيرا،وعالجها علماء كثيرون، والواقع انها مشكلة عسيرة ودقيقة . على أن بحثها قدبولغ فيه،وحمّلت النصوص اكثر مما تتحمل ، واصبح الخبر الواحد قاعدة عامة ، قيست عليها كثير من القواعد . وغدت الحالة الفردية نظريــة شاملة ، عمت الادب كله .

لقد عرف القدماء ذلك ، وميزوا بين ما يقوله الانسان وما يدعيه. ففي الاخبار ، أن عروة بن الزبير وعبيد الله بن عتبة بن مسعود دخلا على عمر بن عبدالعزيز وهو يومئذ امير المدينة ، فجرى بينهم الحديث،

حتى قال عروة في شيء جرى من ذكر عائشة وابن الزبير : سمعت عائشة تقول ما أحببت أحدا حُبّي عبدالله بن الزبير . لا أعني رسول الله (ص) ولا أبوي ، فقال له عمر : انكم لتنحلون عائشة لابن الزبير انتحال من لا يرى لاحد معه فيها نصيبا فاستعاده لها .

وقال ابن هرمة :

ولم أتنحل الاشعار فيها   ولم تعجزني المدح الجياد[٣]

على ان الرواة والعلماء قد تنبهوا الى أمر النحل في روايتهم ،فقد ذكر أبو عمرو بن العلاء ، أن القصيدة المنسوبة الى امريء القيس ، والتي مطلعها :

لا وأبيك ابنة العامر   يّ لا يدّعي القوم أني أفر

هي لرجل من أولاد النمر بن قاسط ، يقال له ربيعة بن جشم[٤]، كما ان بعض الرواة قد أنكروا ما اضيف الى قصيدة الحارث بن عباد « قربا مربط النعامة مني » ولم يصححوا منها غير أبيات ثلاثة فقط[٥] ، ويدفع أكثر الرواة أن يكون مطلع معلقة عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم[٦]

ومما يذكر ان الاصمعي ، قال : أقمت بالمدينة زمانا ما رأيت بها قصيدة صحيحة الا مصحفة أو مصنوعة[٧] .

ومن بين هؤلاء العلماء يبرز ابن سلام الجمحي،الذي يعد أكثرهم اهتماما بهذه الناحية ، ويعتبر كتابه من أول الكتب التي أثارت مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي ، وقد نص ابن سلام على ان في الشعر

---

(٣) لسان العرب مادة نحل .
(٤) البغدادي : خزانة الادب ٣٣٧/١ .
(٥) الاصفهاني : الاغاني ٤٨/٤٧/٥ .
(٦) نفس المصدر : ٢٢٢/٩ دار الكتب .
(٧) السيوطي : المزهر ٤١٣/٢ .

المسموع مفتعلا موضوعا كثيرا لا خير فيه[٨] .

كما طعن في رواية محمد بن اسحاق ، وما صنعه في السيرة ،فقال عنه : انه « ممن أفسد الشعر وهجنه ، وحمل كل غثاء منه،فقبل الناس عنه الاشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك عذرا ، فكتب في السير أشعار الرجال ، الذين لم يقولوا شعرا قط ، واشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم اشعارا كثيرة ، وليس بشعر ، انما هو كلام مؤلف معقود بقواف[٩] .

وابن سلام نفسه يحاجّ محمد بن اسحاق فيقول : « أفلا يرجع الى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين ؟[١٠]

ووصف حمادا الراوية بأنه ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الاشعار[١١] .

وقد شك ابن سلام في شعر كثير من الشعراء ، واعتبر كثيرا مما روي لهم محمولا عليهم ، فشك في شعر عبيد بن الابرص . وقال عن شعره : انه مضطرب ذاهب ، لا اعرف له الا قوله[١٢] :

اقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

وقال عن عدى بن زيد انه كان يسكن الحيرة ويراكز الريف[١٣] فلانَ لسانه ، وسهل منطقه فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد . واضطرب فيه خلف ، وخالط فيه المفضل[١٤] . وقال عن حسان : بأنه

---

(٨) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٦ طبع السعادة .
(٩) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٧ طبع السعادة .
(١٠) نفس المصدر ص ٨ .
(١١) نفس المصدر ص ٢٤
(١٢) نفس المصدر ص ٥٠ .
(١٣) ولعلها مراكز الريف .
(١٤) نفس المصدر ص ٥١ .

حمل عليه ما لم يحمل على أحد[١٥] .

فمن هذا نستطيع أن نقول ان القدماء قد ادركوا هذه الظاهرة ، وميزوا مواضعها ، وعرفوا الاماكن التي يحتمل ان يتسرب اليها الشك. مستندين على روايات موثوق بها ، أو نظرات يصحبها ذوق سليم . كما ان شكهم في قصيدة او قصائد من شعر شاعر ، لا يجعلونه وسيلة الى انكار كل ما يضاف اليه ، أو يذهبون به الى ان هذا الشعر الذي يعزى الى الجاهليين ليس من الجاهليين في شيء .

وأهل العلم يعرفون الشعر الصحيح ، نتيجة كثرة المدارسة . وقد استشهد بقسم كبير منه على كثير من القضايا النحوية ، واستدل بهذه الشواهد على قضايا كبيرة . والمعروف في ذلك ان اوائل النحاة قد عاشوا في اواسط القرن الثاني الهجري وان الخليل بن احمد نفسه قد استدل بأبيات من الشعر الجاهلي في اثبات العروض ، فاذا كان الوضع واقعا في نهاية العصر الاموي ، كان معنى ذلك انه قد وقع في عصر واضعي النحو وجامعي اللغة ، ولا يعقل ذلك.لان واضعي النحو لا يمكن ان ينطلي عليهم مثل هذا التزوير . واذا كان الوضع قد تأخر عن هذا التاريخ ، كان الحكم على النحو والبلاغة والعروض وكل العلوم الاخرى غير واقع لانها لم تخلق .

والحقيقة الواضحة في هذا الموضوع ، هي ان الشعر الجاهلي لم يكن مجموعة من القوالب الجامدة التي نظمت في وقت التلهية ، ولا صناعة مفتعلة صيغت من قبل جماعة أخذت على عاتقها تزييف الشعر وانتحاله لعوامل آنية ، وانما هو أكبر من ذلك كله ، لانه يمثل القيم الحقيقية التي تميزت بها حياة الامة ، والمثل السامية التي ضحت من أجلها المجتمعات ، فكان النموذج الحي لتلك القيم والمثل ، والصورة الصحيحة لهذه الحياة الشاملة بكل ما تتضمن من جوانب .

---

(١٥) نفس المصدر ص ٨٤ .

ان مفهوم الشعر الجاهلي يتضح في تلك المجاميع التي اتفق المؤرخون على صحتها ، وأجمع النقاد على صدقها ، وليس في تلك المجاميع الهزيلة التي استبعدها النقاد من مجموعة الشعر ، ودللوا على عدم صحتها بمعاييرهم العلمية ، وهو متهيء لكل من وهب الفهم الصحيح ، والتفكير العلمي البناء ، والقابلية الحقة على تمييزه .

ثم جاء المستشرقون فحمّلوا نظرية الشك في الشعر الجاهلي أكثر مما تحتمل ، وروجوا لها بكل ما يستطيعون من وسائل ، وابدوا في ذلك آراء شتى ، ولكن هذه الآراء جميعها تتلخص في أنه لا يمكن التسليم بصحة الشعر الجاهلي بصورة عامة ، وانما يمكن التسليم بأن عددا قليلا من هذه القصائد يمكن التسليم بصحتها . ومن هؤلاء نولدكه وآلورد وموير وماسيه وبروكلمان وبلاشير[١٦] .

وكان مرجليوث على رأس هذه الحملة ، وأكبر من أثاروا هذه القضية في مقالاته وبحوثه التي نشرها ، وقد اعتمد على نفي الرواية التي حفظت لنا الشعر الجاهلي ، وسلم بوسيلة أخرى هي الكتابة ، ثم عاد الى نفي الكتابة في العصر الجاهلي ليؤكد انه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن ، ثم يقف ازاء الرواة المشكوك في صحة روايتهم ليزعم ان الوضع في هذا الشعر كان مستمرا ، ثم يتعرض الى نقطة اخرى وهي اللغة فيقول : ان اللغة ذات وحدة ظاهرة ، وهي نفس لغة القرآن . ويقول : ان هذا الشعر لو كان صحيحا لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية ، وهذا نفس المذهب الذي سلكه الدكتور طه حسين أيضا في نفيه للشعر الجاهلي ، وقد رد معظم الذين تعرضوا للرد على هذه النظرية بما يكفي ، ويتلخص ردهم في هذه النقطة ، بأن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة في الجاهلية ، وان الشعراء كانوا ينظمون بها ، وانها كانت لهجة قريش ، ولسيادة هذه اللغة أسباب تتعلق بمركز

---

(١٦) شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص ١٦٦ .

قريش السياسي والتجاري والديني •• وهذا ما يمثله العصر الحاضر تماما • فالشاعر ينظم باللغة الفصحى مهما كانت لهجته التي يتكلمها•• ومتى ما ادركنا ذلك فليست هناك مشكلة يمكن ان نبني عليها حكما نريده نحن ولا يريده المنطق العلمي •

وقد رد ليال على دعوة مرجليوث هذه ردا منطقيا سليما وقال : « ان الاستاذ مرغليوث يذهب مذهبا يدعو الى الدهشة والعجب ، وهو قوله ان الشعر القديم هو في معظمه موضوع منحول صيغ على نمط القرآن » •

ولا نريد بعد هذا ان نتطرق الى مناقشة الادلة التي استند اليها هذا المستشرق في نظريته المذكورة[17] او نتحدث عن آرائه في هذه الفترة الادبية من تاريخ العرب ، لان ذلك اصبح من بديهيات الادب •

وجاء الدكتور طه حسين فشك في الشعر الجاهلي ، وأظهر رأيه كنظرية جديدة في عالم الادب،وبالغ فيها حتى نفى وجودبعض الشعراء، لا من جهة شاعريتهم فحسب ، بل من جهة كيانهم ايضا •

فالدكتور طه حسين أراد ان يقلد مرجليوث أو غيره من الاوربيين والمستشرقين ، وهو لم يتبع طريقة القدماء في نقده للشعر ، وانما تتلخص طريقته في أن الشعر الجاهلي كذب • ويجب أن يرد كله ويحكم عليه بالكذب والصنعة • وهي طريقة لو اتبعت فيما وصل الينا من الاخبار والروايات لانقطعت الصلة بيننا وبين اسلافنا •

وقد لخص الدكتور آراءه في كتابه في الادب الجاهلي ، فأنكر ما روي من الشعر الجاهلي ، لانه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين •

كما اعتمد أيضا على ان هذا الشعر لا يمثل اللغة العربية في العصر

---

(١٧) مجلة الجمعية الملكية الاسيوية ١٩٢٥ •

الذي يزعم الرواة انه نظم فيه ، كما لا يصح نسبته الى الجاهلية . ولكنه لم يوضح لنا الاختلافات الجوهرية بين لغة الشعر ولغة الوقت الذي قيل فيه . وحاول ان يثبت الخلاف بين الحميرية والعدنانية بما نقله محرفا عن أبي عمرو بن العلا[18] . لان المنقول عن أبي عمرو بن العلاء هو ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا، مخالف لما بنى عليه حكمه ، لان الخلاف لا يخرجهما عن كونهما لهجتين للغة واحدة .

والدكتور في كل ذلك يذكر الواقعة ويلحق بها ألف واقعة ، ويذكر بضعة أشخاص ويجعلهم مثال الامة ، وعلى هذه الطريقة بنى حكمه واعتمد كتابه .

وقد حاول التدليل على رأيه بكل ما يستطيع من السبل ،حتى لو أدى ذلك الى تغيير عبارات المتقدمين من المؤرخين ليثبت رأيا يريده ، ويؤكد حكما حاول اثباته . فمن ذلك ما نقله عن ابن سلام من انه قال: « ان قريشا كانت أقل العرب شعرا في الجاهلية ، فاضطرها ذلك الى أن تكون أكثر العرب انتحالا للشعر في الاسلام[19] . ومع ان نص ابن سلام هو « اخبرني بعض أهل العلم من اهل المدينة ان قدامة بن موسى ابن عمر بن قدامة بن مظعون الجمحي قالها ونحلها أبا سفيان ،وقريش تزيد في اشعارها تريد بذلك الانصار والرد على حسان[20] .

وخلف الاحمر الذي اتخذه الدكتور دليلا آخر من أدلته التي أستند اليها ، معتمدا على جزء من رواية أبن سلام فيه ، فقد قال ابن سلام في وصفه خلفا : « اجمع اصحابنا انه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا ، كنا لا نبالي اذا اخذنا عنه خبرا او انشدنا شعرا ان

---

(١٨) طه حسين : في الادب الجاهلي ص ٨٠ .
(١٩) نفس المصدر ص ١٣٢ .
(٢٠) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٦٢ طبع دار المعارف

لا نسمعه من صاحبه[٢١] » • هذه عبارة ابن سلام •• يأتي الدكتور طه حسين فيقول : « وأما خلف فكلام الناس فيه في كذبه كثير ، وابن سلام ينبئنا بأنه كان أفرس الناس ببيت الشعر[٢٢] • فيجوز لنفسه هذا الاقتطاع ، ويبني عليه أحكامه ، والجملة بهذا الشكل تحتمل اوجها عدة ، منها القدرة على نقد الشعر وتمييزه ، ومنها القدرة على الاختلاق والوضع •• الا ان بقية نص ابن سلام ، يحدد لنا المعنى المطلوب الذي اراده ، وهو عكس ما أراده الدكتور ، على أن معنى (الفرس) صار ذا رأي وعلم بالامور والفارس العالم •

ثم ينتقل الدكتور الى راوية آخر هو أبو عمرو الشيباني فيقول فيه : « وهناك راوية كوفي لم يكن أقل حظا من صاحبيه هذين في الكذب والانتحال[٢٣] • وهكذا يستمر الدكتور في بناء احكامه ويسوق حججه التي يشيد عليها آراءه •

وفي حديثه عن اسباب انتحال الشعر من حيث الرواة تطرق الى حماد ، وذكر في ذلك رواية « ان المهدي ــ الخليفة العباسي ــ أمر حاجبه فأعلن في الناس انه يبطل رواية حماد[٢٤] • أما نص الرواية التي رواها صاحب الاغاني فهي :

« انهم كانوا في دار امير المؤمنين المهدي (بعيساباذ) ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها واشعارها ولغاتها ، اذ خرج بعض اصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبي الراوية فدخل ، فمكث مليا ثم خرج الينا ومعه حماد والمفضل جميعا وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، خرج حسين الخادم معهما ، فقال يا معشر من حضر من اهل العلم : ان أمير

(٢١) نفس المصدر ص ٢١ •
(٢٢) طه حسين : في الادب الجاهلي ص ١٧٨ •
(٢٣) نفس المصدر ص ١٧٩ •

المؤمنين يعلمكم انه قد وصل حمادا الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وابطل روايته لزيادته في اشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفا لصدقه وصحة روايته ، فمن اراد ان يسمع شعرا جيدا محدثا فليسمع حمادا ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل[٢٥] .

وقبل أن نتطرق الى مناقشة هذا النص ، فالحادثة يداخلها الشك لامور كثيرة ، منها ان القصر شيد بعد تولي المهدي سنة ١٥٨ هجرية ، فقد ذكر في تاريخ الطبري ان المهدي بنى قصره سنة ١٦٤ وسماه قصر السلامة ، والمناقشة بين المفضل وحماد حدثت قبل ذلك ، لان حمادا كان في عداد الاموات عند تولي المهدي الخلافة . فابن خلكان يذكر ان وفاة حماد كانت في سنة ١٥٥ ، وابن النديم يذكر انها كانت في سنة ١٥٦ ، والمهدي تقلد الخلافة سنة ١٥٨ ، فالى أي مدى يمكن تصديق هذه الاخبار .

واذا سلمنا جدلا بصحة هذه المناقشة فلم اعتبر الدكتور هذا الاعلان دليلا على تجريح حماد ولم يعتبره دليلا على تصديق المفضل الضبي . وهو من خيرة اهل الكوفة ، وانه صاحب المفضليات التي تعتبر من روائع الشعر الجاهلي ، والتي تضم مائة وثلاثين قصيدة تشتمل على الفين وستمائة واربعة وستين بيتا ، وان المفضل نفسه كان يتهم حمادا ويشك في روايته .

أما بالنسبة للرواة فقد ادعى الدكتور ان الرواة انفسهم نظموا الشعر وحملوه على بعض الشعراء حملا ،ولا يعقل ان انسانا يقضي عمره ، ويهدر نبوغه في نظم شعر بليغ جيد ، ثم ينسبه الى غيره من الموتى أو الاحياء . وكان اولى له ان ينسبه لنفسه ليفخر به ، بل اية فائدة

---

(٢٤) طه حسين : في الادب الجاهلي ص ٢١٠ .
(٢٥) الاغاني : دار الكتب ٩٠/٦ .

تعود على رجل يجهد مواهبه في الصياغة والنظم ، ثم يتخلى عن ثمرات فكره باختياره ..

ثم ان الرواة المشهورين الذين يسند اليهم هذا العمل لم يرد عنهم انهم نظموا الشعر ، وان مجموع ما نسب اليهم لم يتجاوز العشرين بيتا ، ولم تصل هذه الابيات الى درجة الشعر الجيد .

ثم ينتقل الدكتور الى الكتاب الرابع فيتحدث فيه عن الشعر والشعراء ، فيبدأ بامريء القيس ويقول عن قصائده انها محدثة ، انتحلت حين تنافست القبائل العربية ، وقد أحس القدماء بعض هذا ، فصاحب الاغاني يحدثنا ان القصيدة القافية التي تضاف الى امريء القيس على انه قالها يمدح بها السموأل حين لجأ اليه منحولة ، نحلها دارم بن عقال وهو من ولد السموأل[٢٦] .

وليت الدكتور نقل عبارة أبي الفرج صحيحة ، فالراوية كما رواها صاحب الاغاني بعد ان ذكر أول بيت من هذه القصيدة قال : « وهي قصيدة طويلة اظنها منحولة ، لانها لا تشاكل كلام امريء القيس ، والتوليد فيها بيّن ، وما دونها في ديوانه أحد من الثقات ، واحسبها مما صنعه دارم ، لانه من ولد السموأل ، أو مما صنعه من روى عنه ذلك فلم تكتب هنا[٢٧] .

والفرق واضح بين الروايتين ، فرواية أبي الفرج تشك في القصيدة لانها لم تدون في ديوان امريء القيس ، وانها لا تشاكل كلامه ، وان التوليد فيها بيّن . وفرض انها من وضع دارم بن عقال لانه من ولد السموأل ، وهو لم يجزم بذلك بل تردد بين دارم او شخص آخر ممن روى عنه .

لقد روي شعر أمريء القيس في القرن الثاني الهجري وكبار

---

(٢٦) طه حسين في الادب الجاهلي ص ٢١٠ .

(٢٧) الاغاني : دار الكتب ٩/٩٧ .

الرواة أحياء ، كالمفضل والاصمعي وابي عمرو بن العلاء فلم يطعنوا في جاهليته ، ولم يشكوا في نسبته اليه ، مع العلم ان هؤلاء الاعلام لم يكونوا من السذاجة وعدم التمييز بالدرجة التي تجعلهم يسكتون عن هذا الشعر ، ويسكتون عن نسبته الى امريء القيس • اذا تصورنا ذلك حقا حكمنا على كل ما وصل الينا بالتزوير ، وحكمنا على كبار العلماء والثقات بالكذب وعدم الفهم ، وهذا ما لا تصدقه الروايات ولا يؤمن به البحث العلمي •

فنحن لا نرتاب من ابطالهم لامية الشنفرى بشكهم فيها ، وتأكيدهم على ان ناظمها هو خلف الاحمر،وشكهم في غيرها من القصائد التي اشهروا الارتياب في قبولها ، ولكن ذلك لا يعني ان نفينا نسبة أبيات الى شاعر يعني عدم وجود ذلك الشاعر ، لان الاستناد على امثال هذه الحجج لا يكون منطقيا ولا مقبولا • ومن هذا نستنتج ان كثيرا من المقدمات التي استعان بها الدكتور طه حسين على نفي الشعر الجاهلي لا يمكن الاعتماد عليها ، لان الفروض التي فرضها في اسباب اصطناع هذا الشعر ونسبته اليهم ، فروض لا يؤيدها البحث العلمي او المنطق التاريخي •

والحق ـ كما يقول الدكتور شوقي ضيف ـ ان الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير ، غير ان ذلك لم يكن غائبا عن القدماء ، فقد عرضوه على نقد شديد ، تناولوا به رواته من جهة ، وصيغه وألفاظه من جهة ثانية،أو بعبارة اخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق، ومعنى ذلك انهم احاطوه بسياج محكم من التحري والتثبت ، فكان ينبغي ألا يبالغ المحدثون من امثال مرجليوث وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي الى رفضه،انما نشك حقا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه، أما ما وثقوه ورواه اثباتهم من مثل ابي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والاصمعي وابي زيد ، فحري ان نقبله ، ما داموا قد اجمعوا على صحته ، ومع ذلك ينبغي ان نخضعه للامتحان ، وان نرفض بعض

ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن ، كأن يروى لشاعر شعر لا يتصل بظروفه التاريخية ، او تجري فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته ، أو يضاف اليه شعر اسلامي النزعة ، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا[٢٨] .

---

(٢٨) تاريخ الادب العربي : العصر الجاهلي / الدكتور شوقي ضيف ص ١٧٥ .

الفصل الثاني

مصادر شعر الفروسية

لابد لنا ونحن نبحث مصادر الادب الجاهلي التي يمكن الاعتماد عليها ، أن نمر على موضوع الرواية التي انتقل بواسطتها هذا الادب ، محاولين تمييز النصوص التي شك القدماء في روايتها ، والنصوص التي وثقوها واعتبروها صحيحة • فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت الوسيلة المتعارف عليها لنشره وذيوعه ، لان العربي الذي يريد أن ينظم الشعر يلزمه راو يروي شعره ، وهذه الرواية تنقل الى شخص آخر ، الى أن تتسلسل الرواية في حلقات تأخذ كل حلقة عن سابقتها •

ولعل في ذلك ما يدل على ان رواة كثيرين حملوا الشعر الجاهلي الى عصر التدوين ، ولابد أن يشوبه شيء من الانتحال والوضع ، وهذا ما تحدث عنه القدماء وذكروه في كتبهم • فالرواية الشفوية وحدها هي الطريقة الاساسية التي وصل بها الشعر الجاهلي الى عصر التدوين •

والذي يتضح لنا من ذلك هو أن رواية الشعر الجاهلي أحيطت بكثير من التحقيق ، فعلى الرغم من وجود الرواة المهتمين ، فان ذلك لم يمنع الرواة الثقات من الوقوف لهم بالمرصاد ، ليبينوا صحيحه من زائفه، ويصفوه من الشوائب الكثيرة التي علقت به •

فنحن لا تنكر ان في بعض الشعر الجاهلي اضطرابا ، وذلك ناشيء

من طبيعة روايته • فقد كان الرواة يعتمدون على حافظتهم ، فمن البديهي أن ينشأ من ذلك تقديم بيت على آخـر ، أو نقص أو أن ينسبوا بعض الاشعار القديمة الى شعراء الجاهلية الاولى • كما يمكن أن توضـع أشعار قديمة منحولة على مشاهير الابطال لتمجيد بعض القبائل ؛ ولكن ذلك لم يلعب الا دورا ثانويا في قضية الشعر الجاهلي ، لان الشـعر الذي وصل الينا يحمل في ثناياه كثيرا من الشعر الاصيل الثابت الموثوق به • وقد اعترف جماعة من المستشرقين بذلك ، فبروكلمان يقول : ان ما نعرفه من الشعر المستند الى مصادر صحيحة نسبيا لا يمتد الى مـا قبل المائة السابقة على مولد النبي (ص)[1] ، وبروكلمان يؤكـد ولو بصورة نسبية صحة هذا الشعر على أن رأيه هذا لم يكن جديدا في عالم الادب لان الجاحظ قد تطرق الى هذا الحديث في كتاب الحيوان[2] • ويزعم بلاشير ان الاصول الصحيحة للشعر الجـاهلي اختلطت بالنماذج والقصائد الموضوعة اختلاطا يتعذر معه أن يميز ، ونحن نؤيد بلاشير فيما ذهب اليه ، فتمييزه يتعذر على بلاشير وأمثاله في عصرنا هـذا ، ولكن هل يتعـذر ذلك على الاصمعي والضبي وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وغيرهم ممن خبروا اللغة،وعرفوا دقائقها ، واستقصوا غريبها • وقد ادرك القدماء هذه الحقيقة ، وعرفوا الرواة الثقـات والمجرحين ، فصدقوا الاصمعي والضبي ، وطعنوا في حماد وخلف وأبن الكلبي ، وتمكنوا من التمييز بين ما هو منحول وما هو غير منحول •

لقد توزع الشعر الجاهلي على هيئة منتخبات عـامة ، ودواوين الشعراء ، ودواوين القبائل ، ومجموعات لاغراض شعرية معينة ، وأول هذه المجموعات المعلقات • وقد ذكر ابن عبد ربه وابن رشـيق وابن خلدون وغيرهم انه قد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلهـا له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في

---

(١) بروكلمان : تاريخ الادب العربي القسم الاول ص ٥٥ .
(٢) الجاحظ : الحيوان ١/٣٦-٣٧ .

القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة ، ومنه يقال مذهبة امريء القيس ومذهبة زهير والمذهبات السبع • وقد يقال لها المعلقات • وقيل ان وجه التسمية بذلك لعلوقها باذهان صغارهم قبل كبارهم،ومرؤسيهم قبل رؤسائهم ، عناية بحفظها والاحتفاظ بها • وقد أنكر أمر تعليقها أبو جعفر النحاس[٣] •

أما المحدثون فقد ذهبوا في تفسيرها مذاهب اخرى، فقال نولدكه: ان مؤرخي العرب في القرون الوسطى يستعملون كلمة بمعنى العقد ، أي السموط عنوانا لكتبهم ، وهذا ما جرى للمعلقات التي سميت بالسموط[٤] • أما ليال فقال ان المعلقات مشتقة من العلق ، وهو ما يضن به من الاشياء والحلي والثياب[٥] •

وكما اختلفوا في وجه التسمية اختلفوا في عددها واصحابها ،فهي عند حماد سبع[٦] ، معلقة امريء القيس وزهير وطرفه ولبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد والحارث بن حلزة اليشكري ، وهي عند المفضل سبع أيضا غير انه اسقط اثنتين من رواية حماد وهما معلقتا الحارث بن حلزة وعنترة واثبت مكانهما معلقة الاعشى والنابغة ويضيف اليها أبو زكريا التبريزي في كتابه القصائد العشر الطوال معلقة لعبيد بن الابرص فيجعلها عشرا • وواضح ان قصائد امريء القيس وزهير ولبيد وطرفه وعمرو بن كلثوم متفق عليها من الرواة جميعا •

ولعل ذلك يؤلف الجوهر الحقيقي في هذه المجموعة التي اضيفت اليها فيما بعد قصائد اخرى بدوافع مختلفة •

---

(٣) ياقوت : معجم الادباء ٤/ ١٤٠
(٤) بلاشير : تاريخ الادب العربي ص ١٥٦ .
(٥) نفس المصدر ص ١٥٦ .
(٦) ياقوت : معجم الادباء ٤/ ١٤٠ .

وقد نالت المعلقات اهتماما كبيرا من قبل مؤرخي الادب ، فاقبلوا على شرحها ودراستها واستخلاص الحياة الجاهلية من ثنايا أبياتها ، فكانت زادا لمن أراد التزود ، ومجالا فسيحا لمن اراد البحث والاستقصاء .

أما المجموعة الثانية من المنتخبات فهي « المفضليات » ، وهي تعتبر من أقدم ما وصل الينا من اختيارات الشعر العربي ، لان الرواة قبلها كانوا يضعون أشعار القبائل ويضمون أشتات شعر المنتمين الى قبيلة واحدة ، ويجعلون كلا منها كتابا ، ولا نعلم أحدا قبل المفضل الضبي اقدم على ان يصنع للناس اختيارا من الشعر كهذا ، وقد نسبت الى جامعها المفضل الضبي رأس علماء الكوفة في عصره . ويذهب بروكلمان في تسميتها مذهبا آخر فيقول : انها سميت في الاصل كتاب الاختيارات ، ولكنها سميت بعد ذلك بالمفضليات نسبة الى جامعها[٧] .

وعدد المفضليات مائة وست وعشرون قصيدة ، أضيف اليها أربع قصائد اخرى وجدت في بعض النسخ ، وقد اضطربت روايتها بعض الشيء ، قال ابن النديم : « وهي مائة وثمان وعشرون قصيدة وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه والصحيحة التي رواها عنه ابن الاعرابي[٨] ، وفي مقدمتها سند كامل يرفعها الى ابن الاعرابي تلميذ المفضل[٩] ، وأحد أئمة اللغة المشار اليهم في معرفتها ، ولم يشرح المفضل هذه المختارات ، وانما شرحها أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الانباري المتوفى سنة ٣٠٥ ، وأعقبه في ذلك أبو جعفر احمد بن محمد بن اسماعيل النحوي المصري ، المعروف بابن النحاس والمتوفى سنة ٣٣٨ ، فأبو علي أحمد بن محمد المرزوقي

---

(٧) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ١/٧٣
(٨) ابن النديم : الفهرست ص ٦٨
(٩) المفضل الضبي : المفضليات ١/١١

المتوفى سنة ٤٢١ ، فأبو زكريا يحيى بن علي بن الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ ، ثم أبو الفضل احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم الميداني صاحب مجمع الامثال المتوفى سنة ٥١٨[١٠] .

والذي لا شك فيه هو ان المفضل لم يخرج كل هذه القصائدالتي شرحها الانباري ، وان كثيرا منها ادخل في أثنائها من بعده ، ويعتقد البعض[١١] ان اصلها سبعون،وهي التياختارها ابراهيم بن عبدالله بن حسن ، واتي يقول المفضل فيها « صدرتُ بها اختيار الشعراء ، ثم أتممت عليها باقي الكتاب » وانه زادها بعد عشرا ، حتى تقدم اليه المنصور في اختيار قصائد للمهدي ، فصارت ثمانين . وان هذهالثمانين هي أصل الكتاب عن المفضل ، ثم قرئت على الاصمعي فأقرها وزاد قصائد ،وزاد في بعض قصائدها أبياتا،واختار قصائد أخر ،ثم جاء من بعد الاصمعي من زاد في القصائد ـ اصلها ومزيدها ـ أبياتا دخلت في روايتي المفضل والاصمعي حتى اختلطت كلها .

فلم يكن ميسورا أن يجزم جازم بما كان أصلا وما كان مزيدا الا قليلا ، ثم يؤكد هذا البعض ان السبعين التي بني عليها الكتاب،والعشرة التي زاد المفضل ، ليست الثمانين الاولى من هذه المجموعة ، وانما هي ثمانون مفرقة في الكتاب ولا يمكن البت في قصيدة بعينها ، انها منها أو من غيرها الا قليلا أيضا[١٢] .

على انليال يورد في مقدمة طبعته للمفضليات رأيا آخر[١٣] يخالف ما ذكرناه ، وهو رأي ينتهي به الى انه لا يستطيع التسليم بالخبر الذي

---

(١٠) نفس المصدر ص ٢١

(١١) عبدالسلام هارون واحمد محمد شاكر في مقدمتهما للمفضليات ص ١٢

(١٢) مقدمة المفضليات تحقيق عبدالسلام هارون واحمد محمد شاكر ص ١٢

(١٣) مقدمة المفضليات ليال ص ١٥ ـ ١٦

رواه الاخفش ، والذي يذكر فيه ان المفضل اخرج منها ثمانين قصيدة للمهدي وقرئت بعد على الاصمعي فصارت مائة وعشرين . فيعلق على ذلك بقوله ، ومع ذلك فان هذه المسألة ليست مما يمكن حله حلا قاطعا . أما مسألة صحة هذا الشعر ونسبة قصائده الى قائليها ، فان مكانة الاصمعي في الرواية ، والحكم على مثل هذه الامور ، لا تقل في قيمتها وعلوها عن مكانة المفضل .

والمفضليات على الرغم من هذا التباين والاختلاف ، تعتبر اروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلي التي لا يرقى اليها الشك ، وتفوق المجموعات الشعرية الاخرى بما تعكسه من اتجاهات الشعر العربي ، وما تمثله من جوانب الحياة المختلفة منذ العصر الجاهلي حتى منتصف القرن الاول الهجري .

وتتوزع هذه المجموعة القيمة من الشعر على سبعة وستين شاعرا، منهم سبعة وأربعون شاعرا جاهليا ، واربعة عشر شاعرا مخضرما ، وستة شعراء اسلاميين .

والمجموعة الثالثة من كتب المنتخبات العامة « الاصمعيات » ، نسبة الى الاصمعي راويها ، وقد أعاد نشرها نشرا علميا جيدا عبد السلام هارون واحمد محمد شاكر ، بعد أن طبعها للمرة الاولى المستشرق الوارد ، وهي اثنتان وتسعون قصيدة ومقطعة[١٤] .

وهي موزعة على واحد وسبعين شاعرا ، اربعون منهم جاهليون والباقون اسلاميون مخضرمون ، ولا بد أن يكون للاصمعي اختيارات اخرى لم تثبت في هذه القصائد[١٥] .

---

(١٤) هذا عددها في الطبعة المصرية بتحقيق عبدالسلام هارون واحمد محمد شاكر ، واما الاوربية بتحقيق وليم بن الورد فليس فيها الا سبع وسبعون قصيدة ومقطعة .

(١٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢١ـ٢٢ والمفضليات تحقيق عبدالسلام هارون واحمد محمد شاكر ص ٢٠

وقد اعتبر الدكتور ناصرالدين الاسد[١٦] عدم وجود اسناد يكشف عن الرواية التي انتقلت بها هذه المختارات عن الاصمعي عيبا، كما اعتبر قول ابن النديم[١٧] « ان الاصمعي عمل قطعة كبيرة من اشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصاررواياتها» اشكالا لا سبيل الى حله ، لعدم ايضاح مفهوم هذه القطعة الكبيرة من أشعار العرب التي وردت في هذا النص واعتبر عبارة « واختصار رواياتها » اشكالا آخر لاسباب وضحها في كتابه[١٨] .

ولكننا اذا رجعنا الى المفضليات ، وما قيل عما فيها من الاختلاط بين الاصمعي والمفضل ، وما زاد الاصمعي فيها على ما جمعه المفضل ، وقول ابن قتيبة[١٩] في الشعر والشعراء وفي قصيدة المرقش ، وعجبه من ادخال الاصمعي لهذه القصيدة في متخيره ، والقصيدة موجودة في الاصمعيات تحت رقم(٥٢) والعبارةالتي كتبت تحت مجموعةالاصمعيات « هذه بقية الاصمعيات التي اخلت بها المفضليات » ، والتفسير الذي اورده المحققان احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون من ان كلمة « أخلّت » يجب أن تقرأ فعلا مبنيا لما يسم فاعله ، وهي من قولهم خل الشيء في الشيء أنفذه ، ومنه التخليل والتخلل ، واصله من ادخال الشيء في خلال الشيء وهو وسطه .

اذا رجعنا الى كل ما تقدم ، وربطنا بين هذه الادلة والاقوال ، ادركنا الثقة الصحيحة في نسبتها الى الاصمعي ، وأدركنا ان هذه المجموعة تستحق الدراسة الدقيقةلاعتبارها الى حدماتكملة المفضليات ولان طبيعة الاصمعي تتجلى فيها ، ولانها اخيرا اقرب المجاميع التي وصلتنا الى الصحة ، وأثبتها وادقها في الرواية .

---

(١٦) ناصرالدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٧٨
(١٧) ابن النديم : الفهرست ص ٥٦
(١٨) ناصرالدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٨١
(١٩) إبن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٢–١٣

أما المجموعة الرابعة ، فهي دواوين الحماسة ، وأقدم هـــذه الدواوين ما جمعه ابو تمام ، وقد بنى اختيار ما فيهـا من الشعر على أبواب المعاني ، ولا غرابة في ذلك اذا علمنا ان الجامع شاعر ممتاز ، مكنه شعره من أن يختار احسن ما تقع عليه عينه ، وهو الى جانب ذلك شاعر كبير من شعراء المعاني •

ولسنا ندري حقيقة هذه التسمية ، أهي من صنع أبي تمام نفسه ، أم هي عرف جرى بين الادباء ، فليس الديوان الذي جمعه حماســة فحسب ، ولكنه يجمع الى جانب الحماسة ، المراثي والادب ، والنسيب ، والهجاء والاضياف والمدح والصفات والسير والنعاس والملح ومذمـة النساء •

والظاهر ان التسمية لم تكن من قبيل الصدف ، وانما تشير الى أجل فضيلة اعظمها العربي ، لانه امتدح البسالة في القتال ، والصبر على اشتداد البلاء ، والجد في طلب الثأر ، وحماية الضعيف ، والازدراء بالاهوال • وما كثرة منتخبات الحماسة واطلاق هذا الاسم عليها الا دليل على ما ذكرناه من أهمية هذا الباب في الادب العربي •

ومما يقال في هذه التسمية ايضا ، ان ابا تمــام سمى مجموعته باسم اول باب من ابواب مختاراته وهو اعظمها ، وقد لاحظ العلمـاء ان ابا تمام كان يعمد احيانا الى تغيير نصوص الشعر ، ليستقيم له ان يربط بين الابيات التي تفككت ، او ليستر عوار نقيصة يَشين وجـه الحسن من مقطوعاته وفي ذلك يقول المرزوقي (٢٠) :

« وهذا الرجل لم يعمد من الشـعراء الى المشتهرين منهم دون الاغفال ، ولا من الشعر الى المتردد في الافواه ، المجيب لكل داع ، بل اعتسف في دواوين الشعراء ، جاهليهم ومخضرمهم ، واســلاميهم

---

(٢٠) مقدمة الشارح (حماسة ابي تمام شرح المرزوقي) ص١٣

ومولدهم ، واختطف منها الارواح دون الاشباح ، واخترف الاثمار دون الاكمام » .

وحكى الصولي انه سمع المبرد يقول : سمعت الحسن بن رجاء يقول : « ما رأيت أحدا قط أعلم بجيد الشعر ، قديمه وحديثه من أبي تمام[٢١] . وقد وقع الاجماع من النقاد على انه لم يتفق في اختيار المقطعات انقى مما جمعه أبو تمام ، ولا في اختيار المقصدات أوفى مما دونه المفضل ونقده[٢٢] .

وهذه المجموعة لم تصل الى أبي تمام عن طريق الرواية ، وانما اخذها ابو تمام من الكتب ، واتنقاها من الدواوين والمجاميع ، وظل هذا الكتاب مطويا قرابة مائة وتسعين سنة[٢٣] ، الى أن اتيح له المرزوقي الذي يعتبر شرحه للحماسة من اكبر الشروح التي وصلت الينا ، واكثرها عناية بمعاني الشعر . أما الشرح الثاني فهو شرح التبريزي الذي ألف بعد المرزوقي ، ولكنه لم يصل الى ما وصل اليه .

وحذا البحتري حذو أبي تمام مع بعض الريبة في نسبة الحماسة اليه[٢٤] .

وهي مقطوعات قصيرة موزعة على مائة واربعة وسبعين بابا . ولم تنل حماسة البحتري من الذيوع والشهرة ما نالته حماسة أبي تمام ويقال انها جمعت اجابة للفتح بن خاقان ، وزير الخليفة العباسي المتوكل . ويغلب عليها طابع الدعوة الى الاخلاق الفاضلة .

---

(٢١) مقدمة الشارح ص ١٤

(٢٢) يعني بذلك القصائد المفضليات التي اختارها المفضل الضبي

(٢٣) توفى أبو تمام سنة ٢٣١ وتوفي المرزوقي سنة ٤٢١ هـ .

(٢٤) لقد شك البغدادي في نسبة هذه الحماسة الى البحتري ، فقد ذكر في الخزانة (٣ : ٥٩١) بعد ان نقل عن العيني في سياق حديثه عن بيت من الشعر نسب الى النابغة ، فقال : « ذكره البحتري في حماسته ولم نسمع ان للبحتري حماسة » .

وجمع هبة الله العلوي أبن أحمد بن الشجري المتوفى سنة (٥٤٢) مختارات شعراء العرب ، وقد طبعت هذه الحماسة في حيدر آباد ، طبعها كرنكو ، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي • كما صنفت اختيارات كثيرة بعنوان الحماسة ، منها حماسة الخالديين للاخوين أبي عثمان سعيد ، المتوفى سنة (٣٥٠) ، وأبي بكر محمد المتوفى سنة (٣٨٠) ، ابني هاشم الخالدي •

ومنها الحماسة البصرية[٢٥] وقد جمعها صدرالدين علي بن ابي الفرج البصري •

وأهمية كتب الحماسة تتجلى في عدد الشعراء المغمورين الذين اظهرتهم ، وجمعت طائفة من شعرهم •

أما المجموعة الخامسة فهي جمهرة اشعار العرب ، وقد اضطربت نسبتها الى أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، لان المؤلف مجهول وليس له ادنى ذكر في جميع كتب الطبقات والرجال ، ولم يذكر مع المحدثين ورواة الحديث ، ولا مع اللغويين والنحويين ، ولا مع الشعراء والادباء ، ولا مع مؤلفي الكتب وجامعي الدواوين[٢٦] •

---

(٢٥) وهي لم تطبع حتى الان .

(٢٦) مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٨٥ ، وللدكتور مصطفى جواد راي في مؤلف هذا الكتاب ، بسطه في مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد السابع لسنة ١٣٧٩ – ١٩٦٠) . ويتلخص رايه في ان مؤلف هذا الكتاب قد جمع للعرب احسن جمهرة من اشعار شعرائهم ، ولكن مؤرخي الآداب العربية ولا سيما المتاخرين منهم لم يوفقوا الى ترجمة المؤلف ، ولا لتعيين عصره ، ثم يذكر انه بعد البحث المستوفي ، والتحري المستقصي ، تمكن من ان يثبت بانه من أهل القرن الخامس للهجرة .

وفي مكتبة كوبرللي باستانبول مخطوط تحت رقم (١٢٣٢) ومعنون بجمهرة الاشعار ، ولهذا المخطوط صورة في معهد احياء المخطوطات بجامعة الدول العربية ، ويضم هذا المخطوط مجموعة جمهرة اشعار العرب نفسها مع اختلاف في ترتيب بعض القصائد والمقدمة ، كما

وقد ذكر هذا الكتاب في خزانة الادب للبغـــدادي وفي المزهر للسيوطي وفي العمدة لابن رشيق ، ولكن ذكره كان خاليا من اللقب مرة ، أو يذكر الكتاب وحده دون ذكر اسم المؤلف ، وهكذا[٢٧] .

وقد ظن البعض انه كان يعيش في اواخر القرن الثالث او اوائل القرن الرابع .

والجمهرة مجموعة سباعية تشتمل على سبعة اقسام ، اولهـــا المعلقات ، وقد اخذ فيها برواية الضبي ، فاسقط منها معلقتي الحارث وعنترة ، ووضع مكانهما معلقتي الاعشى والنابغة ، وتحمل الاقســام الستة الباقية حلى من العناوين المختارة،وهي المجمهرات والمنتقيات[٢٨] والمذهبات[٢٩] والمراثي والمشوبات[٣٠] والملحمات [٣١] .

يضم شرحا لبعض قصائد الجمهرة ، وهو على خمسة فصول وثمانيـة أبواب ، الباب الاول منه في خمسة فصول ، الفصل الاول فيما وافق به القرآن الكريم من الفاظهم وإشعارهم ، الفصل الثاني في اخبار الشعراء، الفصل الثالث فيما روى عن النبي (ص) وما جاء عن اصحابه والتابعين ، الفصل الرابع في قول الجن للشعر على السن العرب ، وهكذا ، امـــا الباب الثاني فيتحدث فيه عن السموط ، ثم يعدد أصحابها ، وفي الباب الثالث يتحدث عن اصحاب المجمهرات ، حتى يختم الـكتاب في البـاب الثامن بذكر الملحمات ، وينسب هذا الكتاب الى محمد بن ايوب العزيزي العمري .. ثم يختم الكتاب بعبارة .. تم الكتاب ــ كتاب جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والاسلام بمن الله وعونه ــ وكان الفراغ من نساخته يوم الاحد السادس عشر من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثمانـــين وستمائة .. ومن هنا يظهر لنا جليا مدى الاضطراب الذي يشوب هـذا الكتاب والملابسات التي رافقته .

(٢٧) مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٨٥

(٢٨) المختارات

(٢٩) وجمعها الشعراء من الانصار ، جاهلين او مخضـــرمين . وربما قصد باسمها انها تستحق ان تكتب بالذهب . (شـــوقي ضيف ص ١٧٩) تاريخ الادب العربي العصر الجاهلي .

(٣٠) وهي لمخضرمين شابهم الكفر .

(٣١) وجميعها لاسلاميين .

والجمهرة مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ، ولكنها غير موثقة الرواية ، فلابد في الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة[٣٢] .

واذا تركنا هذه المختارات الى الدواوين المفردة ، لقينا منها أشعار الشعراء الستة الجاهليين (امريء القيس بن حجر والنابغة الذبياني وعلقمة بن عبده الفحل وزهير بن ابي سلمى المزنى وطرفة بن العبد البكري وعنترة بن شداد العبسي) التي تعتبر من احسن المجموعات الشعرية التي ظهرت في الاندلس، وهي من اختيار عالم اندلسي نحوي، هو يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالاعلم الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ هـ . وقد عمل الاستاذ مصطفى السقا شرحا لتلك الدواوين، ولكنه احتفظ فيه برواية الاعلم نقلا عن الاصمعي[٣٣] .

وقد اعتمدها الوارد اصلا في طبعته لدواوين الشعراء الخمسة . ـ عدا امرأ القيس ـ ، وسماها (العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين) .

وقد سلك الاعلم في جميع دواوين مجموعته خطة واحدة ، فكان يبدأ في كل ديوان برواية الاصمعي ، حتى اذا استوفاها نص على انتهائها ، وميز آخرها ، وتشتمل هذه المجموعة على نوعين من الاشعار لكل شاعر من هؤلاء الشعراء الستة ، النوع الاول قصائد رواها الاصمعي وشرحها ، وهذا النوع أنفس النوعين ، لان الظن غالب عند جمهور الرواة من البصريين ، لتواطؤ ألناس عليها ، واعتبارهم لها ، واتفاق الجمهور على تفضيلها[٣٤] .

اما النوع الثاني ، فهو ما لم يروه الاصمعي ، ولم يطمئن الى

---

(٣٢) شوقي ضيف : تاريخ الادب العربي . العصر الجاهلي ص ١٧٩

(٣٣) وهي التي كانت السند الاساس الذي اعتمدت عليه في دواوين الشعراء المذكورين .

(٣٤) الاعلم : مقدمة مختار الشعر الجاهلي .

نقلته ، وليس كل هذا الشعر مكذوبا منتحلا ، ولكن بعضه اختلطت نسبته على بعض الرواة لتشابه اسماء الشعراء ، كامريء القيس مثلا فقد نسب الى امريء القيس بن حجر شعر هو لامريء القيس بن عابس او لامريء القيس بن مالك ونسب الى زهير بن ابي سلمى المزنى شعر لزهير بن جناب الكلبي ، ونسب الى النابغة الذبياني شعر قائله النابغة الجعدي ، وهكذا تتشابه الاسماء فتتداخل الاشعار وتعمى نسبتها على بعض الرواة[٣٥] .

ويمتاز مؤلف هذه المجموعة بدقة لغته ، فلم يفتـه أن ينبه على ما رواه الاصمعي من الصحاح ، ولا ما رواه غيره من القصائد المشتبه في امرها ، بل يذهب احيانا في الدقة الى غاية بعيدة ، فينبه الى بيت او كلمة من القصيدة أنه ليس من رواية الاصمعي ، وانما هو من رواية فلان اللغوي ، او ان هذه الكلمة من البيت لم يعرفها الاصمعي ،وقد عرفها غيره ،ومهما يكن من امر القصائد المشكوك في روايتها عند البصريين ، فاننا نجد ابياتها مثبوتة شائعة في معاجم اللغة وكتب النحو ، مما يدل على ان فريقا من العلماء عرفها واثبتها[٣٦] .

الى جانب كتب الاختيار هذه ، هناك دواوين أخرى طبعت طبعات مختلفة ، وحققت تحقيقا علميا صحيحا يمكن الاعتماد عليها مصادر لدراسة الادب ، ونصوصا لتفسير الجوانب الحية في الادب الجاهلي . وأهم هذه الدواوين ، ديوان امريء القيس برواياته المختلفة ، وديوان زهير بن أبي سلمى ، وديوان النابغة ، وديوان طرفة وديوان عروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، وعلقمة الفحل ، والشنفرى ، وعامر بن الطفيل ، والطفيل الغنوي ، واوس بن حجر ، والاعشى الكبير ، وسلامة بن جندل ، وقيس بن الخطيم ، والمزرد بن ضرار الغطفاني ، والمثقب العبدي ،

---

(٣٥) نفس المصدر .
(٣٦) نفس المصدر .

وغيرهم ممن جمعت قصائدهم المتناثرة في مظان الكتب ، مرجعـا لمن اراد دراسة هذه الفترة الادبية .

الى جانب الكتب الادبية الاخرى التي تعتبر من المصادر الاولية في الادب الجاهلي ، ككتاب الاغاني ، والنقائض ، وطبقات الشعراء ، والشعر والشعراء ، والعقد الفريد والبيان والتبيين ، والحيوان وغيرها.

الفصل الثالث

موضوعات شعر الفروسية

الفخر والحماسة :

الفخر هو التمدح بالخصال الحميدة ، وادعاء العظمة والشرف . وهو فن من فنون الادب الاولى ، لانه يمثل تطلع النفس الى ذاتها ، والوسيلة التي تنشر بواسطتها مفاخر القوم ، وذكريات أيامهم . لذا فان هذا الباب كانت له اهميته الخاصة ، لانه يمثل الخط الاول للهجوم، ترهب به القبيلة خصومها ، وتضعف معنوياتهم . وهو باب واسع من ابواب الشعر العربي لتعبيره عن ميلهم الطبيعي الى الانفة والعزة .وهو يتخذ معانيه من جانب المفتخر نفسه ، او قومه بخلاف الهجاء ، فانه يصدر عن نفس ساخطة ، او ساخرة ، ويتخذ مادته من جانب المهجو او قومه ، فهما فنان متقابلان .

وقد قام الفخر على الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية القديمة . فالعرب عاشوا في بلاد امتدت صحاريها، وقل ماؤها ،واتسقت اراضيها المجدبة ، فكانت المنافسة بينهم قائمة ، والقتال مستمرا ، يسيطر على حياتهم العنف والقسوة ، وكان كل فرد يحاول أن يثبت

امتيازه وتفوقه على غيره ، اشباعا للشعور بالعزة ، وارضـــاء لحب التسامي والشرف ، واعتقادا منهم بأن القوة والسيطرة جزء لا يتجزأ من هذه الحياة ما دامت الغلبة للقوى • فكانت حياتهم سجالا بين هذه المفاهيم ، وكانت هذه المفاهيم دافعا قويا للشعراء • فهذا طرفة بن العبد يصور لنا الضعيف وكيف يكون في هذا المجتمع فيقول[1] :

ولو كنت وعلافي الرجال لضرني عداوة ذي الاصحاب والمتوحد[2]
ولكن نفى عني الاعادي جرأتي عليهم واقدامي وصدقي ومحتدي

فالرجولة الحقة هي التي تتمثل في الشجاعة والفروسية والاقدام وخوض الحروب وكسب المغانم وتحمل المكاره ، وكل ما يتعلق بهذه الاختبارات التي تصقل مواهب الرجل وتجعله اكثر احتراما بين عشيره وقومه ، وعند ذلك تمنحه القبيلة قيادتها وسيادتها •

لقد تمثلت هذه القيم بجلاء في الشـــعر الجاهلي ، وفي احاديث الشعراء ، فعمرو بن كلثوم الشاعر المعروف ، يبـــدو في معلقته مفتخرا بنفسه وقومه ، متباهيا بشجاعتهم وايامهم التي امتلأت بالقتل والدماء، وعصيانهم الملوك اذا تجبروا وطغوا ، والثورة عليهم وقتلهم ، حتى هابتهم الجزيرة وخشيت سطوتهم قبائلها • ثم ينتقل الى ذكر آبائه واجداده الذين زخر التاريخ ببسالتهم وبلائهم ، والذين يطعمون في كل وقت ، وينتصرون في كل حرب ، ويمنعون كل ما يريدون ، وينزلون حيث شاؤوا من الارض ، ويسخطون اذا غضبوا ، ويأخذون اذا رضوا، ويحمون من اطاعهم ، ويفتكون بمن عصاهم ، فيقول[3] :

---

(١) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ص ٢٢٦
(٢) الوغل : الضعيف من الرجال . المتوحد : الفرد من الرجال الذي ليس معه أحد .
(٣) التبريزي : شرح القصائد العشر ص ٢٢٥

أبا هند فلا تعجل علينا ... وانظرنا نخبرك اليقينا(٤)

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها ان ندينا(٥)

وسيد معشر قد توجوه ... بتاج الملك يحمي المحجرينا(٦)

تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة اعنتها صفونا (٧)

متى ننقل الى قوم رحانا ... يكونوا في اللقاء لها طحينا(٨)

يكون ثفالها شرقي نجد ... ولهوتها قضاعة اجمعينا(٩)

ورثنا المجد قد علمت معد ... نطاعن دونه حتى يبينا

ونحن اذا غمار الحي خرت ... عن الاحفاض نمنع من يلينا(١٠)

ندافع عنهم الاعداء قدما ... ونحمل عنهم ما حملونا

نطاعن ما تراخى الناس عنا ... ونضرب بالسيوف اذا غشينا(١١)

بسمر من قنا الخطى لدن ... ذوابل او ببيض يعتلينا(١٢)

نشق بها رؤوس القوم شقا ... ونخليها الرقاب فيختلينا(١٣)

---

(٤) ابو هند : عمرو بن المنذر، وهو ابو المنذر . وانظرنا : انتظرنا . ويجوز أن يكون معناه آخرنا .

(٥) يقول وايام لنا بيض مشهورة ، وسمى الايام غرا طوالا لعلوهم على الملك ، وامتناعهم منه لعزهم ، فأيامهم غر لهم طوال على اعدائهم . وقوله ان ندينا : اي ان نطيع ، والدين الطاعة .

(٦) المحجرون : الذين قد الجئوا الى المضيق ، ويحمي المحجرينا صفة لسيد معشر .

(٧) الصافن : القائم .

(٨) اي متى حاربنا قوم كانوا لنا كالطحين للرحا .

(٦) المحجرون : الذين قد الجئوا الى المضيق ، ويحمي المحجرينا

(١٠) الاحفاض : واحدها حفض ، وهو متاع البيت . ويسمى البعير الذي يحمل المتاع حفضا .

(١١) غشينا : اي دنا بعضنا من بعض .

(١٢) السمر من الرماح : اجودها . ولدن : لينة . وذوابل : فيها بعض اليبس .

تخال جماجم الابطال فيهـا وسوقا بالاماعز يرتمينـا[14]

☆ ☆

وقد علم القبائل من معـد اذا قبب بابطحها بنينـا[15]
بأنا العاصمون بكـل كحل وانا البـاذلون لمجتدينا[16]
وانا المانعون لما يلينـــا اذا ما البيض ذابلت الجفونا
وانا المنعمون اذا قدرنـا وانا المهلكون اذا أتينـا[17]
وانا الشاربون الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينـا

وعمرو بن كلثوم في معلقته هذه التي تعتبر أكثر المعلقات فخرا ، وأبرز الشعر الجاهلي وضوحا وتألقا ، والتي تصور لنا الانسان الجاهلي بأوضح صوره ، وابرز سماته ، واعز قيمه ، يبدو لنا عمرو بن كلثوم من بين جحافل الشعراء القدامى ، وهو اعزهم نفسا ، واكبرهم امتناعا ، واشدهم في مقارعة الخصوم والملوك والجبـابرة ، واصلبهم عودا في الوقوف امام الطغاة المستبدين . وهو بذلك يمثل لنا العربي بكل ابائه، ويصوره لنا بكل عزته ومنعته .

لقد حاول الانسان الجاهلي من جانبه المحافظة على هذه الثقـة ، ليظل رمزا حقيقيا لهذه التجارب حتى تستطيع القبيلة ان تشق طريقها ، وتقف على قدميها وسط هذا العالم الذي يقدس البطولة والشجاعـة ، فكان طبيعيا من الشاعر ان يشيد بهذه المآثر ، ويبـالغ ـ في بعض

---

(١٣) ونخليها الرقاب،اي نجعل الرقاب لها كالخلاء،وهو الحشيش .
(١٤) الاماعز : جمع امعز وهي الارض الصلبة الكثيرة الحصى . والوسوق : جمع وسق وهو الحمل .
(١٥) يقول قد علم القبائل اذا ضربت القباب انا سادة العـرب واشرافهم .
(١٦) العاصمون : المانعون ، وكحل : سنة شديدة . والمجتـدي : الطالب .
(١٧) اي منعم على من اسرنا بالتخلية ، ونهلك من اتانا يغير علينا .

الاحيان ــ في هذه الصفات ليكسب نفسه ــ ان كان فارسا واغلب الفرسان من الشعراء ــ مثلا محترمة ، ويضفي على نفسه من القاب الفروسية اوصافا بارزة .

لقد كانت صيحات الشعراء تجد ميلا عند افراد القبيلة ، فتتجاوب اصداء هذه الصيحات في نفوسهم ، وتتردد على ألسنة أبنائهم ، لان ذكرها فخر لهم ، كما جرى لمعلقة عمرو بن كلثوم ، التي حفظها أبناء عشيرته كلهم ، وكانوا يتداولونها شفاها حتى هجوا بذلك[١٨] .

لقد انتعشت حركة الفخر ، وامتزجت بالحماسة التي كانت تمثل العنصر المتمم له ، وهي بعد ذلك عماد الحركة الشعرية التي استنفدت القصائد الكثيرة ، ومدت الشعراء بوقود جزل من التغني بالبطولات . تفاخر الشعراء بالشجاعة والبطولة ، واستهانوا بالموت ، فهذا الحصين بن الحمام المري يندد بخصمه ، ويصفه بالجبن ، ويصور لنا المعركة التي خاضها قومه فيقول[١٩] :

ولما رأيت الود ليس بنافعي ... وان كان يوما ذا كواكب مظلما[٢٠]

صبرنا وكان الصبر فينا سجية ... بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما

يُفلّقن هاما من رجال اعزة ... علينا ، وهم كانوا أعقّ وأظلما[٢١]

وجوه عدو والصدور حديثةٌ ... بُودّ ، فأودى كل ود فانعما

فليت أبا شبل رأى كر خيلنا ... وخيلهم بين الستار فاظلما[٢٢]

نطاردهم نستنفذ الجرد كالقنا ... ويستنقذون السمهريّ المقوّما[٢٣]

---

(١٨) المبرد : الكامل في اللغة ١/١٤٠

(١٩) المفضل الضبي المفضليات ١/٦٣

(٢٠) اظلم اليوم من غبار الحرب حتى استبانت الكواكب .

(٢١) اظلما : يقول بدؤونا بالظلم على اعزازنا اياهم .

(٢٢) أبو شبل : وهو مُليط بالتصغير بن كعب المري . الستار واظلم : موضعان .

(٢٣) الجرد : الخيل القصيرة الشعر . السمهري : الرمح . يقول نغنم منهم خيلهم ونترك في اجسادهم رماحنا اذا طعناهم فهم يحاولون اخراجها .

عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النبل الا المشرفي المصمما[٢٤]
لدن غدوة حتى أتى الليل ما ترى من الخيل الا خارجيا مسوما[٢٥]

والمزرد بن ضرار يفخر بكونه فارس ذبيان ، الذي يحمي ذمارها ويرد عنها الفرسان ، ويفخر بفرسه الصريح الذي يعزف بصهيله ألحان البطولة ، فيقول[٢٦] :

فمن يك معزال اليدين مكانه اذا كشرت عن نابها الحرب خامل[٢٧]
وقد علمت فتيان ذبيان أنني انا الفارس الحامي الذمار المقاتل[٢٨]
واني ارد الكبش والكبش جامح وارجع رمحي وهو ريان ناهل[٢٩]
وعندي اذا الحرب العوان تلقحت وابدت هواديها الخطوب الزلازل[٣٠]
طوال القرا قد كاد يذهب كاهلا جواد المدى والعقب والخلق كامل[٣١]
اجش صريحي كأن صهيله مزامير شرب جاوبتها الجلاجل[٣٢]

ولقد تفاخر الفرسان بالاسراع الى مقاتلة الاعداء بكثرة العدد ، والجد في الحرب ، والسطوة فيها • كما تفاخروا بأيام أقوامهم ، وغلبتهم

---

(٢٤) مكانها : أي في مكان استعمالها . المصمم : الذي يمضي في صميم العظم ويبريه .
وانما يلجؤون الى السيوف حين تشتد الحرب ويلتحمون .
(٢٥) المسوم : المعلم بعلامة في الحرب ، ويريد الشاعر ان يقول ان الناس انكشفوا في هذه الحرب ، فلم يبق الا اهل هذه الخيل الاشداء الذين سرموا انفسهم وخيلهم شجاعة وجراة .
(٢٦) ديوان المزرد بن ضرار ص٣٥ .
(٢٧) المعزال : الاعزل من السلاح . مكانه خامل : لا يعرف الحرب .
(٢٨) في المفضليات ١/٩٣ فقد علمت .
(٢٩) كبش القوم : بطلهم وسيدهم . الناهل : الريان وهو من الاضداد .
(٣٠) هواديها : اوائلها .
(٣١) القرا : الظهر . جواد المدى : يجود بجريه الى المدى .
(٣٢) في المفضليات ص ٩٣ ، جاوبتها جلاجل . صريحي : منسوب الى فحل يدعى الصريح .

أعداءهم ومطاعنتهم الابطال ، ومطاولتهم الكر والفر ، وتفاخروا بمغانم العدو واسلابه . فهذا سلامة بن جندل يصور لنا تلك المفاخر فيقول[٣٣] :

ألا هل أتت ابناؤنا أهل مأرب كما قد أتت أهل الدَّبا والخورنق[٣٤]
بانا منعنا بالفـــــروق نساءنا ونحن قتلنا من اتانا بملزق[٣٥]
فمن يك ذا ثوب تنـــــله رماحنا ومن يك عريانا يوائل فيسبق[٣٦]
تركنا بجيرا حيث ما كان جده وفينا فراس" عانيا غير مطلق[٣٧]
ولولا جنان الليل ما آب عامر" الى جعفر سرباله لم يخرق[٣٨]

ودريد بن الصمة يتوعد فزارة ، ويصف ما أصابها في القتال ، وما أصاب فرسانها مقبلين ومدبرين ، مسهلين ومحزنين فيقول[٣٩] :

فلليوم سميتم فزارة فاصبروا لوقع القنا تنزون نزو الجنادب[٤٠]
تكر عليهم رجلتي وفوارسي وأكره فيهم صعدتي غير ناكب[٤١]
فان تدبروا يأخذنكم في ظهوركم وان تقبلوا يأخذنكم في الترائب[٤٢]

---

(٣٣) الاصمعي : الاصمعيات ص ١٤٨ .
(٣٤) مارب : موضع باليمن . الدبا بفتح الدال والقصر : سوق من اسواق العرب بعمان . الخورنق : قصر بالحيرة .
(٣٥) الفروق : عقبة دون هجر الى نجد ، وكان فيه يوم من ايامهم . ملزق : موضع كان به يوم من ايامهم ، وهو بضم الميم وفتح الزاي .
(٣٦) ذا ثوب : ذا سلاح . يوائل : ينج . من كل ذا سلاح نالتـه رماحنا ، ومن طرح سلاحه وتكمش نجا .
(٣٧) بجير وفراس : هما ابنا عبدالله بن سـلمة . جده : حظه. عانيا : اسيرا .
(٣٨) جنان الليل : شدة ظلمته وادلهمامه .
(٣٩) الاصمعي : الاصمعيات ص ١١٨
(٤٠) النزو : الوثبان . الجنادب : ضرب صفار من الجراد .
(٤١) الرجلة بفتح الراء وكسرها : جمع راجل وهو الذي ليس له ظهر يركبه في سفره . والصعدة : القناة المستوية يعني الرمح . واكراهها فيهم : ادخالها بقوة . غير ناكب : غير عادل عنهم .
(٤٢) الترائب : عظام الصدر .

وان تُسهلوا للخيل تسهل عليكم بطعن كايزاغ المخاض الضوارب
اذا احزنوا تغشى الجبـــالَ رجالُنـــــا
كما استوفزت فدر الوعول القــراهبِ[٤٣]

والحياة القاسية في البادية معرضة لقسوة السماء والارض ، وهذه الحياة نشأت العربي على تعظيم شأن الكرم ، لانه سبيل العيش لفئة كبيرة من الناس فكان الشعراء يتغنون بالبذل ، ويفخرون بالعطاء ، ويقدمون الضيف على الاهل والولد . وكان باب الاضياف من ابواب الشعر العربي التي أفرد لها في مختارات الادب باب كبير ، كما كـانت البطولات النادرة في الكرم مجالا واسعا ، ومنطلقا فسيحا لرسمها في ثنايا الادب العربي .

فهذا عبد يغوث بن وقاص يفخر بشجاعته وكرمه ، وهو في آخر رمق من الحياة ، لانه يجد في ذلك الذكر الحميد الذي سيبقى حيـا بعده فيقول[٤٤] :

وقد كنت نحار الجزور ومعمل المطي وامضي حيث لا حي ماضيا
وانحر للشرب الكرام مطيتي واصدع بين القينتين ردائيا[٤٥]

ومالك بن حريم الهمداني يفخر بابائه ومروءته ، وبأربع خصال ضمنها كرمه فساقها سوقا لطيفا في حديثه فيقول[٤٦] :

واني لاستحيي من المشي ابتغي الى غير ذي المجد المؤثل مطمعا
واكرم نفسي عن امور كثـيرة حفاظا ، وانهى شحها ان تطلعـا

---

(٤٣) استوفز : استقل على رجليه . القدر والقراهب : المسـان من الوعول .
(٤٤) المفضل الضبي : المفضليات ١٥٦/١
(٤٥) الشرب : جمع شارب
(٤٦) الاصمعي : الاصمعيات ص ٥٨
(٤٧) الاعيط : الابي المتمنع .

وآخذ للمولى ، اذا ضيم حقه　　من الاعيط الآبي اذا ما تمنعا[٤٧]
فان يك شاب الرأس مني فانني　　أبيت على نفسي مناقب اربعا
فواحدة" ان لا ابيت بغرة　　اذا ماسوام الحي حولي تضوعا[٤٨]
وثانية ان لا أصمت كلبنا　　اذا نزل الاضياف حرصا لنودعا[٤٩]
وثالثة" ان لا تقذع جارتي　　اذا كان جار القوم فيهم مقذعا[٥٠]
ورابعة ان لا أحجل قدرنا　　على لحمها حين الشتاء لنشبعا[٥١]

انها صورة حية لنفس العربي الذي عاشها عبر اجياله الطويلة ، وخلال تجاربه القاسية ، وانها مثل رفيع من مثل النبل الانساني السامي .

والاسعر الجعفي شاعر آخر ، وفارس يفخر بانه مأوى الضيفان في الليالي الباردة، ينحر لهم الكوم في سخاء ، ويفيض على الجميع وحتى كلاب الحي تظل في خصب وشبعة منه فيقول[٥٢] :

باتت كلاب الحي تسنح بيننا　　يأكلن دعلجة ويشبع من عفا[٥٣]
ومن الليالي ليلة مزؤودة　　غبراء ليس لمن تجشمها هدى[٥٤]
كلفت نفسي حدها ومراسها　　وعلمت ان القوم ليس لهم غنى
ومرأس اقصدت وسط جموعه　　وعشار راع قد اخذت فماترى[٥٥]
ظلت سنابكها على جثمانه　　يلعبن دحروج الوليد وقد قضى[٥٦]

---

(٤٨) الغرة : الغفلة . السوام : الابل السائمة . تضوع : تفرق .
(٤٩) لنودع : لنترك
(٥٠) تقذع : من القذع ، وهو الرمي بالفحش وسوء القول .
(٥١) لا احجل : لا استرها واجعلها في حجلة ، وهي بيت للعروس يزين بالثياب والاسرة والستور .
(٥٢) الاصمعي : الاصمعيات ص ١٦٠ .
(٥٣) الدعلج : المتردد .
(٥٤) يقال رجل مزؤود : اي مذعور اذا فزع .
(٥٥) المراس : الرئيس . والاقصاد : القتل على كل حال . والعشار : جمع عشراء وهي الناقة مضى عليها من لقحها عشرة اشهر .
(٥٦) سنابكها : يريد سنابك الخيل . الدحروج : شيء يدحرجونه .

والحياة في البادية حياة فروسية ، يعمل الابطال فيها على حماية المستضعفين والبائسين ،ونجدة الملهوفين ، فتغنى الشعراء بحماية الجار واعزاز جانبه ، والابتعاد عن الغدر ، كما تغنوا بكل ما هو من ميزات الفروسية الحقة التي ترفع الانسان الى ذروة السمو الانساني ودرجة الكمال . فهذا الحادرة يتحدى صاحبته ان تذكر له مرة غدر فيها[٥٧] . ويفخر بمنع نفسه من البخل عند طمع الطامع في معروفه ، وبأنه يجود بافاضل أمواله ليقي عرضه ، وبأنه يخوض الغمرات التي تردي النـــاس فيقول[٥٨] :

أسمى ويحك هل سمعتِ بغدرة	رُفع اللواء لنا بها في مجمـــع
انا نعف فلا نُريب حليفنـــــا	ونكف شح نفوسنا في المطمـع
ونقي بآمن مالنا احسابنــــــا	ونجر في الهيجا الرماح وندعي
ونخوض غمرة كل يوم كريهــة	تودي النفوس وغنمها للاشجع[٥٩]

وهذا عوف بن عطية يفخر بمنعه الجار حيثما صار فيقول[٦٠] :

أحيي الخليل واعطي الجزيـــل	حياء وأفعل فيه اليســـــارا
وامنع جاري من المجحفـــــا	ت ، والجار ممتنع حيث صارا

ومن هنا نستطيع ان نقول ان الفخر كان ظاهرة طبيعية بين الشعراء الجاهليين ، اقتضتها حياة القبائل المتحاربة ، فعمت الشعر الجاهلي هذه الظاهرة من أقدم عهوده،وامتازت به جماعة من فحول الشعراء ، كعمرو ابن كلثوم وعنترة والحارث بن حلزة وعامر بن الطفيل وحــاتم الطائي

---

(٥٧) كان العرب في الجاهلية اذا غدر الرجل رفعوا له بسوق عكاظ لواء ليُعرف به بين الناس .

(٥٨) المفضل الضبي : المفضليات ١/٤٣

(٥٩) يقول نخوض الغمرات في الكرائه والصعوبات التي تردي الناس : اي تهلكهم ، ولا يظفر فيها الا الشجاع .

(٦٠) المفضل الضبي : المفضليات ٢/٢١٣ .

وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم وغيرهم من الشعراء ، والفرسان الذين تألقت اسماؤهم في باب الفخر .

والشاعر في كل ما تقدم يتحدث عما تعتز به القبيلة ، معددا أيامها الخالدة ، ومشيدا بصبرها على الملمات . ومن خلال ذلك يصوب سهام الهجاء الى نحور اعدائه .

فالشعر الحماسي نشأ عند جميع الشعوب نشأة واحدة ، لانه رافق المعارك التي خاضتها هذه الشعوب ، فكان عظم الحرب وشمولها مدعاة للفخر ، لان الحرب تستدعي المصاعب ، فعلى الفرسان ركوبها مهما صعبت وتعاظمت ، قال اوس بن حجر[٦١] :

اری حرب أقوام تدق وحربنا تجل فنعروري بها كل معظم[٦٢]

ثم راح مع الايام يصور ذكرياتها الدامية ، وانتصاراتها الرائعة ، متغنيا بالبطولات القومية ، فهو شعر الحرب وشعر الثورة ، وشعر الغضبة البدوية .

لقد كانت ثقة الفارس قوية بنفسه ، كما كانت معنوياته مثلى سامية . ويمكن ادراك هذه الثقة من خلال الشعر الجاهلي الزاخر بهذه المعاني .

لقد ولد هذا النوع من الشعر عند العربي شعورا دقيقا باعتداده العظيم بنفسه ، واعجابه ببطولته ، لانه شعر الشرف والاباء ، وشعر الفروسية والفتوة . لقد كانت لذة النصر ونشوة الفوز تحرك المشاعر، وتثير الاحاسيس في نفوس الشعراء ، وتلهمهم المعاني المشرقة للتعبير عن الانفعالات الجياشة في صدورهم .

---

(٦١) ديوان اوس بن حجر ص ١٢١

(٦٢) يريد اذا حارب غيرنا دقت حربه وضاق نطاقها ، اما حربنا، فانها تتسع وتتعاظم ونركب لها المصاعب . نعروري : نركبها عريا ، وفيها استعارة ، لانه يريد ان يقول نركبها على اصعب احوالها .

وكان الانتصار يمثل الجانب الواسع من جوانب التعبير التي تتجلى فيه المواهب ، وتتجسد الآمال الكبيرة للتغني بالمآثر ، وترديد المفاخر التي تجد فيها القبيلة سلاحا تشهره بوجه خصومها ، وميدانا فسيحا يجدد فيه ذكر بطولاتها .

وكما كان الفخر بالانتصار والغلبة ، كان الفخر بالسبي كثيرا ، لانه دليل القوة والظفر ، ولانه يزيد في نشوة المنتصر الغالب . وهو في الوقت نفسه يبعث في نفوس الخصوم الضعف والرهبة ، وفقدان الثقة بالنفس ، قال طفيل الغنوي في رده على زيد الخيل وقد ادرك (بنو عامر) ثأرهم من طي[٦٣] :

وقتّلنا سراتهم جهارا ... وجئنا بالسبايا والنهاب
سبايا طيء أبرزن قسرا ... وابذلن القصور من الشعاب
سبايا طيء من كل حي ... بمن في الفرع منها والنصاب

ويقول زهير بن جناب معيّرا التغلبيين بذلك[٦٤] :

تبا لتغلب أن تساق نساؤها ... سوق الاماء الى المواسم عطلا

وكما كان الحصول على السبايا يمثل مفخرة يعتز بها الفارس ، كان ارجاع السبايا مجالا للفخر أيضا ، وكان ردها الى اهلها مجدا يعتد به ، والمحافظة على الظعينة لقبا لا يحصل عليه الا من أثبت جدارة، قال طفيل الغنوي[٦٥] :

فنحن منعنا يوم حرس نساءكم ... غداة دعانا عامر غير مؤتلي[٦٦]
رددنا السبايا من نفيل وجعفر ... وهن حبالى من مخف ومثقل[٦٧]

---

(٦٣) ديوان طفيل الغنوي ص ٥٧ .
(٦٤) الاصفهاني : الاغاني ٦٤/٢١ ساسي .
(٦٥) ديوان طفيل الغنوي ص ٣٧ .
(٦٦) حرس : موضع . غير مؤتل : أي لا يالوا ، اي لا يبطئوا .
(٦٧) مثقل : يقال اثقلت اذا عظم بطنها . والمخفف : التي لا يثقلها بطنها . ونفيل وجعفر : قبيلتان .

الهجـــاء

الهجاء فن من الفنون القديمة في الشعر العربي،أوجدته المنافسات القبلية التي أرثها السعي وراء الكلأ والغدران،كما ساعدت على تسعيره الحروب المستمرة بين القبائل ، فكانوا يتهاجون هجاء مرا • ويعتبر فن الهجاء من أكثر فنون الشعر اتصالا بالحياة وبالواقع ، وقد افردت له الكتب التي اهتمت باختيار وجمع الشعر الجاهلي ابوابا خاصـــة به ، فأبو تمام في كتابه الحماسة جعل الهجاء بابا من أبواب كتابه ، وكذلك فعل في كتاب الوحشيات ، وقدامة بن جعفر حين تقسيمه للشـــعر في كتابيه نقد الشعر ونقد النثر جعل له بابا خاصا ايضا ، حدد اقسامه على نسق علمي أخذه الناس عنه وتأثر به كثير من النقاد الذين خلفوه، ثم جاء ابو هلال العسكري فخصص للهجاء بابا في ديوان المعـــاني ، واعقبه ابن رشيق في عمدته •

والهجاء خلاف المدح ، فهو يمثل ظاهرة السخط والسخريـــة ، وتتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه لتكون مادته ، فالمفتخر يلتفت الى نفسه ليشتق منها مادته ، والهاجي ينظر الى خصمه لينشر مساويه ، ساخرا منه ، هازئا من سلوكه •

وقد تحدث الشعراء في هذا الباب عن المثالب الحربية التي تصور الخصوم بصور غير مستحسنة ، ويشمل هذا تجريدهم من صفـــات البطولة ، وما يتصل بها من قيم ومثل ، فالمهجوون قوم لا يدافعون عن الحمى ، ولا يلبون دعوة من يناديهم ، وهم ليسوا اهل حرب ،يحجمون عن القتال ، و لايثبتونفي المعركة ، يقبعون في بيوتهم مع النساءوالعجزة والاطفال ، ولا يخوضون معمعان الحرب ، ويفرون من المعركة تاركين وراءهم القتلى والجرحى • ومن هنا نجد ان الهجاء يـــدور في غالب الاحيان على كل ما يناقض مثلهم التي عاشوها •

والظاهر في هذا النوع من الشعر انه لم يكن هجاء عميقـــا او معقدا ، وانما هو حماسة واضحة مستمدة من طبيعة الحيـــاة ، يقف الشاعر فيها عند افكار عامة ، وصور مأخوذة من القيم المتميزة التي عاشها المجتمع الجاهلي ، والتي كانت تسود هذا المجتمع • وكانت في الغالب تثيرها الانساب ، ويسعرها تاريخ البطولات ، وكان ذلك مادة الشاعر التي يصنع منها ما يريد • وهو في هذه الحالة أقرب الى المؤرخ منه الى الشاعر ، لان مهمة الشاعر في هذا المجال صعبة ، فعليـه ان يعرف تاريخ الانساب ، وما يشين خصومه من مثالب ، وما يزين قومه من مفاخر ، ليستطيع ان يقرع الحجة بالحجة ، ويثبت القول بالبرهان• وقد كان لسرعة البديهة في مثل هذه المجالات تأثير كبير في الرد السريع على الخصوم •

وما المنافرات الا ثمرة من ثمار الهجاء ، لانها تعتبر من اقدم ماعرفه الادب العربي من صور الهجاء •

والملاحظ في هجاء هذه الفترة ، انه مظهر مشترك من مظاهـــر الحياة السائدة ، فلا يمكن ان يكون الهجاء هجاء خالصا لذاته ، معبرا عن غرض واحد ـ وان كانت هناك بعض القصـــائد التي انفردت بموضوع الهجاء ، ولكنها قليلة اذا قيست بغيرهـــا من الاغراض ـ وانمـا هو في الغـــالب مزيج من الانفعالات المختلطـة بالحماســـة والفخر في وقت واحد • فـــاذا اراد الشاعر ان يهجو شــــخصا فهو يقارنه بنفسه ، فاذا نعته بالجبن اضفى على نفسه صفة الشجاعة ، واذا عيّره بالبخل أعطى لنفسه صفة الكرم ، واذا نسب اليه عــــدم حمايته الجار قلد نفسه صفة المروءة • وهكذا نجد شعر الهجاء في هذه الفترة بالذات شعرا يتجاوب في ابياته مع التقاليد التي سادت ، والمثل التي تعارف عليها الناس • وهذا لا يمنع من ان يكون الهجـــــاء متبادلا بين أفراد قبيلة واحدة ، كما وقع بين عامر بين الطفيل وعلقمة

بن علاثه[٦٧] • وحتى بين افراد من عائلة واحدة اذا دعت الحاجة الى ذلك ، فقد هجا عميرة بن جُعَل قومه ، وذكر انهم لم يؤتوا في لؤمهم من قبل امهاتهم ، وانما أتوا من قبل ابائهم ، وان المرأة الكريمة منهم تتزوج الرجل المسروق النسب ، ومن ذلك جاءتهم الهجنة ، ثم انحى عليهم بأنهم يرضون بالذل ويشتاقونه ، واذا ما اخذتهم العزة فرحلوا عن منزل الذل ، ادركهم ذلهم فتعاذلوا لِمَ تركوه ، وبعثوا وفدهم الى أهل ذلك المنزل يستقيل خطيئتهم التي اخطؤوها باتتقالهم • وفي هذه الابيات صور طريفة وجديدة تستحق الدراسة والوقوف فيقول[٦٨]:

كسا الله حيّي تغلب ابنة وائل من اللؤم اظفارا بطيئا نُصولُها

فما بهم ان لا يكونوا طروقة هجانا ، ولكن عفرتها فحولها

ترى الحاصن الغراء منهم لشارف أخي سَلّة قد كان منه سليلها

قليلا تبغيها الفحولة غيره - اذا استعلت حنّان ارضٍ وعولها[٦٩]

اذا ارتحلوا من دار ضيم تعاذلوا عليهم ، وردوا وفدهم يستقيلها

ان المقاييس التي كانت تعترف بها القبائل في تلك الفترة مستمدة من تقاليدها ، فالشخص الذي لا يطعم جاره ، وينام مليء البطن في الوقت الذي يتضور هذا الجار جوعا ، شخص يستحق الهجاء ، وهو شخص بعيد عن تقاليد العرب ، يجد فيه الشاعر المفتخر مادة للاستعلاء عليه • وهي النقطة التي ينطلق منها للتقليل من قيمته ، فكان هذا الشعر يلاقي هوى في نفوس جمهرة الناس ، فيحكمون على مثل هذا الكلام بأنه اهجى بيت قالته العرب كما حصل ذلك ، بالنسبة لقول الاعشى[٧٠] :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

---

(٦٧) الاصفهاني : الاغاني ١٦/٢٨٣ دار الكتب .

(٦٨) المفضل الضبي : المفضليات ٢/٦٣ .

(٦٩) استسعلت : صارت كالسعلاة .

(٧٠) ديوان الاعشى ص ١٩

فالعرب نشأوا في الجاهلية على اخلاق اجتماعية حافظوا عليها ، وتمسكوا بها ، فكانت لهم مثل عليا يمدحون من يأخذ بها ، ويذمون من يحيد عنها . وقد عرفنا ان الشجاعة والكرم وغيرها من الصفات متوارثة ومقدسة ، لذا فالشاعر يحاول ان يطعن خصمه من ناحيتها ، ويسعى الى تجريده منها ، ليسلبه القدرة على الدفاع .

فهذا الاسعر الجعفي يهجو اخوته لابيه ، لانهم باعوا فرس أبيهم فأكلوا ثمنها ، وآثروا تزويج امهم بعد تسمينها فيقول[٧١] :

باعوا جوادهم لتسمن أمهم ولكي يعود على فراشهم فتى

وزهير بن ابي سلمى يهجو الحارث بن ورقاء الصيداوي الذي أغار على بني عبدالله بن غطفان ، فغنم واستاق ابل زهير وراعيه يسارا فيقول[٧٢] :

يا حار لا ارمين منكم بداهيــة	لم يلقها سوقة قبلي ولا ملــك
فاردد يسارا ولا تعنف علي ولا	تمعك بعرضك ان الغادر المعك[٧٣]
ولا تــــكونن كأقوام علمتهم	يلوون ما عندهم حتى اذا نهكوا
طابت نفوسهم عن حق خصمهم	مخافة الشر فارتــدوا لما تركوا
لئن حللت بجو في بني أســـد	في دين عمرو وحالت بيننا فدك[٧٤]
ليأتينك مني منطق قــــذع	باق كما دنس القبطية الودك[٧٥]

لقد كان الشاعر يلجأ الى الهجاء بدافع الخصومة والتنافس لينال من عدوه ، وليسجل مثالبه ، رغبة في اضعاف معنوياته ، وبث روح

(٧١) الاصمعي : الاصمعيات ص ١٥٧ .
(٧٢) شرح ديوان زهير ص ١٨٠ دار الكتب .
(٧٣) المعك : بسكون العين ، المطل .
(٧٤) جو : واد . ودين عمرو : طاعته . وفدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة افاءها الله على رسوله (ص) في سنة سبع صلحا .
(٧٥) القذع : القبيح . القبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم .

التخاذل والخور بين صفوف خصومه ، وكان قصيده نشيدا يردده الانصار ، معتزين به في خذلان الاعداء .

لقد حرص العربي منذ نشأته الاولى على السمعة الحسنة ، والصيت الطيب،والذكر الحميد . فنزع الى التعلق بالشرف والارومة ، وتمسك بطيب النسب ، فافتخر به ، واشاد بذكره ، لانه كان يمثل قومية العربي في تلك الفترة . فعاش طوال حياته محافظا عليه ، معتدا بتمجيده ، وهو يظهر حزنه اذا تفرق قومه ، وتبدد شملهم ، وتشتت أمرهم بعد الاتحاد والعزة والقدرة ، ويدفعه ذلك الى هجائهم اذا وجد فيهم رضوخا لدفع الديات ، وقبولا لتسليم الضرائب الثقيلة ،والاتاوات الباهظة ، فهذا جابر بن حُني التغلبي يلوم قومه فيقول(٧٦) :

لتغلبَ أبكي اذ اثارت رماحها   غوائل شــر بينهـا متثلم
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم   ومن لا يشد بنيانه يتهــدم
اذا نزلوا الثغر المخوف تواضعت   محارمه واحتله ذو المقــدم
انفت لهم من عقل قيس ومرثد   اذا وردوا ماء ورمح بن هرثم
وفي كل اسواق العراق أتاوة   وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم(٧٧)

على ان الهجاء في هذه الفترة كان عفيفا وبعيدا عن الاثارة والاقذاع، ولم ينزل الى مستوى السب الجارح او الشتم القبيح ، وهو في الواقع أقرب الى اللوم منه الى الهجاء،وقد فضل النقاد القدامى قول اوس بن حجر في الحكم بن مروان بن زنباع العبسي وكان قد مدحه فلم يثبه(٧٨):

اذا ناقة شــدت برحل ونمرق   الى حكم بعدي فضل ضلالها(٧٩)

---

(٧٦) المفضل الضبي : المفضليات ٢/١٠ .
(٧٧) الاتاوة : الخراج . المكس : دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في اسواق الجاهلية .
(٧٨) ديوان اوس بن حجر ص ١٠٠
(٧٩) النمرق : كساء يوضع على الناقة .

وقال صاحب العمدة[٨٠] : خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها . وقال خلف الاحمر[٨١] : اشد الهجاء اعفه واصدقه . وقال مرة اخرى : ما عف لفظه وصدق معناه .

وذكروا ان النابغة سأل قومه بني ذبيان بعد واقعة حسي عما قالوه في عامر بن الطفيل ، فانشدوه فقال : افحشتم على الرجل وهو شريف ، لا يقال له مثل ذلك ، ولكني سأقول. ثم قال :

فان يك عامر قد قال جهلا	فان مطية الجهل السباب
فكن كأبيك أو كأبي براء	تصادفك الحكومة والصواب
فلا يذهب بلبك طائشات	من الخيلاء ليس لهن باب
فانك سوف تحلم او تناهي	اذا ما شبت او شاب الغراب

فلما بلغ عامرا ما قال النابغة ، شق عليه وقال : ما هجاني أحد" حتى هجاني النابغة ، جعلني القوم رئيسا وجعلني النابغة سفيها وجاهلا وتهكم بي[٨٢] :

ومن لطيف تجافيهم عن الهجوما قاله صخر بن عمرو أخوالخنساء، وقد أراد رثاء أخيه معاوية فقالوا له : أهجُ قتلته ، فتعفف وقال :

وقالوا ألا تهجو فوارس هاشم ومالي واهداء الخنى من شماليا

فعبر عن الهجو باهداء الخنى .

ولهذا لم يكن الهجاء عند العرب سبابا وافحاشا واقذاعا ، وانما

---

(٨٠) رواية عن ابي عمر بن العلاء جـ ٢ ص ١٦١ .

(٨١) ابن رشيق : العمدة ١٦٢/٢

(٨٢) ابن رشيق العمدة ١٦٣/٢ — وتروى هذه الابيات في مجموعة الاعلم ضمن ديوان النابغة ، بعد خبر يذكر فيه ان النابغة قال لقومه : ان عامرا له نجدة وشعر ولسنا بقادرين على الانتصاف منه ، ولكن دعوني اجبه واصفر اليه نفسه وافضل اباه وعمه عليه ، فانه يرى انه افضل منهما . واعيره بالجهل والصبا فقال هذه القصيدة — جـ١ ص١٩٢—

كان سلبا للخلق الرفيع ، او فصلا للمرء من مجموع الخلق الحي الذي يؤلف قومية الجماعة .

وقد امتاز هجاء الاشراف عن هجاء غيرهم من عامة الناس ، وقد ادرك الشعراء هذه الحقيقة فكانوا يغمزون الاشراف بما يجدون فيه ايذاء لهم ، والى ذلك يشير الجاحظ في قوله : « واذا بلغ السيد في السؤدد الكمال ، حسده من الاشراف من يظنّن انه الاحق به ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاضه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيبا وجده . فان لم يجد عيبا وجد بعض ما اذا ذكره ، وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجِيَ حِصنُ بن حذيفة ، وهُجي زُرارة بن عُدَس ، وهجي عبدالله بن جدعان ، وهجي حاجب بن زرارة . وانما ذكرتُ لك هؤلاء لانهم من سوّدَدِهم وطاعة القبيلة لهم ، لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم ، مذهب كليب بن ربيعة ، ولا مذهب حذيفة بن بدر ، ولا مذهب عيينة بن حصن ، ولا مذهب لقيط بن زرارة ...فان هؤلاء وان كانوا سادة فقد كانوا يظلمون ، وكانوا بين ان يظلموا وبين ان يحتملوا ظلما ممن ظلمهم . ولا بد من الاحتمال كما لا بد من الانتصار[٨٣] .

وكان أثر الهجاء عنيفا على النفوس ، قويا على المهجوين ، وكثيرا ما كان يدفعهم الى البكاء بالدموع الغزار ، وهذا من أدلة كرم العرب، وقد حفل التاريخ بأسماء الكثيرين من العرب ممن كان الهجاء سببا في بكائهم ، فقد بكى مخارق بن شهاب ، وبكى علقمة بن علاثة ، وبكى عبدالله بن جدعان[٨٤] .

وقد كان الهجاء سلاحا لا يقل عن اسلحتهم في القتال ، لذلك قرنه

---

(٨٣) الجاحظ : الحيوان ٢/٩٣

(٨٤) نفس المصدر ١/٣٦٤

عبد قيس بن خفاف البرجمي بسائر اسلحته ، حيث يقول[٨٥] :

فاصبحت اعددت للنائبات عرضا بريئا وعضبا صقيلا
ووقع لسان كحد السنان ورمحا طويل القناة عسولا

ان بقاء ذكر الهجاء في الاعقاب كان يخيف العربي ، وهذا مادفعهم الى اخذ المواثيق على الشعراء اذا أسروهم ، وربما عمدوا الى شد ألسنتهم كما صنعوا بعبد يغوث[٨٦] .

ولم يكن يسلم من ضروب الهجاء الا القبائل المغمورة والمنسية ، حيث لا يكون فيها خير كثير ، ولا شر كثير ، فتسلم من ان يضرب بها المثل ، بخلاف القبائل المذكورة المشهورة[٨٧] .

والهجاء بعد هذا لم يكن غرضا يقصده الشاعر لاجل التعرض والتسلية ، وانما كان يصدر عن عاطفة صادقة يحسها الشاعر ، وتجربة يمر بها ، فاذا لم يقتنع بذلك امتنع عن قوله . فقد قال حسان بن ثابت للخنساء : « أهجي قيس بن الخطيم ؟ فقالت : لا أهجو أحدا ابدا حتى أراه . قال : فجاءته يوما فوجدته في مشرقة ملتفا في كساء له ، فنخسته برجلها وقالت : قم فقام ، فقالت : أدبر ، فأدبر ، ثم قالت : أقبل ، فأقبل ، قال : والله لكأنها تعترض عبدا تشتريه ، ثم عاد الى حاله نائما ، فقالت : والله لا اهجو هذا ابدا[٨٨] .

وكان من العرب من لا يطيل الهجاء ، ولا يكثر منه ، وانما يكتفي بالبيت الواحد اذا ادى المعنى المقصود ، وصور العيب الذي يريده . وقد قيل لعقيل بن علقه لم لا تطيل الهجاء ؟ فقال يكفيك من القلادة ما حاط بالعنق ، وقيل لابي المهوش : لم لا تطيل الهجاء ؟

(٨٥) المفضل الضبي : المفضليات ٢/١٨٦
(٨٦) نفس المصدر ١/١٥٤
(٨٧) الجاحظ : الحيوان ١/٣٥٧ ـ ٣٦٣
(٨٨) الاصفهاني : الاغاني ٣/١٠

فقال لم أجد المثل السائر الا بيتا واحدا[٨٩] • لذا كان معظم الهجاء يساق في تضاعيف الحماسة والاشادة بالمفاخر والانتصارات •

لقد ارتبط فن الهجاء بالسحر والاوهام ، وقد كانت العرب تزعم ان لكل شاعر شيطانا له اسم معين ، يسمونه تابعا أو هامسا ، ولهم في ذلك أقاصيص كثيرة رويت في اخبارهم ، ترددت في اشعارهم[٩٠] • كما ذكرت الاخبار ان الشاعر كان اذا اراد الهجاء لبس حلة خاصة لعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه ، وترك له ذؤابتين ، ودهن احد شقي رأسه، وانتعل نعلا واحدة مبالغة في مسخ شكله ، وتشويه خلقته ، واعتقادا منه بأن ذلك يساعد على زيادة القوة الخفية التي تمده بالشعر ، لتزيد لعناته على المهجو •• وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه واثناء دعاته لربه ، حتى تصيب لعنات هجائه خصومه بكل ما يمكن من الوان الاذى وضروب النحس المستمر[٩١] •

وكأن الهجاء كان في يد الشاعر سحرا يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري ، كما كانوا يعتقدون ان الشاعر الهجاء يلقن من الجن ، فهو أليق ببعث الرهبة في النفوس ، لانه كلمات تقال فيها معاني الشر واستمطار اللعنات • ومن هنا جاء اعتقادهم بالقوة الخفية التي تكمن وراء الهجاء ، وانها قادرة على اصابة كل من تحل به • فاذا سرق أحدهم ابلا لغيره ، او اموالا وتوعده المسروق بالهجاء ، اضطر الى ردها الى اصحابها كما مر بنا في قصيدة زهير[٩٢] •

ان معاني الهجاء بالنسبة للفرسان لم تخرج عن معاني اللوم والعتاب الذي كان الفرسان يؤكدون عليها ، والتي كانت ذات صلة وثيقة

---

(٨٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٩٥

(٩٠) ديوان الاعشى ص ١٥ ، ص ٣٣ .

(٩١) شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص ١٩٧

(٩٢) ديوان زهير : ص ١٨٠ دار الكتب .

بحياتهم . ومن هنا كان الهجاء انعكاسا للقيم التي كانوا يجدون فيها نقصا ، فيصمون اعداءهم بهـــذه الصفات . فالمهجو انسان فرار من الحرب ، لا يحمي حماه ، ولا يذود عن قبيلته ، ولا يكرم ضيفه ، ولا يحمي جاره ، والهجاء في هذه المرحلة كان يأخذ طابع الانصاف في بعض الاحياز ، فتبدو القصائد معتدلة لا مبالغة فيها ، يذكر فيها الشاعر ما وقع له وما وقع لخصومه ، يذكر ذلك دون تحيز ، والمهجو فـارس لم يتجرد من صفات الفروسية ، والشاعر عندما يتحدث بهذا الاســلوب لم يكن حديثه من باب الانصاف وحده ، وانما فيه تأكيد على علو كعبه لان اضفاء طابع الشجاعة على الخصم يعني بسالة المقاتل نفسه ، وتمتعه بالشجاعة والبطولة وما معلقــة عمرو بن كلثوم الا دليـل على هذا الانصاف[٩٣] .

(٩٣) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص٣٩٧ الابيات ٣٥ـ٣٦ .

الرثــــاء

يشغل الرثاء جانبا عظيما من الشعر الجاهلي ، لاتصـاله اتصالا وثيقا بالحماسة ، ولانه في اكثره مصروف الى فرسان العشيرة وساداتها الذين لهم المآثر المحمودة • وليس بين الرثاء والمدح فرق ، الا انه يخلط بالرثاء شيء يدل على ان المقصود ميت(٩٤) • وسبيل الرثاء ان يكون ظاهر التفجع،بيّن الحسرة،مخلوطا بالتلهف والاسف والاستعظام(٩٥)•

واروع الرثاء ما ندب به الابطال في حومات القتال ، لان الشعراء في بكائهم ، وفي تعداد مناقب الموتى ، يثيرون الاحقـــاد ، ويشحذون العزائم ، ويهيجون القبيلة للحرب ، ويدعون الى الاخذ بالثأر • وقد اصطبغ الرثاء بهذه الالوان حتى اصبح سنة من سننه •

فهذه الخنساء ترثي صخرا فتقول(٩٦) :

ألا ابلغا عني سُليما وعـامرا ومن كان من حيي هوازن شاهدا
بان بني ذبيان قد عرفوا لـــكم اذا ماتلاقيتم بان لا تعـــاودا
ونحن قتلنا مالكا وابن اختـــه ولا سلم حتى يشتفين عوائـــدا

وهذه أم ندبة ـ زوجة حذيفة بن اليمان ـ ترثي ابنهـا وتلوم زوجها على قبول الديه ويمكن اعتبار هـذه القصيدة من الموثبات في الشعر الجاهلي(☆) :

حذيفة لا سلمت من الاعـادي ولا وقيت شر النائبـــــات

---

(٩٤) ابن رشيق : العمدة ١٣٩/٢ ؛ قدامـة بن جعفر : نقـــد الشعر /٩٨

(٩٥) ابن رشيق : العمدة ١٤٠/٢

(٩٦) لويس شيخو : انيس الجلساء في شرح ديوان الخنســـاء ص ٤٨ بيروت ١٨٩٦

(☆) لويس شيخو : رياض الادب في مراثي شواعر العرب .

أيقتل ندبة قيس وترضى بانعام ونوق سارحات
اما تخشى اذا قال الاعادي حذيفة قلبه قلب البنات
فخذ ثأرا باطراف العوالي وبالبيض الحداد المرهفات
وإلا خلني أبكي نهاري وليلي بالدموع الجاريات
لعل منيتي تأتي سريعا وترقيني سهام الحادثات
احب الي من بعل جبان تكون حياته اردا الحياة

والمهلهل بن ربيعة الذي عرف بمراثيه لكليب يقول في احدى مراثيه[٩٧] :

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها ان انت خليتها في من يخليها
كليب أيّ فتى عز ومكرمة تحت السفاسف اذ يعلوك مافيها
نعى النعاة كليبا لي فقلت لهم مادت بنا الارض اممادت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت وحالت الارض فانجابت بمن فيها

وقد كان الرثاء يتضمن المباهاة بالميت ، وتعظيم صفاته بالفاظ يتقاطر منها الاسى والدمع ، فيختلط الاعجاب بالحزن ، والفخر بالانتقام .

فهم يصفون الميت بجميع الفضائل التي يفاخرون بها ، باسلوب يتضح فيه التفجع والتلهف ، وينعون الصفات التي كان يتصف بها وكأنها ذهبت بذهابه ، واندثرت بموته .

فهذا اوس بن حجر يرثي فَضَالة بن كلدة فيقول[٩٨] :

ألم تكسف الشمس والبدر والـ ـكواكب للجبل الواجب[٩٩]
لفقد فضالة لا تستوى الـ ـفقود ولا خلة الذاهب[١٠٠]

---

(٩٧) لويس شيخو : شعراء النصرانية ١٦٦/١ .
(٩٨) اوس بن حجر : الديوان ص ١٠
(٩٩) الواجب : الساقط الذاهب
(١٠٠) الخله : الخلل الذي قد تركه وكان مسدودا به .. واصل الخالة : الثالمة .

ألهفا على حسن اخلاقه — على الجابر العظم والحارب[١٠١]
على الاروع السقب لو انه — يقوم على ذروة الصاقب

والخنساء ترثي صخرا ، وتنعى المجد والجود ، لانهما ماتا بموته ، وذهبا بذهابه فتقول[١٠٢] :

وقائلين تعزي عن تذكره — فالصبر ليس لامر الله مردود
يا بدر قد كنت بدرا يستضاء به — فقد مضى يوم‌مت المجد والجود

وللمهلهل قصائد كثيرة يبكي فيها الحزم والعزم ، لانهما دُرسا بعد كليب ، ويندبه لانه قائد الخيل يوم المعركة ، وناحر الكوم ساعة الكرم ، وواهب المئة الحمرا اذا دعا داعي العطاء .. لان هذه الصفات كانت تتجلى فيه ، وتتمثل في افعاله[١٠٣] :

أضحت منازل بالسلان قد درست — تبكي كليبا ولم تفزع اقاصيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته — ما كل الآئه يا قوم احصيها
القائد الخيل تردي في اعنتها — زهوا اذا الخيل بَحّت في تعاديها
الناحر الكوم ما ينفك يطعمها — والواهب المئة الحمرا يراعيها

فالشاعر في هذا يجمع بين الندب والتأبين والعزاء ، وبكاؤه بكاء لكل الصفات الخيرة التي يضفيها على الميت . وهذا دريد بن الصمة ينفي أنواع التشكي كلها عن أخيه عبدالله ، فهو لا يتألم للنوائب تنزل بساحته ، والمصائب تتجدد عليه في ذويه وعشيرته ، وانه يحفظ من يومه مايتعقب افعاله من احاديث الناس في غده ، وهو نقي الافعال من العيوب ، طيب الاخبار في افواه الناس ، صبور على العزاء . ثم يصفه بقلة الطعم مع اتساع الحال ، فترى بطنه منطويا والزاد معد ، لانه

---

(١٠١) الحارب : المحارب او الذي يسلب الناس اموالهم في الغزو .
(١٠٢) لويس شيخو : انيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ص ٥٥ .
(١٠٣) لويس شيخو : شعراء النصرانية ١٦٦/١

يؤثر به غيره على نفسه ، فهو يغدو في القميص الممزق اذ كان يبتذل نفسه فيما كان يكسبه فخرا وعلوا • فيقول[١٠٤] :

قليل التشكي للمصيبات حافظ" من اليوم اعقاب الاحاديث في غد
تراه خميص البطن والزاد حاضر عتيد ويغدو في القميص المُقَدَّد

واذا لم يجد الشاعر الجاهلي بدا من الميتة التي مات عليها الميت، استسلم للقضاء ، وعندها يبدأ بتعزية نفسه بذكر مصائب الدهر ، وان الحياة لا تدوم ، وان الموت لا مهرب منه لكل حي مهما تمكن من القوة والصلابة ، وان الانسان عاجز امام الموت ، ضعيف حيال سطوته ••

فهذا لبيد يرثي أخاه اربد فيقول[١٠٥] :

بَلينا وما تبلى النجومُ الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع[١٠٦]
فلا جزع ان فرق الدهر بيننـــا وكل فتى يوما به الدهر فاجـع

والنابغة الذبياني في رثائه للنعمان بن الحارث يكرر نفس المعنى فيقول[١٠٧] :

فان تك قد ودعت غير مـذمم اواسي ملك ثبتتها الاوائـــل
فلا تبعـــدن ان المنية موعـــد وكل امرىء يوما به الحال زائل

وقد قامت المرأة بقسط كبير في البكاء ، فشاركت الشعراء فيه ، حتى لا نكاد نفرق بينهما في جوهر الرسالة التي يؤديانها للقبيلة ، بل وربما كان للنساء الحظ الاوفر منه • فكن يلطمن الوجوه ،ويقرعن الصدور ويشققن الجيوب ، ويقمن المآتم •

وطبيعي ان تكون النساء اشجى الناس قلوبا عنـد المصيبـــة ،

---

(١٠٤) المرزوقي : حماسة ابي تمام ٢/ ٨٢٠
(١٠٥) شرح ديوان لبيد ص ١٦٨ •
(١٠٦) المصانع : القصور
(١٠٧) شعر النابغة في مجموعة الاعلم ١/ ١٩٧

واشدهم جزعا على الهالك(١٠٨) .

لقد كان الرثاء يعتمد على الانفعال بالتجربة الانسانية ، وتصوير الاحساس بالفجيعة ، لانه ينبع من احساس الشاعر بارتبـــاط المرثي بالجماعة ارتباطا وثيقا ، ومن شعوره بالفراغ الذي يتركه وراءه ، لذا فقد ارتبطت عباراته ومعانيه ارتباطا نفسيا واجتماعيا باوضاع المجتمع الجاهلي .

والشاعر الجاهلي على الرغم من تسليمه بالموت حقيقة واقعة ، لكنه يحاول ان يعلله باسباب كما جاء في مرثية دريد بن الصمة لاخيه عبدالله ، فهو مقدام صائب الرأي ، حليم فيما يأتيه ، لا يطيش زهوا ، ولا يؤثر على الصواب شيئا(١٠٩) :

فان يك عبدالله خلى مكانـــه فما كان وقافا ولا طائش اليـد

او ان الشاعر يخفف من ألم المصيبة عنه بذكر طاعتـــه للمرثي ، واحتشامه منه مدة حياته ، واعظامه اياه في القول عند مخاطبته ، والعقل وقت مجالسته ولدى معاملته ، وفي ذلك ما يهون وجد الشاعر ، ويقلل من شدة حزنه وولهه(١١٠) .

وطيّب نفســي انني لم أقل له كذبتَ ولم ابخل بما ملكت يدي

ويبالغ الشاعر الجاهلي في تصويره للمرثي مبالغة كبيرة ، فالقتل لا يرضي الا المرثي لانه كريم ، والدهر يأبى في الاختيار ان يكون حظه غيره ، وان القتيل وقبيلته لم يرضوا من احداث الزمان فيهم الا بالقتل ، اذ كان ذلك عندهم احسن الميتات واكرمها ، فكأنهم قدروا للقتـــل وقدّر القتل لهم(١١١) .

---

(١٠٨) ابن رشيق / العمدة ١٤٥/٢ .
(١٠٩) المرزوقي : حماسة ابي تمام ٨٢١/٢
(١١٠) نفس المصدر ٨٢١/٢
(١١١) المرزوقي : حماسة ابي تمام ٨٢٤/٢

ابى القتل الا آل صمـــة إنهم   أبوا غيره والقدر يجري الى القدر
ارى الموت يعتام الكرام ويصطفي   عقيلة مال الفاحش المتشـــدد

وقد تدفع المبالغة الشاعر الى دعائه على الناس كافة بان لا يهنئهم الله بما يرعونه من حمى ، وما يحوزونه من مال ولُهى ، ويسوقون من اهل وولد ، ويجمعونه من عتاد وذخيرة ، مجسدا بذلك شعوره العميق بعدم جدوى الحياة بعد الميت ، قال النابغة يرثي اخاه(112) :

لا يهنيء الناس ما يرعون من كلإ   وما يسوقون من اهل ومن مال
بعد ابن عاتكة الثاوي على أبوى   أمسى ببلدة لا عم ولا خـــال

وهذا مسافع العبسي (113) يستقبح السرور بعد ان فجع ببني عمرو ، لان السرور كان يتصل بحياتهم ، والغم كان يحذر مخافة ان يكون فيهم ، حتى اذا مضوا لسبيلهم ، فلا شيء من اعراض الدنيا يستحق الفرح او الحزن ، ولكن الاعتصام بحبل الصبر هو الاولى والاحب دينـــا ودنيا .

أبعد بني عمرو أسر بمقبـــل   من العيش او آسى على اثر مدبر
وليس وراء الشيء شـيء يرده   عليك اذا ولى سوى الصبر فاصبر

والحديث عن الدهر في قصائد الرثاء كثير ، فهو يرمي سهام الموت فلا تطيش ولا تخطيء ، واذا ما رمى واصاب فلا عودة لمن يصيبه(114) .

ارى الدهر يرمي ما تطيش سهامه   وليس لمن قد غاله الدهر مرجع

والبكاء والحزن لا يجديان نفعا مهما طالا ، ولو كان الفداء يرجع الميت لافتدى بالاهل والاموال ، ولكن للموت ــ كما ذكرنا ــ سهام اذا اصابت المرء لا يغنيه طب طبيب ، ولا رقية راق ، قالت اخت ربيعة

---

(112) المرزوقي : حماسة ابي تمام جـ٢ ص ٩٠١
(113) المرزوقي : حماسة ابي تمام جـ ٢ ص ٩٨٩
(114) انيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ص ١٦٣

بن مكدم فارس كنانة[١١٥] :

ابكي على هالك اودى فأورثني بعد التفرق حزنا بعــده باقي
لو كان يرجع ميتا وجد ذي رحم اديم لي سالما وجدي واشفاقي
او كان يفدى لكان الاهل كلهم ومـا أثمر من مـال له واقي
لكن سهام المنايـا من نصبن له لم يُنجه طب ذي طب ولا راقي

فعلام الجزع وعلام البكاء ، فالدواهي تقرع كـل القلوب ، والمصائب تنزل بكل الناس كما يقول لبيد[١١٦] :

اتجزع مما احدث الدهر بالفتى وأي كريم لم تصبـه القوارع

وقد تصل بعض قصائد الرثاء درجة من العاطفة الصادقة والمشاعر المرهفة ، لصدورها عن قلب موجع ، وفؤاد ملتاع ، كما جاء في قصيدة متمم بن نويرة ، الذي ادعى ان اسباب الحزن ومهيجاتهتتشابه ، فكل منها يقوم مقام الآخر ، فالحزن يهيج الحزن ، والشجا يبعث الشجا،وان كل قبر ينتهي اليه يذكره قبر اخيه ، اذ ليس له في قبره الا مثـل ما له في القبور كلها[١١٧] :

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقيلتذراف الدموع السوافك
يقول اتبكي كـل قبر رأيتـه لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له ان الشجا يبعث الشجا فدعني فهذا كله قبر مالـك

وكذلك قصيدة دريد بن الصمة التي اعرب فيها عن فداحة رزئه ، وولهه لذلك المصاب العظيم[١١٨] .

ومن عادة القدماء ان يضربوا الامثال في المراثي بالملوك الاعزة ،

---

(١١٥) الاصفهاني : الاغاني ٦٢/١٦ دار الكتب
(١١٦) شرح ديوان لبيد ص ١٧٢
(١١٧) المرزوقي : حماسة ابي تمام ٧٩٧/٢
(١١٨) الاصمعي : الاصمعيات ١٠٩ ، شعراء النصرانية ١٦٦/١

والامم السالفة ، والوعول الممتنعة في قلل الجبال ، والاسود الخادرة[119] في الغياض[120] ، وبحمر الوحش المنصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات ، لبأسها وطول اعمارها[121] .

وطبيعي أن يكون الرثاء بعيدا عن النسيب ، فليس من عادة الشعراء ان يقدموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء ، وان المتعارف عند اهل اللغة انه ليس للعرب في الجاهلية مرثية اولها تشبيب الا قصيدة دريد التي رثى فيها اخاه عبدالله[122] والتي مطلعها :

ارث جديد الحبل من ام معبد بعاقبة ام اخلفت كل موعد

فالرثاء يكاد يكون في كثير من الاحيان صورة من صور الحماسة ، او مظهر من مظاهرها ، لان الشاعر يحاول ان يضفي على المرثي كل صفات البطولة ، كما يحاول ان يحرض على الاخذ بثأره اذا كان الموت قتلا . ومن الجدير بالذكر ان نذكر ان اغلب قصائد الرثاء لم تكن رثاء قاصرا على البكاء وحده ، وانما يختلط بالتهديد ، والاخذ بالثأر والفخر ، الا قصائد قليلة تتمثل في شعر النساء الذي انطلق من افواههن فكان قصائد خالصة للرثاء . وقد حفل الادب العربي بكثير من هذه القصائد التي اطلق على بعضها اسم الموثبات ، لما تثيره في نفوس القوم من حماس ، وما تبعثه فيهم من اثارة فكأن الحماس عنصر من عناصره وداع من دواعيه .

---

(119) اسد خادر ، اي داخل الخدر ، ويعني بالخدر الاجمة .

(120) الغيضة : الاجمة ، وهي مغيض ماء يجتمع ، فينبت فيه الشجر والجمع غياض .

(121) ابن رشيق ١٤٣/٢

(122) ابن رشيق : العمدة ١٤٤/٢ . وقد لاحظنا ان هناك قصائد اخرى قيلت في الرثاء وافتتحت بالتشبيب كمرثية المرقش الاكبر في ابن عمه ثعلبة بن عوف (المفضليات جـ٤ ص ٣٧) .

أثر الحرب في شعر الفروسية

لم يكن منظر الحرب من المناظر الطبيعية التي ألفها الفرد ،وتعود على رؤيتها ، كما ان نظرته اليها تختلف اختلافا عميقا عن نظرته الى مظاهر الحياة العادية ، لان الحرب بطبيعتها تبعث مشاعر الانسان الكامنة ، وتثير فيه الاحاسيس ، من رغبة ورهبة . وأمل ويأس ، الى غير ذلك من الخواطر التي يبعثها تعاقب صور الحوادث في الحروب على مسرح فكره ، فتجعل الشخص يحس احساسا غريبا بكل ما يدور حوله . فالمنتصر فيها تعلوه النشوة وينتابه الشعور بالسيطرة ، فتموج عاطفته بالمشاعر المعبرة عن قوته وبطولته ، وينطلق لسانه يتغنى بلذة واعجاب ، والمغلوب على أمره يحس بالخيبة والخذلان ، ويعلل نفسه بالاسباب .

والحرب تستلزم الشعر ، فهي أشبه شيء بالثورة السياسية التي تستدعي النهضة الادبية التي تسير جنبا الى جنب معها ، وتتفاعل تفاعلا عضويا مع احداثها ، تؤرث نارها ، وتسجل آثارها ، وتدعو اليها ، فكانت هذه الفنون الشعرية المتصلة بها اتصالا وثيقا ، والمتفقة مع دواعيها اتفاقا كليا ، من حماسة وفخر وهجاء ورثاء .

فالتجارب الكثيرة التي خاضها الشعراء الفرسان ، واظهروا فيها قابليات رائعة ، الهمتهم الدقة في الوصف ، والحس في التصوير ، والاجادة في التركيب الشعري ، لانها في الواقع كانت تمثل المحور الاساس الذي تدور عليه الحياة الجاهلية . فالتضحية عندهم سهلة ، يقدمون عليها اذا كانت حصيلتها مكاسب تدخرها العشيرة ليوم التفاخر ، ويبذلون في سبيلها كل ما يقع بين ايديهم ، فاسترخصوا الحياة دفاعا عن الشرف ، واستسهلوا الموت ذودا عن الكرامة ،معتقدين اعتقادا اكيدا بأن الاقدام

في الحرب لا ينقص عمر المتقدمين ، وان الاحجام لا يزيد عمر المتأخرين ، وبأن الذي يطلب الموت توهب له الحياة ، فلا مجال للجبن والخضوع ، وان الميتة الحقة هي التي تكون في خضم المعركة لينال المقتول شرف المعالي ، ويكسب فخرا تضيفه القبيلة الى مفاخرها ، وليظل ذكره نشيدا تترنم به الاجيال من بعده .

ومن هنا زخر شعرهم بذكر الحروب ، وتباهى الشعراء بالحشود ، وتفاخروا بالقتلى والضحايا والسبايا وشن الغارات ، وبكوا قتلاهم بكاء مرا ، وهجوا عدوهم ونشروا مخازيه ، وذكروا جبنه وفراره ، وبذلك تتجاوب اطراف الجزيرة بهذا الشعر الحربي الذي كان وقودا لهذه النار ، ليتمكن من مسايرة هذه السلسلة الطويلة من الحروب والايام .

وكانوا يتخذون الشعراء واسطة للتعبير عن أهدافهم ، كما كانوا يجعلونهم وسيلة لاثارة الحرب ، وبهذا يكون الشاعر لسان حال القبيلة ، يعبر عن دخائلها واغراضها ، وكان حقا على القبيلة رعاية الشاعر ، والاعتزاز به ، والاهتمام بقصائده ، لانها سجل حافل لتأريخها ، واثر خالد من مآثرها التي تبرزها وقت المفاخرة ، وسلاح امض من سلاح السيف وافتك في اجساد الخصم يرد عنها طعون الاعداء .

وكانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصفت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لانه حماية لاعراضهم ، وذب عن احسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، واشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، او شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج(١٢٣) .

والشعر الجاهلي حافل بذكر الحرب ، زاخر بصورها ، وقد

---

(١٢٣) ابن رشيق : العمدة ١/٤٩

اختص قسم من الشعراء الجاهليين بذكرها ، كعنترة لكثرة ما خاض من المعارك ، حتى قال فيه الاصمعي : « ذهب امية بن أبي الصلت في شعره بعامة ذكر الآخرة وعنترة بعامة ذكر الحرب »[١٢٤] .

وقد اتصف قسمٌ من الشعراء بعدم الاندفاع وراء الخيـــان في المبالغة ، لما يصيب اعداءهم في المعركة ، وانما كانوا معتدلين منصفين ، يذكرون ما وقع لخصومهم في المعركة وما وقع لقومهم فيها دون تحيز ، ويعترفون لخصومهم بالبأس والنجـدة والمروءة ، فلا يذمونهم ولا يجردونهم من صفات الفروسية الحقة التي يعترفون لهم بها .. فهـذا عمرو بن كلثوم يعترف في معلقته لاعدائه بالشجاعة ، فالسيوف في ايدي قومه وايدي اعدائهم كأنها مخاريق بايدي لاعبين ، وهم يقتلون منهم كما يقتل من قومه ، وثيابهم جميعا ملطخة بالدماء[١٢٥] :

كأن سيوفنا فينـــا وفيهم ‏ مخاريق بأيدي لاعبينـــا
كأن ثيابنـــا منـا ومنهم ‏ خُضبن بارجوان أو طلينـــا

وهذا النوع من القصائد سمي بالمنصفات ، وقد ذكر الخالديان في الجزء الاول من الاشباه والنظائر[١٢٦] نقلا عن الرواة : ان منصفات اشعار العرب ثلاثة ، اولها قصيدة عامر بن معشر بن اسحم بن عدي ، والثانيـة لعبد الشارق بن عبدالعزيز الجهني[١٢٧] والثالثة للعباس بن مرداس السُلمي ، كما اطلق العرب على بعض القصائد اسم الموثبـات لان الغرض من القائها غالبا يكون اثارة الحرب والتهيؤ لها ، وايغـار الصدور ، كالابيات التي انشدتها البسوس عندما تعرض كليب لناقة الجرمي فقالت[١٢٨] :

---

(١٢٤) النويري : بلوغ الارب : ٢٥٣/٢ .
(١٢٥) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ص ٣٩٧
(١٢٦) الاشباه والنظائر : ص ١٤٩
(١٢٧) ويذكر في الحماسة : عبد الشارق بن عبد العزى وهو صواب .
(١٢٨) جاد المولى وجماعته : ايام العرب في الجاهلية ص ١٤٥ .

أبا سعدُ لا تغرر بنفسك وارتحل فاني في قوم عن الجار اموات
ودونك اذوادي اليك فانني لماضيم سعد" وهوجارلابياتي[129]
لعمرك لو أصبحت في دار منقذ لما ضيم سعد"وهوجارلابياتي[129]
ولكنني اصبحت في دار معشر متى يعد منهاالذئب يعدعلىشاتي

لقد امدت الحروب الجاهلية الشعراء بمعين ثر ، وهيأت لهم المجالات الواسعة ،للانطلاق بمواهبهم الشعرية بشتى نواحيها ،ومختلف اتجاهاتها ، فكانت حافزا قويا ، ومصدرا خصبا من مصادر الالهام ، اثارت في نفوس الشعراء مختلف الاحاسيس والعواطف ، فانسابت على ألسنتهم اغاني عذبة ، واناشيد رائعة ، وفي غمرة اصطلائهم بنيران الحروب ، وغشيانهم معمعان الوغى ، تتفجر نفوسهم شعرا حماسيا بليغا ، فتتجاوب مع أصدائه الحان الفخر ، وملاحم النصر .. والى ذلك يذهب ابن سلام في تعليله لقلة شعر قريش وغيرهم فيقول : « وانما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الاحياء ، نحو حرب الاوس والخزرج او قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل من شعر قريش انه لم يكن بينهم نائرة[130] ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان واهل الطائف »[131] .

فالحرب عامل كبير من عوامل دفع الشعراء لقول الشعر، لانها وسعت آفاق النظم ، وخلقت لهم المجالات الرحبة للتعبير ، فانطلقوا يشيدون بمفاخرهم ، ويتغنون بانتصاراتهم .

لقدكان شعر الحرب أقوى ما نظم الشعراء واتقاه ، لانه يتصل بالامة فيضم مجد ماضيها الى عزة حاضرها ، وهو وحده ـ بعد هذا ـ سجل فخرها ، وعنوان بأسها ، ونشيد بطولتها ، لانه صور بأس الابطال

---

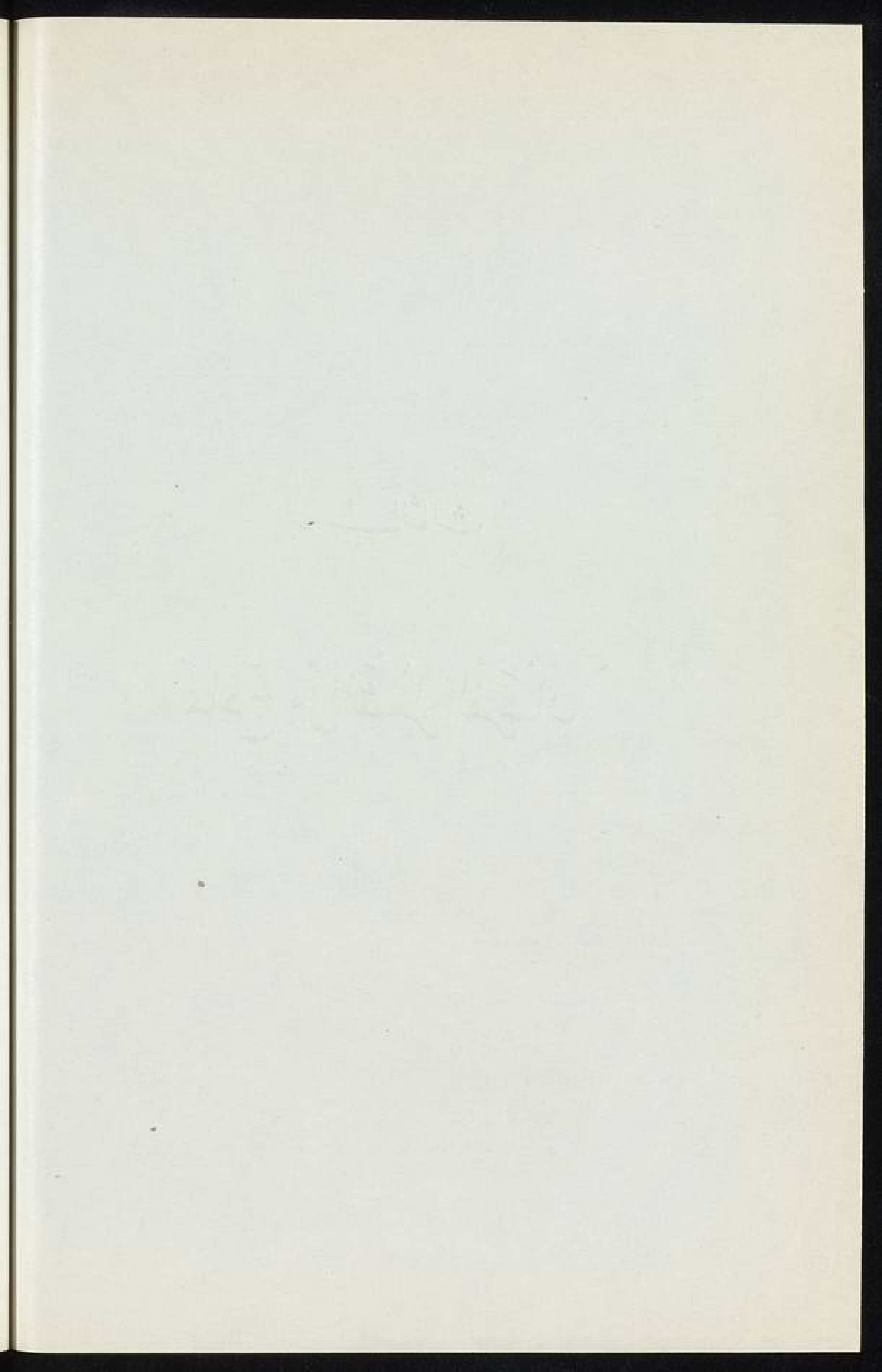
(١٢٩) منقذ : ابو البسوس وهو من تميم .
(١٣٠) النائرة : الحقد والعداوة تقع بين القوم فتثير شعورهم .
(١٣١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٢١٧

في حومات الوغى ، وفروسية الفرسان في زحمات القتـــال ، فأكثـــر الفرسان من الشعراء المجيدين الذين يستثيرون الهمم في قلب المعارك بما يتمثلونه من الشعر عند المبارزة ، وشن الغارة ومقابلة الخصم عند اشتداد دائرة الحرب ، وما قصائد عنترة وعامر بن الطفيل ودريد بن الصمة الا امثلة حية لتلك الاناشيد .

لقد شغلت الحرب معظم جوانب الحياة ، وملأت اوصافها اغلب معاني اللغة ، فكان الفخار بالبطولة والفروسية وقديم الايام من مظاهر شعرهم الحربي ، وكانت القصائد التي تتمدح بذكر الشجاعة في القتال، والبطولة في المعارك ، من ابرز اغراض الشعر الجاهلي ، وكانت لابواب الحماسة المكانة الاولى في منتخباتهم ، لان العرب بها احفى ، ولهـــا اروى ، ولان شجاعة العرب ومآثرهم الحماسية الصق بسجاياهم ، واعرق ما فيهم من الصفات .

الباب الثالث

نماذج من الشعراء الفرسان



الفصل الاول

الحب عنـد عنترة

لقد احتفظت ذاكرة العرب على مدى الاجيال بشخصية من ابرز شخصياتها ، وفارس من اشجع فرسانها ، فكان المثل الاعلى في البسالة والبطولة الحربية ، وكانت أحاديثه نواة الملحمة الكبرى في تاريخ الادب العربي • عنترة الذي تمثلت في فروسيته معاني الرجولة العربية الكاملة، تمثلت بأفعاله واعماله ، بعفته وكرمه ، برقتـــه التي لا تنتهي به الى الضعف ، وصلابته التي لا تنتهي به الى العنف • فهو رجل حياء وتكرم، تمثلت بفخره الصورة الصادقة لنفسيته الرفيعة التي تــأبى القيود • وتسمو الى العلاء ، ولا تقبل الذل والصغار • وهو بعد كل هـــذه الصفات ، فارس تتمثل فيه الفروسية الحربية في أقوى صورها ، واروع معانيها •

لقد تحدث الرواة عن بطولة هذا الفارس ، واكثروا من حديثهم عن شجاعته ، فقد وصفه البغدادي[1] بأنه اشجع اهل زمانه ،واجودهم بما ملكت يده ، وكان شهد حرب داحس والغبراء ، وحملت مشاهــده فيها • وارجع صاحب الاغاني[2] سبب ادعاء ابيه ايــاه الى ان بعض

(١) البغدادي : خزانة الادب ١/٦٢ •

(٢) الاصفهاني : الاغاني ٨/٢٣٩ دار الكتب •

احياء العرب أغاروا على بني عبس فأصابوا . واستاقوا ابلا ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم ، فقاتلوهم عما معهم وعنترة يومئذ منهم ، فقاتل قتالا حسنا ، فادعاه ابوه بعد ذلك والحق به نسبه ، وعندما سئل عنترة عن شجاعته ، انت اشجع العرب واشدها ؟ قال لا . قيل : فلماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنت أقدم اذا رأيت الاقدام عزما ، واحجم اذا رأيت الاحجام حزما ، ولا ادخل الا موضعا أرى لي منه مخرجا ، وكنت اعتمد الضعيف الجبان فاضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فاقتله[٣] .

وكان عمرو بن معد يكرب يقول : ما أبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حراها وهجيناها . يعني بالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدين عنترة والسليك بن السلكة[٤] .

وعندما انشد النبي (ص) قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى واظله حتى انال به كريم المأكل

قال (ص) ما وصف لي اعرابي قط فأحببت أن أراه الا عنترة[٥] :

وقال عمر بن الخطاب (رضي) للحطيئة : كيف كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم . قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال : كان قيس ابن زهير فينا وكان حازما ،فكنا لا نعصيه وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل اذا حمل ونحجم اذا احجم[٦] .

هذا ما حدثنا به الرواة عن بطولة هذا الفارس ، وهي احاديث فخر واعتزاز ،تدل على فروسية هذا الفارس الذي تمثلت فيه القيم

---

(٣) نفس المصدر ٨/٢٤٤
(٤) نفس المصدر ٨/٢٤٦
(٥) الاصفهاني : الاغاني ٨/٢٤٣
(٦) نفس المصدر ٨/٢٤٤

البطولية والفروسية الجاهلية .

أما حديث عنترة عن نفسه ، فاننا نراه في قصائده التي سرد فيها تلك الوقائع التي أبلى فيها بلاء حسنا ، فاستحق بذلك تقدير الاجيال .

لقد كان عنترة من فرسان العرب المعدودين ، المشهورين بالنجدة والبأس ، وكان يقال له عنترة الفوارس ، لانه لم يعجز عن صيد الفرسان الدارعين :

ان تغدفي دوني القناع فانني طب بأخذ الفارس المستلئم(٧)

وعنترة فارس نحلته الحروب ، ورققت جسمه المعارك ، لانه عاش حياته عرضة لاطراف الرماح :

أما تريني قد نحلت ومن يكن غرضا لاطراف الأسنة ينحلِ(٨)
فلرب أبلج مثل بعلك بادن ضخم على ظهر الجواد مهبلِ(٩)
غادرته متعفرا أوصاله والقوم بين مجرح ومجدل(١٠)
فيهم أخو ثقة يضارب نازلا بالمشرفي وفارس لم ينزل

لقد حفظ عنترة وصية عمه باقتحامه القتال ، ومناجزته الابطال في اشد احوال الحرب ، وعندما تتقلص الشفاه من شدة كلوح الابطال ، فرقا من هول المعركة . وعندما تبدأ غمغمة الابطال ترتفع ، فتختنق صيحاتهم في افواههم . عند ذلك فقط يجعله اصحابه حاجزا بينهم وبين الأسنة ، وهو لا يجبن عن ذلك ولا يتأخر عن تلبية النداء(١١) :

---

(٧) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي جـ١ ص٣٧٤ . تغدفي : ترخي . طب : حاذق .

(٨) نفس المصدر ص ٣٩٠ .

(٩) ابلج : ابيض . بادن : ضخم . مهبل : قيل هو الثقيل .

(١٠) متعفرا : واقعا على العفر : التراب . والمجدل : الملقى على الجدالة وهي الارض .

(١١) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٣٧٨

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحا اذتقلص الشفتان عن وضح الفم[١٢]
في حومة الموت التي لا تشتكى غمراتها الابطال غير تغمغم[١٣]
اذ يتقون بي الاسنة لم اخم عنها ، ولو اني تضايق مقدمي[١٤]

وهو بعد كل ذلك ، البطل الذي يدعى في الحرب ، وينادى باسمه عند المعركة ليحمي قومه ، وعند ذلك تشتفي نفسه ، وتبرد غلته[١٥] :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم[١٦]
يدعون عنتر والرماح كأنها اشطان بئر في لبان الادهم[١٧]
ولقد شفى نفسي وابرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر اقدم

لقد خاض عنترة أشد المعارك واعظمها هولا ، وغزا مع قومه ، فكان في كل تلك المعارك رمزا للبطولة ، ومثالا للفروسية الكاملة ، فقد اشترك في حرب داحس والغبراء التي خاضتها عبس ضد ذبيان [١٨] ، وتجلت في تلك المعارك بطولاته ، وبرزت شخصيته ، ولمعت فروسيته النادرة . فكان حقا بطلا من ابطال تلك الحروب ، ورمزا حيا من رموزها التي سجلت لعبس اروع ايامها واخلد مآثرها .

وكما تحدث عن حرب داحس والغبراء، تحدث عن يوم الفروق[١٩]

---

(١٢) قوله تقلص : اذا فزع الرجل تقلصت شفتاه . عن وضح الفم : اي عن بياض الاسنان .

(١٣) حومة كل شيء : معظمه . وغمراتها : شدائدها . التغمغم . صوت نسمعه ولا نفهمه .

(١٤) لم أخم : معناه لم انكل ولم اضعف . وتضايق مقدمي: ضاق المكان الذي اقدم فيه ، فصرت في مضيق لارض لا استطيع ان اقدام فرسي فيه .

(١٥) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٣٧٩

(١٦) يتذامرون : يحرض بعضهم بعضا ويزجر بعضهم بعضا .

(١٧) كأن الرماح حين اشرعت اليه في طولها حبال .

(١٨) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي : (لابيات ٨١-٨٢-٨٣-٨٤-٨٥) .

(١٩) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨١ البيت الثالث .

ويوم عراعر[٢٠] ، ويوم الهباءة[٢١] ، وغيرها من الايام الطويلة التي خاض حروبها بكل جرأة ، وكتب فيها اروع آيات الانتصار والمجد .

ان الشجاعة التي تبرز عند عنترة ، نابعة من فلسفته التي آمن بها كل الايمان ، فالموت لابد منه ، وما دام الانسان يموت فالاجدر به أن تكون ميتة في الحرب ، لانها اولى من غيرها لما فيها من الايثار وعلو الذكر[٢٢] :

تعالوا الى ما تعلمون فانني	ارى الدهر لاينجي من الموت ناجيا

ان هذه الفلسفة التي مثلها عنترة لم تكن غريبة عن بيئته ، أو بعيدة عن طبيعة الحياة التي يحياها ، فهي مستمدة من الجذور الاصيلة التي تفرعت في نفسه ، فكانت تلك القصائد الخالدة التي تغنت بها الاجيال[٢٣] :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني	اصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها ان المنية منهل	لابد أن اسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا ابالك واعلمي	أني امرؤ سأموت ان لم اقتل
ان المنية لو تمثل مثلت	مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل

لقد كان عنترة فارسا وشجاعا ، تمثلت شجاعته في اخباره ، وتحشدت بطولته في احاديث الرواة عنه ، فقد خاض الحروب واظهر فيها بطولات نادرة ، ودافع خلالها عن قبيلته ، وسجل لها اروع الصفحات في تاريخ القبائل العربية ، وخلد لها اروع الذكريات في صفحات المجد العربي .

وبعد كل هذا يخلص عنترة من كل معاركه بعبارة البطل المنتصر

---

(٢٠) نفس المصدر ص ٣٨٢ البيت الاول .
(٢١) نفس المصدر ص ٣٨٥ ، البيتان الرابع والخامس .
(٢٢) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٢
(٢٣) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٩

الذي لم تهدر ممارسة الحرب قوته ، او تفت في عضده ، ولكن طول السنين ، ومرور الايام هي التي اضعفته ، واوهت قواه ، فظل يعيش امجاده البطولية ، ويتذكر ايامه الخالدة في التاريخ ، وهو واثق كل الوثوق بانه انجز مهمته في الحياة ، وقام بما تمليه عليه طبيعةالحياة التي عاشها ، ونظام العصر الذي وجد فيه . فكان حقا رمزا من رموز البطولة العربية النادرة ، وملحمة رائعة من ملاحم الشعر العربي .

أما مروءته ، فقد صورها لنا عنترة عندما فخر عليه رجل من بني عبس فقال : اني لاحتضرالوغى وأوَفّى المغنم ، واعفّ عند المسألة ، واجود بما ملكت[٢٤] .

وعند هذه الصفات تتمثل مرؤة عنترة ، وتلتمع لنا مثله الخلقية الراقية ، فهو قبل كل شيء عفيف ، تسمو به عفته فوق ما عهدناه عند كثير من الشعراء والذين ساروا وراء اللهو ، واقتفوا آثار العبث ، فاذا اراد ان يزور جارته ، زارها عند حضور زوجها ، فان خرج غازيا لم يغشها ، محافظة عليها ، وصيانة لعرضه وعرضها ، ويغض طرفه اذا بدت جارته ، حتى يتركها تدخل منزلها فيواريها ، ولا يتبعها نظره ، وهو يمنع نفسه اذا هوت ما يكون فيه غضاضة عليه ، وهو لا يتبع نفسه ذلك الهوى ، حتى اذا لجت في ارادته[٢٥] :

اغشى فتاة الحي عند حليلها   واذا غزا في الحرب لا اغشاها
اني امرؤ سمح الخليقة ماجد   حتى يواري جارتي مأواها
واغضّ طرفي ما بدت لي جارتي   لا اتبع النفس اللجوج هواها

وعنترة سمح المعاشرة كما ذكر ، يعامل اصحابه بمثل ما يظهرونه له من الخلق الحسن ، ولكن هذه السماحة لا تذهب به الى حد الافراط

---

(٢٤) الاصفهاني : الاغاني ٢٢٣/٩
(٢٥) ديوان عنترة : مجموعة الاعلم ص ٤٠٩

والتنازل ، فهو يعاقب من يظلمه عقابا بالغا[٢٦] :

اثني عليّ بما علمت فانني سمح مخالقتي اذا لم أظلم[٢٧]
فاذا ظلمت فان ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم[٢٨]

وهو يجود بما ملكت يده ، ولكنه يعرف الوجوه التي يبذل فيها الكرم ، وتنفق فيها الاموال[٢٩] :

فاذا شربت فانني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما اقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

وعنترة يعفو عند المسألة ، ويعف عند توزيع الغنائم ، لانه لم يخض الحرب من اجل الغنائم والاسلاب ، وعند هذه النقطة تتضح مروءة هذا الفارس وتتجلى بطولته وفلسفته في الحياة[٣٠] :

يخبرك من شهد الوقيعة انني اغشى الوغى واعفُّ عند المغنم
فارى مغانم لو اشاء حويتها ويصدني عنها الحيا وتكرمي

وهو يترفع عن المسألة ، ويأبى العيش الذليل حتى لو أدى به الى المبيت على الطوى ، وهذا منتهى الترفع ، ومبلغ السمو النفسي[٣١] :

ولقد ابيت على الطوى واظله حتى انال به كريم المأكل

ولم تقف مروءة عنترة عند هذه الحدود ، وانما تجاوزتها الى آفاق بعيدة من النبل والشهامة ، فعنترة لم يرزأ وليّاً ذا محافظة على حسبه ، الا وصله بضعف ما يصيبه منه[٣٢] :

---

(٢٦) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٣٧٤

(٢٧) يروى : سمح مخالطتي : اي سره معاشرتي ومخالطتي : اي معاملتي صاحبي بمثل ما يظهر لي من الاخلاق الحسنة .

(٢٨) باسل : كريه ، مر .

(٢٩) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص٣٧٥

(٣٠) نفس المصدر ص ٣٧٦

(٣١) نفس المصدر ص ٣٨٨

(٣٢) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٤٠٩

ولما رزأت أخا حفاظ سلعة الا له عندي بها مثلاه

وعنترة بعد كل ذلك يلبي دعوة من يناديه في الحرب ، ويجيب صرخة من يستغيث • ولم تكن التلبية بالقول والصياح فقط ، وانما بالعمل ، فيعطف عليه بفرسه ليرد عنه سيوف الاعداء[٣٣] :

ومكروب كشفت الكرب عنه بضربة فيصل لما دعاني
دعاني دعوة والخيل تردي فما أدري أبا سمى أم كناني
فلم امسك بسمعي اذ دعاني ولكن قد ابان له لساني
فكان اجابتي اياه أني عطفت عليه خوار العنان
باسمر من رماح الخط لدن وابيض صارم ذكر يمان

بهذا الخلق النبيل وبهذه الفروسية العربية ، تتمثل لنا شهامة هذا البطل ومروءته التي عاش من اجلها عفيفا على الرغم من كل الانتصارات التي حققها • لقد صان عنترة انتصاراته بمروءته ، وحافظ على فروسيته بنبله وشهامته ، وبذلك استحق التقدير والاعظام ، واصبح ذكره مثلا نادرا من امثلة الفرسان الاماجد الذين تألقت اسماؤهم في عالم المروءة العربية ، فكان حقا رائدا من روادها ، وبطلا من ابطالها •

أما حب عنترة ، فهو جانب كبير من جوانب الحياة عنده ، لانه يمثل الفروسية الشريفة التي هيأت مثلها الرفيعة لظهور الغزل العذري عند العرب ، واوجدت النواة المشرقة التي مهدت لظهور الشعراء الغزليين ، فلونوا الادب باشراقاتهم ، وزينوا جوانبه بتفانيهم المطلق في سبيل من أحبوا •

لقد كان الحب عند العرب نغمة تبعث الشعور الصادق ،والعاطفة النبيلة ، وتوقظ صفات الرجولة والبسالة ، فكان لكل فارس حبيبته التي توحي اليه امثولة الشجاعة ، فكانت فروسية العرب فروسية نبيلة تمتاز بالاخلاص والتفاني •

---

(٣٣) نفس المصدر ص ٤٠٤ .

وعنترة احد هؤلاء الفرسان الذين اوحى اليهم حبهم بالبطولة ، فألهب فيهم العواطف الرقيقة ، ودفعهم الى اقتحام المعارك ، فخاض اعنفها واشدها ضراوة ، وخرج منها مرفوع الرأس ، مسجلا لعبس ايامها الخالدة .

أما حديث عبلة ابنة العم التي شغف بها عنترة ، واكثر من القول فيها ، فكان يمثل حرمانه ولوعته وتظلمه ، لانه ابدى فيه آلامه التي يحسها ، وتباريحه التي كان يعانيها في سبيل الوصول اليها ـ وهو قبل كل شيء ـ يمثل غزل الفرسان في ابلغ صوره ، واجلى معانيه ، واسمى عواطفه ، لانه نموذج حي من حياتهم ، ونمط فريد من انماط معيشتهم التي اختلطت فيها ألفاظ الحرب بألفاظ الحب .

وقد لعبت المرأة دورا كبيرا في الحياة الجاهلية بكل صورها ، وبجميع اشكالها ، فهي ملهمة الابطال في ساحات الحرب ، وموحية الرقة واللطف في لحظات الهدوء والاستقرار ، منحتها الطبيعة الصافية معاني الحياة الجميلة ، فأصبحت اغنية عذبة تتردد على أفواه الشعراء ، تعن لهم ذكراها ، وهم في ذروة الحرب،ويتمثلونها بين مطارح السيوف، وتتألق صورتها في اذهانهم في كل زمان ، حتى حين تعبث بهم سيوف الاعداء ورماحهم ، فتعلوهم النشوة ويمتلكهم الفخر ، ويدفعهم الشوق الى طبع قبلة النصر على صفحات السيوف(٣٤) :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

لقد احب عنترة عبلة ، وحارب في سبيل هواها . فكان حبه لها حبا خالصا مجردا،تمثلت فيه روحه الصادقة ، وتجسدت أمانيه الروحية، فعبر عن حبه في نفسه ، وصدقه في عاطفته ، فكان نموذجا يختلف عن

(٣٤) ديوان عنترة : تحقيق عبدالمنعم شلبي ص١٥٠ .

النماذج الاخرى في هذا المجال ، ومنهجا يخرج عن مناهج الغـزل في عصره .

لقد عاشت عبلة حياته كلها ، تمثل له في مسالكه ، وتشخص امامه في دروبه ، ويتحمل من أجلها أقسى المظالم ، ويجرع بسببها أفظع أنواع العذاب . ولكنه برغم ذلك يظل مخلصا لحبها ، أمينا لذكراها ، لقـد كانت عبلة سبيل عنترة الى معاني البطولة والفروسية[٣٥] :

ولئن سألت بذاك عبلة أخبرت أن لا اريد من النساء سواهـا

والحب انشودة الوجود منذ كان الوجود ، فهو اللحن الذي تعالى من اعماق الازلية ، ليظل متعاليا حتى نهاية الابدية ، تختلج بـه الاعماق ، وتضطرب به الجوانح ، وتسمو بصفائه الارواح ، ويطلقه المحبون على شفاههم في شبه صلوات وتراتيل .

والنفس مهما أقلقتها مطالب الايام،أو واتتها ظروف الحياة،لتنشده بارتياح وشغف وتعاطف ، وترتبط في خيوطه بآمال كبيرة ، لانه قيمة خيرة من قيم الانسانية النبيلة ، ومثال رفيع من امثلتها الحية .

وهكذا داعب الحب نفس عنترة ، فكان شاعرا رقيقا ، رفعه حبه لعبلة الى مراتب الشعراء المجيدين ، ورافقه في جميع مواقفه ، فكان حافزا له على الشجاعة والاقدام . لقد كان عنترة عاشقا محبا ، نفـذ الحب الى اعماق ذلك القلب القوي فأرقه ، وعملت المرأة في تلك الروح الجبارة فأكسبتها لطفا وجمالا ، وليس كالمرأة في تغذية الروح بالجمال واللطف . فهي قد الهمته أرق المعاني ، وفجرت في نفسه مصادر الوحي وينابيع التسامي ، فعاش محلقا في سماء المثل العليا . يناجي حبيبتـه بأرفع آيات الود ، وأعذب أناشيد الحياة .. فكان حقافارسا في حبه ، مترفعا في عاطفته .

---

(٣٥) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٤١٠.

ان حب عبلة جعل منه رجلا فوق الرجال ، فمن أجل عبلة ومن أجل ارضائها خاض ما خاض من حروب ، وسبى ما سبى من ابطال ، ومن اجلها ذاد عن قومه ، وحمى حماهم ، ومن اجلها طلب الحرية بكل الوسائل ، ليتساوى مع من احب . فبدا لنا شاعر المعامع والمعارك من ناحية ، وشاعر الحب الذبيح والغزل الحزين ، من ناحية اخرى[٣٦] :

يا عبل كم من غمرة باشرتها ... بالنفس ما كادت لعمرك تنجلي
فيها لوامع لو رأيت زهاءها ... لسلوت بعد تخضب وتكحل
اما تريني قد نحلت ومن يكن ... غرضا لاطراف الاسنة ينحل

لقد ارتفع عنترة حتى وصل الى أرقى درجات البطولة ، وازدان اسمه بأسمى فضائل الفروسية من شجاعة وعطف،فهو مثل اعلى للفارس الكامل الذي لا تقف بطولته عند حد ، ولا تعرف فضائله نهاية . لقد كان عنترة يتسامى لا في خلقه فحسب بل في حبه ايضا ، لانه كان يؤمن ايمانا مطلقا بهذا الحب ، ويؤمن بأن حبيبته قد نزلت من قلبه منزلةمن يحب ويكرم[٣٧] :

ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

لقد ظل عنترة يتغنى بعبلة طوال حياته غناء المحب المحروم ، الغناء الذي يستشف منه الاحساس بالحزن واليأس ، لقد كانت نفسه خصبة، فشدا بالشعر ، ومضى يتغنى بحبه غناء رائعا ، فاقترنت الحماسة بالحب ، والالم بالشعر . وقدحاول أن يبرهن لعبلة في كثير من أشعاره، على انه وان كان قد فاته جمال الصورة فلم تفته الشجاعة والمناقب التي تستأثر بالقلوب . فقد اشعلت عبلة قلبه حبا ، ولم يصبه من هذا الحب سوى الحرمان والشقاء . الا انه لا ينساها لانها تملأ نفسه من جميع اقطارها . وهو كما يتجشم أهوال القتال ، يتجشم أهوال هذا الحب

---

(٣٦) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٣٩٠
(٣٧) نفس المصدر ص ٣٧٠ .

اليائس . ولهذا فقد ظل وفيا لحبه ، يحمي المعاهد التي كان يزور فيها صاحبته بالرغم مما انتهت اليه مأساة حبه ، وبالرغم من تحول عبلة عنه الى معاهد جديدة[٣٨] :

حييت من طلل تقادم عهـــده أقوى واقفر بعد أم الهيثم[٣٩]
حلت بأرض الزائرين فاصبحت عسرا علي طلابك ابنـةمحرم[٤٠]

لقد شغل الحب قسما كبيرا من معلقته ، فتراءت عبلة فيها عروسة من عرائس الشعر الخالدة ، يغني لها ارق غناء ، وينشدها أعذب مـا تجيش به نفس ، وينبض به قلب ، فاصبح الغرض الاصلي من المعلقة الغزل . اما ذكر البطولة والعفة وغير ذلك من الاغراض فانما هي وسائل للتمكن من غزو قلبها ، ليعوض بهذه البطولة ما فقده من جمال اللون ، وضعة النسب من قبل أمه ولتكون تلك الاغراض مفخرته التي يفتخر بها ، ومجده الذي يعتد به[٤١] :

ان تغدفي دوني القنـاع فانني طب بأخذ الفارس المستلئم[٤٢]
أثني علي بما علمت فـانني سمح مخالطتي اذا لم أظلم[٤٣]
فاذا ظلمت فان ظلمي باســل مر مذاقته كطعم العلقـم[٤٤]

والغريب ان المؤرخين لم يخصوا عبلة بجانب كبير من أخبـارهم

---

(٣٨) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٣٧٠.
(٣٩) اقوى واقفر : خلا ممن كان يسكنه . وام الهيثم : هي عبلة.
(٤٠) الزائرين : الاعداء . جعلهم يزارون زئير الاسد ، شـبه وعيدهم بالزئير .
(٤١) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ٢٣٥ .
(٤٢) الاغداف : ارخاء القناع على الوجه والتستر . طب :حاذق. المستلئم : اللابس اللأمة ، واللأمة : الدرع .
(٤٣) أصل الظلم : وضع الشيء في غير موضعـــه . وتروى مخالقتي .
(٤٤) ان ظلمني ظالم فظلمي اياه باسل لديه ، كريه عنده .

خلال أحاديثهم عن عنترة ، بل تكاد تخلو رواياتهم من حبها ، على الرغم من تردد اسمها في شعره وفي معلقته خاصة[٤٥] ، فهم يكثرون من الحديث عن جوانبه الاخرى ، ويهتمون بالتحدث عن وقائعه ، وسواد بشرته وعبوديته وبطولته في حرب داحس والغبراء وغيرها ، واذا ما قيض لهم المرور باسم عبلة ، كان مرورهم لماما ، وذكرهم عرضا ، وهكذا كان الحديث عن الجانب الحيوي من حياة هذا الشاعر منسيا .

فالتاريخ يحدثنا عن محاولة عمه مالك بن قراد العبسي ، منعه من زواج عبلة واكراهها على الزواج من رجل آخر ، ليبعدها عن عنترة ، ولكن قلب عنترة يظل خافقا بومضات حبها ، مشدودا الى نظراتها الحالمة . وهو في كل هذا الفيض العاطفي ، لا يتناسى بطولته الحربية ، ولا ينسى سلاحه ، لانه وسيلته في البسالة ، وطريقه الى المجد . ولكن هذه المحاولة التي حاولها عمه لم تزده الا تعلقا بحب عبلة ، ولم تفجر في نفسه الا ينابيع الحب العذبة ، التي لونت قصائده ، فكانت قلائد تحلي جيد الادب العربي .

على ان عبلة لم ترافق عنترة في شعره العربي وحده ، بل رافقته في شعره الحماسي أيضا ، وكثر ذكرها فيه ، ولابدع في هذا اذا علمنا ان النضال العنيف الذي خاضه عنترة في حياته كان في سبيل حبه، فهو يذكر عفته وجوده واباءه وشمائله ليستميل قلب عبلة ، وينسيها سواد لونه الذي اثار في اعماقه الآلام الممضة ، فكان صدى ذلك في نفسه حسرة وألما وشجونا ، ودفعته الى صنع المعجزات[٤٦] :

هلا سألتِ الخيل يا ابنة مالك ... ان كنتِ جاهلة بما لم تعلمي
اذ لا ازال على رحالة سابح ... نهد تعاوره الكماة مكلم[٤٧]

---

(٤٥) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ٣٦٩/٣٧٠ – ٣٧٦/٣٨٩/٣٩٠ وغيرها .
(٤٦) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ص ٣٤٢
(٤٧) الرحالة : سرج كان يعمل من جلود الشاء باصوافها ،يتخذ

طورا يجود للطعان وتـــارة يأوي الى حصد القسي عرمرم[48]
يخبرك من شهد الوقيعـــة أنني اغشى الوغى واعف عند المغنم

وعلى الرغم مما فعله عنترة ، وسجله لقومه من الحوادث ، ومـا فعلت كمه في اعدائه ، الا ان ذلك لم يغير من حقيقة عنترة شيئا في نظر قومه ، فكان له معهم شكاية ، وكان له منهم عتاب •

لقد عرفه قومه عبدا لا يشارك فيما يشارك فيه الاحرار،فاحتملوه على غير رغبة منهم ، فكانت اليه منهم لفتات تشعره بالانتفاض،وتثير في نفسه الالم •

واخوته الذين يعيشون المأساة نفسها حاول ان يحتال من اجلهم، فأوحى الى خير اخوته في نفسه وكان يدعى حنبلا ان يروي مهره من اللبن ، وان يمر عليه عشاء في نادي قومه ، فاذا قال له عنترة ما شأن مهركم متخددا مهزولا ضامرا ، أهوى حنبل بالسيف الى بطن المهـر فيضربه فيظهر اللبن[49] ، محاولا بذلك ان يدعيهم قومه ، ويبعدهم عن هذه المأساة التي يعيشون فيها •

لقد كانت عقدة اللون عند عنترة واضحة في بعض قصائده،وكانت هذه العقدة سببا من أسباب مأساته التي عاناها ، لقد كان المجتمـــع الجاهلي قاسيا على اولاد الاماء ، فهم سبة يعير بها الآباء ، وهم اغربة العرب كما نعتوهم • وما حيلة هؤلاء اذا رسمتهم الطبيعة بهذا اللون ، وما جريمتهم حتى يلاقوا من مجتمعهم هذا الازدراء والهوان ، ويعيشوا بعيدين عن الحياة ، منبوذين من النـــاس ، لا ينظر اليهم الا نظرات السخرية والاحتقار • لقد ولد عنترة في هذا المجتمع ، ولد وهو على

للجري الشديد ، النهد : الغليظ ، تعاوره الكماة اي يطعنه ذا مرة وذا مرة . المكلم : المجروح .

(48) يأوي الى حصد القسي : اي جيش كثير القسي .

(49) الاصفهاني : الاغاني ٣٤٣/٨ دار الكتب .

هذه الهيئة التي لم يكن قادرا على تغييرها ، ولم يكن له يد في اختيارها ، ولد أسود البشرة ، ترمز ملامحه الى آثار العبودية ، ولكن المجتمع كان لا ينظر الى هذه الاحداث نظرة الفاحص المتأمل ، فكان اللون مبعثا للاهمال ، وكانت العبودية سببا من اسباب الاحتقار والسخرية .

ان نفس عنترة العظيمة لم تقف امامها هذه العوائق ، ولم تحدد خطواتها هذه العراقيل ، فاستطاعت ان تحقق المعجزات ، وتكسب الفخر ، وتخلد لعبس المناقب الحميدة ، كما أثبتت بتلك المفاخر ان اللون لم يكن حائلا دون نيل المجد ، ولم يكن مانعا من ادراك أسمى ما يتوق اليه البشر . لقد كانت عظمة نفسه تتجلى من خلال تلك القصائد التي جعلت منه علما من اعلام الشجاعة والعفة ، وعنوانا للحب الصادق ، فتغنى به العشاق والابطال والكرام ، واصبح قصة تروى على الاجيال ، وتسمع على مدى الدهور .

لقد اضفت هذه المأساة على شعر عنترة لونا حزينا ، واكسبته طابعا عاطفيا رائعا ، لانه سجل فيه نفسه التي آلمها السواد ، فوقف حائلا دون تحقيق ما كانت تصبو اليه في مجال الحب ، والوصول الى من بذل في سبيلها أقصى ما يمكن أن يقدمه انسان ، ويبذله شخص .

لقد ملأ حب عبلة قلبه ، فجاشت نفسه غراما ، وملك عليه جوانحه ، ومن خلال ذلك كانت ترتسم لنا الصورة الفريدة لعنترة التي تميزه عن جميع الفرسان الجاهليين .

ولقد اعطانا عنترة صورة للعشق بمعناه الروحي الذي يجعل من البطل المغوار انسانا رقيقا ، تسعده البسمة أكثر من اللمسة ، ويغنيه الرضى النفسي عن اللقاء الجنسي ، وقد تجلت شاعرية عنترة في التعبير عن هذا المزج الشعوري عند الفارس العاشق . فهو محب صادق الحب ، وليس طالب لذة عابرة ، وهو مصر على هذا الحب مهما لاقى في سبيله من صعاب وعقبات ، ومهما تدخل القدر . لقد تجاوز عنترة في تصويره

لهذا الحب جميع النواحي الموضوعية والمادية ، وارتفع الى مستوى التجرد الروحي .

فاذا قرأنا شعره فكأننا نقف امام مثال ناطق لفارس فريد يمثل جميع الصفات والخصال التي كان عليها الفارس الجاهلي ، مثال استطاع ان يترجم لنا فلسفة الفروسية كما فهمها المجتمع العربي ، وحدد الاصول التي قامت عليها الفضيلة الجاهلية .

لقد انفرد عنترة بهذه الصورة التي ميزته من الناحية العاطفية ، وجعلته نموذجا ناجحا في عالم البطولة .

واخيرا وبعد كل هذه المعاناة الطويلة التي عاناها الفارس العاشق، والآلام الممضة التي عاشها بكل جوارحه لم يظفر بمن أحب ، ولم يحصل على من صنع من اجلها المعجزات ، لقد كانت جولته خاسرة ، وكانت نهايته غير موفقة ، لانه لم يظفر ببغيته ، ولم ينل مطلبه ، فقد أكرهت عبلة على الزواج من رجل آخر[٥٠] .

ولكن ادبه في عبلة ظل خالدا ، وحبه لها كان نموذجا للعشاق العذريين ، وطريقا سار عليه الشعراء العذريون في العصور التالية .

وبعد ، فان الحديث عن عنترة طويل ، واعذب ما فيه حبه الصادق، وعاطفته الدفاقة ، وألمه الممض . هذه التيارات التي لونت شعره بأجمل الالوان ، ومزجته بأرق العواطف ، فكان بطلا حقا من أبطال الحرب ، وشاعرا من شعراء الغزل العذري الاصيل ، الذي أصبح نواة أصيلة لتيار متميز في الادب العربي ، سكب فيه الشعراء أرق عواطفهم،فقدموا لنا أسمى النماذج الانسانية في مجال التضحية من اجل القيم الرفيعة التي آمنوا بها . فكان مثالا يحتذى به ، واستاذا يعلم الناس دروس الخلق الرفيع ، والادب السامي ، والتضحية الغالية[٥١] .

---

(٥٠) ديوان عنترة ص ٣٩٠ الابيات (٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦) .

(٥١) الاعلم : مختار الشعر الجاهلي ص ٣٩٠ الابيات (٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦) .

الفصل الثاني

الكرم عند حاتم

ليس ذكر حاتم غريبا على الاذهان ، ولا أحاديث كرمه بعيدة عن المسامع ، فحديثه يتردد كلما ذكر الكرم ، واخباره تتناقلها الالسن ، فهو كريم تضرب بكرمه الامثال ؛ وهو فارس لانه يمثل عناصر الفروسية الحقة في الاخلاق والشجاعة والمروءة ، وهو انسان لان عاطفته تمتد الى كل ضعيف ومعوز واسير[1] :

واني لعف الفقر ، مشترك الغنى ووَدك شكل لا يوافقه شكلي
وشكلي شكل لا يقوم لمثله من الناس،الاكل ذي نيقةمثلي[2]
ولي نيقة في المجد والبذل لم تكن تأنفها ، فيما مضى أحد قبلي

وهو انسان لا تستعبده المادة ، لانه يرى أن الحياة بذل وسخاء، وان المال خلق لاكتساب الثناء والذكر الحميد ، فعلى الانسان أن لا يكسبه بالغدر ، ولا يتمسك به تمسكا شديدا[3] :

أماويَّ قد طال التجنب والهجرُ وقد عذرتني من طلابكم العذر
أماويَّ ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر

---

(١) ديوان حاتم ص ١٠٩

(٢) النيقة : ارفع مكان في الجسم ، يقصد بها علو المقام والرفعة.

(٣) الديوان ص ٧١ والمبرد في الكامل ٣٢٨/١

أماويّ اني لا أقول لســائل | اذا جاء يوما حل في مالنا النذر
أماويّ أمـا مانــع فمبيّن | واما عطـاء لا ينهنهــه الزجر
أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى | اذا حشرجت نفس وضاق به الصدر
أماويّ ان يصبح صداي بقفرة | من الارض لا ماء هناك ولا خمر
ترَي أن ما أنفقت لم يك ضرني | وان يدي مما بخلت بـه صفر

فللمال في مذهبه سبيل ، وللبذل في نظره مبرر، لان العيش قصير، والحياة فانية ، وخير ما يتركه الانسان على الارض ذكر طيب ، وثنـاء يردده القاصي والداني .

وحاتم الطائي الذي ضربت بجوده الامثال ، له شعر كثير ، يشيد بفضيلة الكرم . فكان ينفق كل ما عنده ويبيت على الطوى ، هانئـا سعيدا . ومن طريف ما يروى له قوله مخاطبا زوجته[٤] :

اذا ما صنعت الزاد فالتمسي له | أكيلا فاني لست آكلـه وحدي
أخا طارقا ، أو جار بيت فـانني | أخاف مذمّات الاحاديث من بعدي
واني لعبد الضيف ما دام ثاوياً | وما فيّ الا تلك من شيمة العبـد

فأحاسيس هذا الفارس الجواد تلتمس في كل حديث تحدث به ، وفي كل قصيدة قالها ، تلمس في صدق تعبيره ، وطبيعة اخلاصه ،وثبات مثله التي كان يسلكها في حياته ، فكانت مثالا فريدا في عالم الانسان ، وقيما رفيعة في حياة الناس ، ومروءة تنتهي عندها كل المروءات[٥] :

وقد علم الاقوام لو أن حاتمـا | أراد ثراء المال كان له وفـر
واني لا آلو بمال صنيعــة | فأوله زاد وآخـره ذخـر
ولا أظلم ابن العم ان كان اخوتي | شهودا وقد أودى باخوته الدهر

وقد حاول البعض ان يفسر كرم حاتم بالحرص على الشـهرة ،

---

(٤) الديوان ص ٦٢

(٥) الديوان ص ٧٣ وروى البيت الثاني في الكامل ١/٢٤ .

والدعاية ، ، ارضاء لكبرياء نفسه ، واغتباطا لانانيته ، واستقبالا لالفاظ الشكر . ولا اجد نفسي مضطرا للرد على هؤلاء ، لان قراءة أخباره ، والاستزادة منها ، والتفهم الحقيقي لهـــذه النفس التي كانت تنطلق بكرمها من اعماق خيرة ، وتستمد الجود من بيئة زاخرة بفضائل الكرم والعطاء ، هي الرد الوحيد عليهم ، فأمه عتبة بنت عفيف ، وبنته سفانة ، وابنه عدي ، وجده سعد بن الحشرج ، وأخبارهم جميعا تملأ الكتب ، وأحاديثهم امثلة تبرز في كل مجلس يدور فيه حديث الكرم والتضحية والايثار ، فليس غريبا بعد هذا ان يكون حاتم على هذا الشكل ، وانما الغريب أن لا يكون كذلك .

فهو عنوان للجود في الجاهلية ، تخطت شهرته القرون والاحقاب، وليست هذه الشهرة الا دليلا على أصالتها ، وبرهانا على الفطرة التي فطر عليها هذا الانسان النبيل ، ولو كان الكرم في نفس حاتم تصنعا ، لاكتشف الناس هذه الخصلة في وقت من الاوقات ، وبان زيف دعواها. ولكن الايام لم تزدها الا رسوخا وثباتا ، ولا زال المؤرخون حتى هذه اللحظات يقفون أمام حاتم العملاق في كرمه باجلال واحترام ، ويضفون على اسمه نعوتا لم يضفوها على غيره من الناس ، ومما يروى عن علو نفسه ، واصالة كرمه ، ودفع تهمة من يحاول اضفاء صفة التصنع على ذلك الكرم ، ما حدثنا به أبن الاثير في يوم ظهر الدهناء[6] . فقال :

كان أوس بن حارثة بن لأم الطائي سيدا مطاعا في قومه ، وجوادا مقداما ، فوفد هو وحاتم الطائي على عمرو بن هند ، فدعا عمرو أوسا، فقال له : انت أفضل أم حاتم ؟ فقال . ابيت اللعن ، ان حاتما اوحدها وأنا أحدها ، ولو ملكني حاتم وولدي ولحمتي[7] لوهبنا في غـــداة

---

(٦) ابن الاثير – تاريخ الكامل ١/٢٦٢ – والدهناء : واد يشتمل على سبعة اجبل ويمر ببلاد بني اسد .

(٧) لحمة بالضم : القرابة .

واحدة ، ثم دعا عمرو حاتما ، فقال له : أنت أفضل أم اوس ؟ فقال : أبيت اللعن .. انما ذكرت أوسا ، ولاحد ولده افضل مني . فاستحسن ذلك منهما ، وحياهما واكرمهما .

وما تحدثنا به الاخبار ، وتحدثنا به القصائد التي تناثرت في ديوانه . فقد حفل الديوان بهذه الافكار الانسانية التي أصبحت بضعة من نفسه ، والذي يبرز لنا في هذه القصائد ، هو ان حاتما لم يكتف بطبيعة الكرم وحدها ، وانما كان يلوم من يطلب منه الكف عن بذل المال ، ويصل به الى درجة التعنيف ، وهذا دليل على أصالة الكرم ، وتمكن هذه العادة من نفسه تمكنا لا يمكن زعزعته أو تبديله ، لانه راسخ في كل عمل من اعماله ، فهو يخاطب من يلومه قائلا[8] :

مهلا نوار ، أقلي اللوم والعذلا	ولا تقولي لشيء فات ، ما فعلا
ولا تقولي لمال ، كنت مهلكه	مهلاوان كنت اعطي الجن والخبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة	ان الجواد يرى ، في ماله سبلا
ان البخيل اذا ما مات ، يتبعه	سوء الثناء،ويحوي الوارث الابلا
فاصدق حديثك ان المرء يتبعه	ما كان يبني ، اذا ما نعشه حملا
ليت البخيل يراه الناس كلهم	كما يراهم ، فلا يقرى ، اذا نزلا
لا تعذليني على مال وصلت به	رحما وخير سبيل المال ما وصلا

فحاتم يرد على من يلومه على عطائه وكرمه ، ويخاطب عاذلته بأن هذه هي طبيعته التي فطر عليها ، ثم يطلب منها الا تجعل لسانها مبردا فتوغل في العتاب[9] :

وعاذلة هبت بليل تلومني	وقد غاب عيوق الثريا فعردا
تلوم على اعطائي المال ضلة	اذا ضن بالمال البخيل وصردا

(٨) الديوان ص ١٠٦
(٩) ديوان حاتم ص ٥٦

تقول : ألا امسك عليك فانني ... اری المال، عند الممسكين ،معبدا
ذريني وحالي ، ان مالـك وافر ... وكل امريء جار على ما تعـودا
اريني جوادا مـات هزلا لعلني ... أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا
والا فكفي بعض لومك واجعلي ... الى رأي من تلحين رأيك مسندا
ألم تعلمي أني اذا الضيف نابني ... وعز القرى، أقري السديف المسرهدا
أسود سادات العشيرة ، عارفا ... ومن دون قومي، في الشدائد مدودا
يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد ... وما كنت لولا ما تقولون سيدا
كلوا الآن من رزق الاله وايسروا ... فان على الرحمن رزقكم غـدا

وهكذا كان حاتم ، وهكذا كان كرمه حكاية حال ، وتصوير نفس عربية خيرة ، انطلقت منها جميع فضائل الكرم ، لتصور للاجيال صور التضحية والجود • ولم تكن هذه القصائد وحدها التي لام فيها حاتم عاذلته ، فهناك قصائد كثيرة تتردد فيها هذه المعاني ، لانها منطلقة من أسلوبه في الحياة الذي يؤمن بأن البذل والسخاء لا يقربان المنية عن امدها ، وان لؤم النفس البخيلة لا يديم بقاءها في دنياها ، فاذا كان الجود والبخل لا يبقي ، وكان السخاء اقامة المروءة ، واكتساب الاكرومة، وادخار الشكر ، واقتناء الاجر • فالعقل يوجب الاخذ به ، والحزم يقتضي الزهد في غيره[10] :

وعاذلـة قامت عليّ تلومني ... كأني اذا أعطيت مالي اضيمهـا
اعاذل ان الجود ليس بمهلكي ... ولا يخلد النفس الشحيحة لومها
وتذكر أخلاق الفتى وعظامـه ... مغيبة في اللحد بال رميمهـا
ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه ... يدعه ويغلبه على النفس خيمها[11]

فالكرم بعد كل ما تقدم ، وكما أسلفنا في الصفحات السابقة، عادة متأصلة فيه • وهو فطرة فطر عليها ، كما فطر عليها العدد الزاخر من

(١٠) حماسة ابي تمام ١٧١١/٤
(١١) الخيم : الخلق .

أجواد العرب الذين ترددت أسماؤهم في صفحات التاريخ ، امثلة للايثار والجود والتضحية .

ان هذه الفلسفة التي يصورها لنا حاتم ، توضح لنا مسلكا طبيعيا في الحياة العربية ، عاشه بكل عواطفه ، ومارسه في كل ادوار حياته ، وهو سلوك لا يريده في الحياة فقط ، وانما ينظر الى نتائجه المترتبة عليه بعد مفارقته الحياة ، فهو لا يريد بعد الموت الا الذكر الحميد ، ولا يطلب الا المحمدة الخيرة ، تنطلق بها ألسن الناس .وهو فوق كل هذا يريد من الناس أن يتحلوا بهذه الصفات ، ويبذلوا ما شاء لهم البذل في سبيل تعسيم هذه الصفات ، ليجعلها سنة في حياتهم ، فكان يدافع عنها في كل قصائده ، ويذم البخل والبخلاء ، ولا يذكرهم بالخير بعد الموت ، وهذا ما يخيف الانسان الجاهلي ، لانه يعيش من أجل القيم الخيرة ، والاهداف الرفيعة ، فاذا احس بتجرده منها ، احس بالموت والفناء[١٢] :

أما والذي لا يعلم الغيب غيرُه	ويحيي العظام البيض وهي رميم
لقد كنت أطوي البطن والزاد يُشتهى	مخافة يوما ، أن يقال لئيم
وما كان بي ما كان ، والليل ملبس	رواق له فوق الاكام بهيم
الفُّ بحلسي الزاد ، من دون صحبتي	وقد آب نجم واستقل نجوم

فالكرم عند حاتم عادة تلازمه في حياته ، ولا يملك ان يتخلى عنها[١٣] :

وقائلة أهلكت بالجود مالنا	ونفسك ، حتى ضر نفسك جودها
فقلت دعيني ، انما تلك عادتي	لكل كريم عادة يستعيدها

وكان اذا جن الليل ، يوعز الى غلامه أن يوقد النار في بقاع الارض ، لينظر اليها من أضله الطريق ، فيأوي الى منزله .وهو لا يكتفي

---

(١٢) الديوان ص ١٢٤

(١٣) الديوان ص ٦٣ .

بهذا فقط ، وانما يعد غلامه برد حريته اليه اذا جلب ضيفا ، فيقول[١٤] :

أوقد فان الليل ليل قِـــر والريح يا موقد ، ريح صرُّ
عسى يرى نارك من يَمــرُّ ان جلبت ضيفا ، فأنت حرُّ

ومن الحق أن تقول ان عادة الناس اذا اشتهر أحـــدهم بأمر ، نسبوا اليه كل ما جرى من الاقاصيص المتعلقة بهذا الامر ، وفعلا كان التاريخ يحفل بذكر كثير من هذه الحوادث ، ولكن ذلك لا يمنع من أن طبيعة الكرم كانت موجودة ، وانها كانت متميزة وواضحة المعالم ، وقد تبلغ حد الافراط عند جماعة من الناس ، كما وقع لاسـرة حاتم الطائي ، لان العرب كانوا يغتبطون اذا ساقوا جميلهم الى من لايتوقعون منه الاشادة به ، فالغاية الاولى عندهم البر بالمعوزين والذهاب بطيب الاحدوثة ، وحسن المقالة في الدنيا والآخرة • وهذا اول دليـــل على اصالة الكرم في نفوسهم •

فحاتم ورث الكرم من والدته التي كانت في الجودبمنزلةلا تدخر شيئا ، ولا يسألها احد شيئا فتمنعه ، وقد جمع الادب قصصا كثيرة عن كرم امه ، فمما روي انها كانت ذات يسار ، وكانت من اسخى الناس واقراهم للضيف ، وكانت لا تمسك شيئا تملكه ، فلما رأى أخوتهـا اتلافها ، حجروا عليها ، ومنعوها مالها ، فمكثت دهرا لا يدفع اليها شيء منه ، حتى اذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها صـرمة من ابلها ، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها في كل سنة تسألها ، فقالت لها دونك هذه الصرمة ، خذيها ، فوالله لقد عضني من الجوع ما لا امنع معه سائلا أبدا ، ثم انشدت تقول[١٥] :

لعمري لقدما عضني الجوع عضة فآليت ألا امنع الدهر جائعـا
فقولا لهذا اللائمي اليوم اعفني فان انت لم تفعل فعض الاصابعا

---

(١٤) الديوان ص ٨٦

(١٥) الاصفهاني : الاغاني ٩٣/١٦ ساسي •

فماذا عساكم أن تقولوا لاختكم   سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا
وماذا ترون اليوم الا طبيعــــة   فكيف بتركي يا ابن امي الطبائعا

وما نقوله بالنسبة لأمه ، نقوله بالنسبة لجده سعد بن الحشرج، الذي نشأ حاتم في حجره ، والذي ذكرت قصص كرمه في كتب الادب ، وضربت به الامثال(١٦) .

أما أخباره على ألسنة الرواة ، فهي كثيرة ، تتجسد في تضاعيف احاديثهم ، وتلمع في ثنايا كتبهم ، فمما رواه أبو الفرج(١٧) انه أقبل ركب من بني أسد ومن قيس يريدون النعمان ، فلقوا حاتما ، فقالوا له: انا تركنا قومنا يثنون عليك خيرا ، وقد أرسلوا اليك رسولا برسالة ، قال : وما هي ؟ فانشده الاسديون شعرا لعبيد ولبشر يمدحانه ، وأنشد القيسيون شعرا للنابغة ، فلما انشدوه قالوا : انا نستحي أن نسألك شيئا ، وان لنا لحاجة قال : وما هي ؟ قالوا : صاحب لنا قد أرجل،فقال حاتم : خذوا فرسي هذه ، فاحملوا عليها صاحبكم : فأخذوها وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت ، فاتبعته الجارية ، فقال حاتم : ما تبعكم من شيء فهو لكم ، فذهبوا بالفرس والفلو والجارية .

وقال أبو الفرج(١٨) : كان حاتم يخرج طعامه ، فان وجد من يأكله معه أكل وان لم يجد طرحه ، فلما رأى أبوه انه يهلك طعامه ، قال له : الحق بالابل فخرج اليها ، ووهب له جارية وفرسا وفلوها ، فلما أتى الابل ، طفق يبغي الناس ، فلا يجدهم ، ويأتي الطريق فلا يجد عليه أحدا ، فبينا هو كذلك ، اذ بصر بركب على الطريق ، فاتاهم فقالوا : يا فتى هل من قرى ؟ فقال : تسألوني عن القرى وقد ترون الابل .

---

(١٦) نفس المصدر ١٦/٩٥
(١٧) الاصفهاني : الاغاني ١٦/١٠٤
(١٨) نفس المصدر ١٦/٩٤ ساسي

وذكر أبو الفرج[19] رواية عن ماوية امرأة حاتم انها قالت : اصابت اصابت الناس سنة ، فاذ هبت الخف والظلف ، فبتنا ذات ليلة وقد اسهرنا الجوع ، فأخذ حاتم عديا واخذت سفانة ، وجعلنا نعللهما حتى ناما ، ثم أقبل عليّ يحدثني ويعللني بالحديث كي أنام ، فرققت له ، لما به من الجهد ، فأمسكت عن كلامه لينام ، فقال لي : أنمت مرارا فلم أجب ، فسكت ، فنظر في فتق الخباء ، فاذا شيء قد أقبل ، فرفع رأسه، فاذا امرأة ، فقال : ما هذا ، قالت : يا ابا سفانة : أتيتك من عند صبية يتعاوون كالذئاب جوعا ، فقال : احضريني صبيانك ، فوالله لاشبعنهم ، قالت : فقمت سريعا ، فقلت : بماذا يا حاتم ؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع الا بالتعليل ، فقال : والله لاشبعن صبيانك مع صبيانها ، فلما جاءت قام الى فرسه ، فذبحها ثم قدح نارا ، ثم أججها ، ثم دفع اليها شفرة ، فقال اشتوى وكلي ثم قال : أيقظي صبيانك ، قالت : فأيقظتهم، ثم قال : والله ان هذا للؤم ، تأكلون وأهل الصرم حالهم مثل حالكم . فجعل يأتي الصرم بيتا بيتا ، فيقول : انهضوا عليكم بالنار . قال : فاجتمعوا حول تلك الفرس ، وتقنع بكسائه ، فجلس ناحية ، فما أصبحوا من الفرس على الارض قليل ولا كثير الا عظم وحافر ، وانه لاشد جوعا منهم وما ذاقه .

وذكر التنوخي[20] ان رجلا سأل حاتما : يا حاتم ، هل غلبك أحد في الكرم ؟ قال : نعم غلام يتيم من طيء نزلت بفنائه ، وكان له عشرة أرؤس من الغنم ، فعمد الى رأس منها فذبحه ، واصلح من لحمه ،وقدم اليّ ، وكان فيما قدم اليّ الدماغ ، فتناولت منه ، فاستطبته ، فقلت : طيب والله . فخرج من بين يدي ، وجعل يذبح رأسا رأسا ، ويقدم اليّ الدماغ وانا لا اعلم . فلما خرجت لارحل نظرت حول بيته دما عظيما ، واذا هو قد ذبح الغنم بأسره ، فقلت له : لم فعلت ذلك ؟ فقال :

---

(١٩) نفس المصدر ١٦/١٠٥
(٢٠) التنوخي : المستجاد من فعلات الاجواد ٢٠٣

يا سبحان الله ، تستطيب شيئا املكه فأبخل عليك به ، ان ذلك لسبة على العرب قبيحة ، قيل يا حاتم : فما الذي عوضته؟قال : ثلاثمائةناقة حمراء وخمسمائة رأس من الغنم ، فقيل أنت اذن اكرم منه ، فقال : بل هو أكرم ، لانه جاد بكل ما يملكه وانما جدت بقليل من كثير .

هذا ما حدثنا به المؤرخون ، أما في شعره ، فحاتم يوقد النيران للضيفان ليلا ، ويبذل في سبيلهم كل نفيس ، وكلابه لا تهر في وجه ضيوفه ، لان الكريم يستقبل ضيوفا كثيرين ، فيتعود كلبه رؤية الناس ، وابله مربوطة أمام بيته لتكن جاهزة للعقر[٢١] :

اذا ما بخيل الناس هرت كلابه ... وشق على الضيف الضعيف عقورها
فاني جبان الكلب بيتي موطأ ... أجود اذا ما النفس شح ضميرها
وان كلابي قد أهرت وعودت ... قليل على من يعتريني هريرها
وماتشتكي قدري اذا الناس أفلحت ... اوثقها طورا وطورا أميرها
وابلي رهن أن يكون كريمها ... عقيرا امام البيت حين أثيرها
اشاور نفس الجود حتى تطيعني ... واترك نفس البخل لا استشيرها

وهو الى جانب كرمه وجوده بطل من الابطال ، لا تقل بطولته في الحرب عن بطولته في العطاء ، وهو يقرن في شعره الكرم بالشجاعة ، لانهما صفتان متلازمتان في نفسه ، فيتحدث عن قرى الضيف في ثنايا حديثه عن الطعن والقتال[٢٢] :

اذا مات منا سيد قام بعده ... نظير له يغني غناه ويخلف
واني لاقري الضيف قبل سؤاله ... واطعن قدما والأسنة ترعف

ومن اول مظاهر فروسيته وبطولتها تركه لوارثه بعد موته قدرا من المال لا يوصف بالكثرة ولا بالقلة ، وفرسا ضامرا كالعنان في ادماجه

---

(٢١) ديوان حاتم ص ٩٢

(٢٢) حماسة ابن الشجري ص ١٥ والبيت الاول في حماسة أبي تمام ١/١٢١

وضمره ، وسيفا قاطعا اذا حرك في الضريبة لم يرض بالقطع ، ولـكن يتجاوزه ويخرج الى ما وراءه ، ورمحا اسمر في لونه ، وذلك اصلب ، محصولا من الخط ، لم يكن طويلا ولا قصيرا حتى لا يكون مضطربا ولا قاصرا ، بل يجري مع الاعتدال . وتلك عدة الفارس الجاهلي ، وسبب وجوده ، فمتى ما حصل عليها ، ومتى ما ادخرها ، كان مطمئن البـال مرتاح الضمير ، لانه ملك وسيلة الحياة(٢٣) :

متى ما يجيء يوما الى المال وارثي	يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر
يجد فرسا مثل العنان وصارما	حساما اذا ما هز لم يرض بالهبر
واسمر خطيا كـأن كعوبـه	نوى القسب قد اربى ذراعا على العشر

ويتردد هذا المعنى في قصائده ، ويعيده في غير هـذه الابيات فيقول(٢٤) :

سأدخر من مالي دلاصا وسابحا	واسمر خطيا وعضبا مهنـدا
وذلك يكفيني من المـال كله	مصونا اذا ما كان عندي متلـدا

اما مروءة حاتم فهي جانب واسع من جوانب حياته ، لانها جـزء يكمل فروسيته ، ويضفي عليها طابع الفروسية الخلقيـة التي لونت الفروسية الحربية . فمما تحدثنا به الاخبار والقصائد التي تناثرت في ديوانه نستدل على الوحدة القوية التي تلم جوانب المروءة ، وتجمع القيم الخيرة التي ترفع حاتما الى المكان اللائق بهذه الصفات ، وتجعل منه علما من اعلام المروءة العربية الاخاذة . فالمال عنده لا يستعبـد صاحبه ، وانما هو وسيلة لفك العاني ، يعطى لمن يستحقه ليستعمله في المواضع التي تستأهل الصرف(٢٥) .

اذا كان بعض المال ربا لاهلـه	فاني بحمد الله مالي معبـد
يفك به العـاني ويؤكل طيبـا	ويعطى اذا منّ البخيل المطرد

(٢٣) ابو تمام : الحماسة . شرح المرزوقي ١٧٨٦/٤
(٢٤) الديوان ص ٥٨
(٢٥) الديوان ص ٤٨

والمال عنده وقاية للعرض ، لانه فانٍ لا يدوم لاحد[٢٦] :

ذريني يكن مالي لعرضي جُنَّةً يقي المال عرضي قبل ان يتبددا

وهو لا يكسب المال بالغدر ، لانه يكون شؤما على صاحبه[٢٧] :

ولا اشتري مالا بغدر علمتـــه الا كل مال خالط الغدر انكدا

وحاتم محافظ على تقاليد الاخوة ، راع لحقوقها واصولها ، وهو عفيف لا يقصر عن غاية النجدة والكرم ، ولا يقعد به العجز أو الجبن عن تلبية نداء من يستعين به[٢٨] .

الله يعلم أنـــي ذو محافظـــة ما لم يخني خليل يبتغي علـــلا

فان تبدل ألفاني اخـــا ثقـــة عف الخليقة لانكسا ولاوكلا[٢٩]

ونصرة حاتم لاخيه لم تكن اعتباطا ، وانما هي نصـرة قائمة على الحق ، فاذا ما احس الظلم يقع على اخيه ، قام بالسيف ليرفع عنـــه الظلم[٣٠] :

سأنصره ان كان للحق تابعـــا وان جار لم يكثر عليَّ التعطف

وان ظلموه قمت بالسيف دونــه لانصــره ان الضعيف يؤنف

واني لمجزيٌ بما أنـــا كاســب وكل امريء رهن بما هو متلف

ويتسع مفهوم المروءة عنده ، حتى ليفرض على نفسه ان لا يقتل واحد امه ، ولا يأسره ، وفي هذه الاعمال تتجسد المروءة عنده وتبلـــغ ذروتها[٣١] :

أماوي ، اني رب واحد أمـــه اجرت فلا قتل عليـــه ولا أسر

---

(٢٦) الديوان ص ٥٦

(٢٧) البحتري : الحماسة ٢٠٩

(٢٨) البحتري : الحماسة ٨٤

(٢٩) الخليقة : الطبيعة . النكس : المقصر عن غاية النجدة والكرم . الوكل : البليد العاجز .

(٣٠) ديوان حاتم ١٠٣

(٣١) نفس المصدر ٧٢

ومما روي من اخبار حاتم[٣٢] ان ابا جُبيل عبد قيس بن خفاف البرجمي أتاه في دماء حملها عن قومه ، فاسلموه فيهـــا ، وعجز عنها ، فقال : والله لآتين من يحملها عنّي ، وكان شريفا شاعرا ، فلما قدم عليـه قال : انه وقعت بيني وبين قومي دماء فتواكلوها ، واني حملتها في مالي واملي ، فقدمت مالي ، وكنتَ أملي ، فان تحملها فرب حق قد قضيته ، وهمٍ قد كفيته ، وان احال دون ذلك حائل لم أذمم يومك ، ولم أيأس من غدك ، ثم انشأ يقول :

حملت دماء للبراجم جمـــــة فجئتك لما اســـلمتني البراجم
وقالوا سـفاها لم حملت دماءنا فقلتلهم يكفي الحمالة حاتم[٣٣]

فقال له حاتم : ان كنت لأحُب ان يأتيني مثلك من قومك ، هو ذا مرباعي من الغارة على بني تميم ، فخذه وافرا ، فان وفّى بالحَمالة والا اكملتها لك ، وهو مائتا بعير سوى بنيها وفِصَالها ، مع اني لاحب أن تُوبِس قومك باموالهم ، فضحك ابو جبيل وقال : لكم ما اخذتم منا ، ولنا ما اخذنا منكم ، واي بعير دفعتـــه الي ليس ذنبه في يـد صاحبه ، فانت منه بريء ، فدفعها اليه وزاده مائة بعير ، فاخذهـــا وانصرف راجعا الى قومه فقال حاتم في ذلك .

اتـــاني البرجمي ابو جبيـــل لهمٍّ في حمـــالته طويـــــل
فقلت لـــه خـذ المرباع رهــوا فاني لست ارضى بالقليـــل

بهذه الخصال الحميدة وُفق حاتم في فروسيته ، لانه أحاطها بجميع الفضائل ، وأحكمها بسياج من النبل ، فكانت أحاديثه وأعماله غررا تقلد جيد الاحاديث ، ومدعاة للترحم عليه . وما حديث ابنته سـفانة عندما حضرت مع سبايا طي مجلس رسول الله (ص) الا دليـــل على شيوع اخباره[٣٤] ، لان حاتما جمع صفات المؤمن وكان يحب مكــارم

---

(٣٢) ذيل الامالي والنوادر ص ٢١ .
(٣٣) القصيدة موجودة كاملة في المصدر نفسه .
(٣٤) الاصفهاني : الاغاني ٩٣/١٦ ساسي .

الاخلاق . وكان الله يحب هذه المكارم .

وكلمة اخيرة اقولها في شعر حاتم ، هذا الشعر الذي يجب ان يقرأ بتحفظ وحيطة ، لما رافق هذا الشعر من الاضطراب والقلق . وطبيعي ان تنسب الى حاتم ابيات جهل قائلوها ، او قصائد لم يعرف أصحابها ، وخصوصا اذا كانت تعالج الغرض نفسه الذي اشتهر به حاتم ، كمدح الجود والكرم . وما يقال في الشعر يقال في الاخبار والروايات والاساطير التي نسجت حوله ، على أن هذه الاخبار والروايات والاساطير التي اضيفت عن قصد او عن غير قصد ، ليست سوى صدى لما استقر في نفوس الناس الذين رأوا فيه بطلا من أبطال الفروسية في التاريخ العربي ، ومثالا نادرا من امثلة الكرم ، يجري ذكره على كل لسان ويتردد اغنية عذبة على شفاه الشعراء .

فقد ذكره اوس بن حجر فقال[٣٥] :

فان تنكحي ماوية الخير حاتما فما مثله فينا ولا في الاعاجم
فتى لا يزال الدهر اكبر همه فكاك اسير او معونة غارم

وعندما سار ابن مفزع واتى الاهواز ، سأله القوم عن عبيد الله ابن ابي بكر ، وكيف هو واخلاقه وجوده قال[٣٦] :

يسائلني اهل العراق عن الندى فقلت عبيد الله حلف المكارم
فتى حاتمي في سجستان رحله وحسبك جودا ان يكون كحاتم

وبعد فقد عاش حاتم على هذا المنوال ، فارسا من فرسان الكرم العربي ، وصفحة مشرقة من صفحات المروءة العربية ، وصانعا خيرا من صناع المجد العربي .

---

(٣٥) ديوان اوس بن حجر ص ١٢٥
(٣٦) التنوخي : المستجاد من فعلات الاجواد ٩٥

الفصل الثالث

عـروة والاشـتراكية

لعلي لا أكون مغاليا اذا قلت ان عروة بن الورد كـان من أكثر الشعراء الجاهليين اهتماما لدى المؤرخين ، كما كان احبهم الى قلوبهم، واقربهم الى نفوسهم ، لطبيعته الانسانية الرفيعة ، وسـلوكه الخلقي النبيل الذي رفعه الى مستوى انساني عال ، فكان مثالا حيـا من امثلة التضحية والايثار ، ونموذجا من نماذج الكرم العربي .. ولعلي لا اكون مغاليا اذا قلت : ان عروة بن الورد قد استأثر ـ دون غيره من الشعراء ـ بصفة لم تتهيأ لغيره منهم ، لازمته ملازمـة قوية ، واصبح لا يُعرف الا بها ، تلك الصفة التي أطلق عليها المؤرخون الاشـتراكية تجوزا .

ولا اريد مناقشة هذه الصفة الملازمة التي عرف بهـا عروة من الناحية النظرية والعلمية ، لان ذلك يستدعي دراسة مستفيضة لمفهوم الاشتراكية وتطورها ، وظروف نشأتها وانواعها ، ومدى دلالتها لدى كل فئة تنادي بها ، والتطبيق العلمي لدى هـذه الفئات ، لان البحث في هذا المجال يؤدي الى جوانب عرضية بعيدة عن جوهر البحث .

ولكنني ساكتفي بعرض بسيط لما تعارف عليه الناس حول المفهوم الاشتراكي حديثا ، ومدى علاقته بالنسبة للمفهوم الاشتراكي الذي

اطلقه المؤرخون على هذا الشاعر ، مستندين الى ما رسمه لنا عروة في سلوكه وبطولته وشعره ، وبذلك نكون قد وضعنا عروة بن الورد الموضع الملائم له ، والمناسب لظروفه التاريخية التي عاشها .

وقد علل هؤلاء المؤرخون دعوة عروة، ونشوء حركة الصعاليك، بانها احتجاج على التمييز الطبقي ، وسوء توزيع الثروة ، كما انها كانت تستهدف مساعدة الفقراء والمعدمين ، وتتوعد اصحاب الثروات الطائلة الذين جمعوا هذه الثروة بطرق غير مشروعة ، لذلك فهي قريبة الى الاشتراكية ، او مظهر من مظاهرها الواضحة . هذه هي الاسس التي استند عليها المؤرخون ، وهذه هي المفاهيم التي عللوا بها دعوة هذا الشاعر ، ودعوة هذه الفئة من الناس .

والواقع ان جميع الذين كتبوا عن اشتراكية عروة ، او عروة الاشتراكي ، كانوا متأثرين الى حد كبير بالنظريات الاشتراكية الحديثة التي سادت العالم في الفترة الاخيرة ، فنظروا الى اعمال عروة التي لم يشترك بها وحده ، بمنظار النظريات الحديثة ، ووجدوا في أعماله تبريرا لهذه التسمية التي تحمل نوعا من وضع المصطلحات في غير موضعها .

فالاشتراكية بكل مظاهرها الحديثة ، ونظرياتها المختلفة ، تخطيط علمي دقيق ، ومنهج لتحقيق العدالة الاجتماعية ، واثارة الابداع والارتفاع بكرامة الانسان الى المستوى اللائق ، واعادة الاوضاع الى سويتها ، كما انها تسعى الى خلق جو من المساواة بين ابناء الامة الواحدة ، في امكاناتهم وظروفهم ، وتحاول القضاء على استغلال الانسان لاخيه الانسان ، والوصول به الى مجتمع متحرر ، تخضع فيه جميع وسائل الانتاج لمصلحة الانسان نفسه ، وتسخر في سبيل المجموع .

والاشتراكية حسبما يتضح من مفهومها ، نظام يحل محل نظام قائم بعد ازالته ، نتيجة ثورة جذرية ، او تغيير في اسلوب الحكم ، او

انتقال من مرحلة الى مرحلة اخرى ، والعصر الجاهلي لم يتمخض عن نظام سابق ، وانما كان استمرارا لنظام قبلي ساد الجزيرة قرونا عدة .
والمجتمع الجاهلي لم يكن مجتمعا رأسماليا ، او صناعيا ، حتى يمكن ان يظهر فيه نوع من الاشتراكية . وانما كان مجتمعا بسيطا ، لم تتعقد مشاكله التعقيد الذي يساعد على ظهور هذه النظرية او غيرها من النظريات . وبعد فالاشتراكية نظرية يقوم عليها تنظيم مجتمع معين ، وتهدف الى اغراض تتعلق بوسائل الانتاج واستملاكها وادارتها ، وفي كل هذا نجد ان العصر الذي عاشه عروة ، لم يملك من مقومات الحياة التي ظهرت فيها هذه النظرية شيئا . فالتاريخ العربي كان يسجل صراعا مع ظروف الحياة لا صراعا بين الطبقات . ومن هنا لم تكن مشاركة عروة للفقراء مرحلة من مراحل النمو الاقتصادي ، ولا نظاما للانتاج والتوزيع ، وانما هي ادراك عميق للظروف الانسانية الملحة التي كانت تعانيها فئة من الناس ، وهي بالتالي وسيلة من الوسائل التي سلكتها هذه الفئة ، لحض الجهود الفردية للعمل ، والدعوة الى التخفيف عما تعانيه هذه الفئة ، وهذا تقييم للمعاني الانسانية الابداعية التي تجلت واضحة في الذهن العربي ، وامتزجت بحضارته ، فكانت دليلا على الشمائل العربية ، ونباهة الانسان العربي ، الذي احس بمسؤولية الدور الذي فرضته عليه طبيعة الحياة آنذاك ، ثم هي رمز لآثار هذا الانسان الابداعية التي عكست لنا المستوى الخلقي الرفيع الذي عاشته الاجيال العربية .

فسلوك عروة في هذا المجال كان سلوكا طبيعيا ، مستندا على الشمائل الخيرة التي عاشها الانسان العربي .

ومشاركة عروة للفقراء كانت تقوم على المفاهيم البسيطة التي تعارف عليها الناس في عصره ، نتيجة عوامل غير العوامل التي انبعثت منها الاشتراكية الحديثة . كما ان القضايا التي تعالجها الاشتراكية في العصر الحديث قد تعقدت ، واصبحت قائمة بذاتها ، لها حلولها

المستوحاة من مستحدثات العصر ، ومن متطلباته وظروفه ، اما مشاركة عروة وفلسفته بالذات ، فهي مستحدثة من طبيعة ذلك العصر وظروفه ، وهي ميزة لا يكاد ينفرد بها عروة وحده ، وانما هي الطبيعة العربية التي يشاركه فيها عامة العرب ، وكما كان عروة كان حاتم الطائي ، وكان دريد بن الصمة ، وكان الطفيل الغنوي ، وكان غيرهم من الفرسان المشهورين في كرمهم وعفتهم ، ومشاركتهم الناس في مشاكلهم ، ولكن الذي ميز عروة عن غيره هو محاولته تطبيق ذلك السلوك بدقة ، والمحافظة عليه ، والسعي به للوصول الى منزلة متميزة عن الغير لتوضيح معالمه .

وانا اذ نتحدث عن عروة ، فانما نتحدث عن معاناة مخلصة ، عاشها الشاعر الجاهلي ، وهو يتألم للمجموعة البشرية التي كانت تضيق باوضاع اقتصادية غير عادلة ، ونظم اجتماعية تلوح في جوانبها الفوضى ويسودها الاضطراب .

فمشاركة عروة كانت تقوم على توزيع الطعام للمحتاجين ، واشراكهم فيه ، حتى اذا امتلأ كأسه ، وطرقه انسان ، وجد ذلك مهيئا له ، يشاركه فيه ، قل او كثر . ومشاركته قائمة على صلة الارحام ، واعطاء السائل ، وذوي القربى ومن تجب ضيافته .

وهو بعد هذا لا يكتفي بذكر مناقبه هو ، وانما يحاول جاهدا ان يضع يده على العلل التي كانت تتمثل في طائفة من ابناء قومه لاستئثارهم بانفسهم وحدهم ، فيشبعون ويجوع حولهم العشرات .

بهذا المفهوم كانت تتمثل مشاركة عروة ، وعلى هذه الخطوط رسم أهدافه وسلوكه في الحياة .

ولا نريد بقولنا هذا ان نقلل من شأن هذا السلوك الخير الذي سلكه عروة ، ولكن طبيعة البحث تدفعنا الى وضع المقاييس الملائمة لكل عصر بما يتناسب مع ذلك العصر ، حتى لا نظلم عصرا بمقاييس عصر بعيد كل البعد عنه .

لقد تمثلت حياة المشاركة بصورة جلية في حياة الفقراء من الناس، الذين أُطلق عليهم لقب الصعاليك ، لشعورهم بالبؤس ، ونقمتهم على البخلاء ، ورغبتهم في توزيع المال بين الناس بالقوة اذا اقتضى الحال ، وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة من الناس في استهانتهم بالحياة في سبيل الوصول الى الغاية التي يسعون اليها[1] :

دعيني اطوف في البلاد لعلني افيد غنى، فيه لذي الحق محمل[2]
أليس عظيما أن "تلم ملمة" وليس علينا ، في الحقوق معول
فان نحن لم نملك دفاعا بحادث تلم به الايام ، فالموت اجمل

فهم يحاولون أن يحققوا لهم مكانة في هذا المجتمع الذي يحتقرهم، ويستهين بهم عن طريق فرض انفسهم بالقوة عليه ، وبما لهم من مآثر وامجاد . فهم فقراء ، ولكن الفقر لم يقعد بهم عن ادراك المجد ، وهم شجعان لهم انفة وقوة وفتوة ، وهم بعد كل ما تقدم يملكون الرغبة الملحة في تحدي الاقوياء ، والعطف على الضعفاء .

وعروة بن الورد كان زعيم هذه الطائفة ، وهو انسان كَلِفٌ بهؤلاء الضعفاء والمساكين ، يحب لهم ما يحب لنفسه ، وقد استبدت به هذه النزعة ، حتى انه كان يؤثر الموت على الحياة البائسة المعدومة ، لاعتقاده بان الفقر ينزع الحب من قلوب الناس .

وقد جسد عروة الفقر في نفوس اهله تجسيدا رائعا ، وصور حالة هذه الطائفة من الناس ، وهوان منزلتها في ذلك المجتمع تصويرا حيا[3] :

دعيني للغنى اسعى فاني رأيت الناس شرهم الفقير
وابعدهم واهونهم عليهم وان امسى له حسب" وخير[4]

(١) ديوان عروة ص ٣٩ .
(٢) الحق : الحزم . المحمل : الجهد .
(٣) ديوان عروة ص ١٦
(٤) الخير : الشرف .

ويقصيه الندي ، وتزدريـــه حليلتـــه وينهـــره الصـغير
ويلفي ذو الغنـــى ، وله جـلال يكاد فؤاد صاحبه يطـــير
قليل ذنبــه ، والذنب جـــم ولكن للغنى رب غفـــور

كما رسم لنا مشاعر الناس تجاه هذه الظاهرة فقال[٥] :

المال فيه مهـــابة" وتجلـــة" والفقرُ فيـــه مذلة وفضوح

ولهذا فقد كان عروة يطوف البلاد ليكسب المال الذي يستطيع بذله لمن هو بحاجة اليه ، فاذا لم يستطع تحقيق ذلك الهدف ، كـــان الموت عذره[٦] :

اذا المرء لم يطلب معاشـــا لنفسه شكا الفقر،او لام الصديق،فاكثرا
وما طالب الحاجات من كل وجهة من الناس الا من اجد وشـمرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى تَعِشْ ذا يسار،أو تموت فتعذرا

ومن اجل هذا سلك هذا المسلك ، حتى لا تنقطع صلاته بالحيـــاة المليئة بالتعاطف والتكاتف ، وحتى لا يعيش وحده في رزق ضيـــق محدود ، فهو لا يعرف الحياة الا بمشاركته لغيره فيمـــا يعانيه ، وهو لا يلتذ بمظاهرها الا اذا عمّت هذه المظاهر أكبرمجموعةمن المحتاجين.

وقد اتخذ عروة بن الورد منهجا خاصا له ، حاول ان يطبقه في كل تصرفاته ، ويتلخص هذا المنهج بتمرده على البخلاء ، وعطفـــه على المظلومين ، ومقاسمته لآلامهم التي يعانونها ، وبؤسهم الذي يقاسونه، ولم يكن تمرده تمردا اعتباطيا ينزع الى الفوضى والاعتداء ، وانما كان وسيلة لغاية انسانية ، وكانت ثورته على الاوضاع القائمة تستند على طريق عادل ، سعى اليه بكل ما يستطيع ، وحاول تطبيقه بكل ما يملك ، وقد تجلت هذه الغاية برفع الظلم عن هذه الفئة من المظلومين ، وحماية الضعفاء من تسلط الاقوياء ، فهو يحاول ان يتعرف على الاغنياء ، فمن

(٥) الديوان ص ٣٢
(٦) الديوان ص ٤٣

وجده منهم بخيلا غزاه ، ومن وجده كريما تركه ، وكان يتسقط اخبار البخلاء ، ويبعث عليهم العيون ليشد اليهم الرحال .

فقد زعموا ان عروة مكث بعد قوله « أليس ورائي أن ادب على العصا » ما شاء الله ، ثم بلغه من رجل من بني كنانة بن خزيمه انه ابخل الناس ، واكثرهم مالا ، فبعث عليه عيونا ، فأتوه بخبره ، فشد على ابله فاستاقها ، ثم قسمها في قومه فقال عند ذلك[7] :

ما بالثراء يسود كل مسود ... مثر ولكن ، بالفعال يسود
بل لا اكاثر صاحبي في يسره ... واصد اذ في عيشه تصريد
فاذا غنيت ، فان جاري نيله ... من نائلي ، وميسري معهود
واذا افتقرت ، فلن ارى متخشعا ... لاخي غنى ، معروفه مكدود

وهكذا انطلقت دعوة عروة في اوساط المجتمع الجاهلي، فاستجاب لها الكثيرون ممن يشعرون بنفس هذا الشعور ، ويدركون المساويء الاجتماعية السائدة في ذلك المجتمع ، وظلت اصداء هذه الدعوة القوية تتجاوب في جوانب الجزيرة العربية .

فمشاركة عروة في هذا المجال كانت مشاركة عملية ، لانه كان يشعر بالناس اكثر مما يشعر بنفسه ، ولانه حمل عبء الفقراء في قبيلته ، وآلى على نفسه ألا يستريح حتى يجدوا كفايتهم ، فألف منهم فرقة تعمل معه ، وتسعى سعيه ، واطلق عليها اسم العيال ، لانه يعولهم ويقوم على اطعامهم ، ويبني لهم الحظائر التي يقيمون فيها ، ويغزو باشدائهم اعداءه واعدائهم ، ويوزع عليهم ما يكسبه من غزو هؤلاء .

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح[8]

ومن هنا جاءت شهرة عروة ، وبرزت شخصيته ، لما اشتملت عليه

---

(7) الديوان ص ٣١
(8) الديوان ص ٢٠

هذه الشخصية من آداب انسانية ، واخلاق كريمة ، وروح مشاركة لم تعرف التكلف ، ولم تتصنع الكرم • وقد تجلت هذه الصفات في كل ما كان يصنعه من احسان ، ويبذله من عطف ، وتمثلت افضل تمثيل في طريقة حياته ، ومعاملته لهذه الجماعة التي عاشت معه •

وعروة بعد هذا رجل العطاء والجود ، يفخر بهما في غير تبجح ، وهو رجل المشاركة الساذجة ، المرتكزة على محبة الغير ، والحدب على البائسين • فهو من ارفع الصعاليك نفسا ، لانه كان يعيش لغيره اكثر مما يعيش لنفسه ، وما فخره الا اعتراف بما يعمل ، وبما يرى ، وبما يفرضه عليه هذا النمط من الحيـــاة ، وهو تعبير طبيعي عن النفس الجاهلية في أقرب حالاتها الى العظمة •

وعروة في كل هذه الصفات ، كان يعبر عن نفس كبيرة ، ومثل سامية ، كانت تنحو منحى النبل الخلقي الذي كان يرتقي الى درجـات رفيعة من درجات الفروسية العربية ، وقد بلغ به الايثار والشفقة انه كان يعطي لمن يقعد عن الغزو بسبب المرض او الضعف مثل ما يأخـذه هو لنفسه ، وبهذا نستطيع أن نقول ان سلوكه كان قائما على مجموعة من التقاليد الاجتماعية ، النابعة من مباديء طبيعته ، وظروفه التي تأثر بها ، لذا فقد كان عروة بن الورد من الدعاة الحقيقيين لهذا السلوك ، سواء أكان في شعره ، او تصرفاته مع الآخرين •

على ان هذا السلوك الاجتماعي الخير الذي لمع في حياة هـذا الانسان العربي لم يكن مقتصرا على جانب واحد من الفروسية ، وانما شمل الجانب الآخر منها ، والمتمثل في البطولة والشجاعة ، فكان عروة يحب المغامرة ، ولا يخشى الموت ، فقد رُوي ان الناس اصابتهم سنه فاجدبوا ، واهلكت اموالهم ، واصابهم جوع شديد ، وبؤس ، فأتوا عروة ، فجلسوا امام بيته ، فلما بصروا به ، صرخوا وقالوا : يا أبـا الصعاليك ، اغثنا • فرق لهم ، وخرج ليغزو بهم ، ويصيب معاشـا ، فنهته امرأته عن ذلك لما تخوفت عليه من الهلاك فعصاهـا ، وخرج

غازيا وفي ذلك يقول[٩] :

اري أم حسان الغـداة ، تلومني   تخوفني الاعداء والنفس أخوف
لعل الذي خوفتنا من امامنـــا   يصادفه ، في اهلـــه ، المتخلف
فاني لمستاف البلاد بســـربة   فمبلغ نفسي عذرها ، أو مطوف

كما تحدث عن السلاح ، ورسم لاصحابه الصور الرائعة لهم ،وهم يخوضون معترك الحياة القاسية ، وهو لا يجد في حياته شيئا يتركـه لوارثه غيرالدرع والمغفر ، والسيف والرمح والفرس ، مدللا بذلك على فروسيته ، ومؤكدا على ان هذه الوسائل هي السبيل الوحيد الى ادراك المجد في حياة الانسان الجاهلي ومماته :

وذي أمل يرجو تراثي وان مـا   يصير له منه غـدا لقليـــل
ومالي مال غير درع ومغفـــر   وابيض من ماء الحديد صقيل
واسمر خطي القنـــاة مثقف   واجرد عريان السراة طويـــل

وتلوح مقدرته قائدا حربيا في رسم الخطط الدقيقة التي تضمن له ولجماعته الفوز باقل تضحية واكثر غنيمة ، ليشق طريقه نحو الحياة بالقوة ، وليستطيع ان يفرض نفسه فيها ، وليتمكن من انتزاع لقمـة العيش من ايدي هؤلاء الذين حرموهم من وسيلة الحياة ، بسلوكـه الطرق المخوفة ، وقطعه المسالك الكثيرة[١٠] :

وغبراء يخشى رداها ، مخوفـة   اخوها ، باسباب المنايا مغـرر
قطعت بها شك الخلاج ولم اقل   لخيابة ، هيابـة ، كيف تأمـر

فقد أصبح حب المغامرة عنده وعند هذه الفئة وسـيلة ، غايتها تحقيق النزعة الانسانية التي اتصف بها ، وهو مع ذلك يعلم أن الموت يكمن له في كل ثغر ، وعند كل ثنية ، ولكن ذلك لا يمنعه من السير في

---

(٩) الديوان ص ٢٢
(١٠) الديوان ص ٤٧

الطريق الذي رسمه لنفسه[11]

الم تعلمي يا ام حسان انني خليطا زيال ليس عن ذاك مقصر
وان المنايا ثغر كل ثنية فهل ذاك عما يبتغي القوم محصر؟

وغاراته لم تكن معينة ، وحقل غزواته لم يكن محدودا ، فهو يغير يوما على نجد ، ويوما على اهل الجبل[12]

فيوما على نجد وغارات اهلها ويوما بارض ذات شث وعرعر

وعروة بعد تضحياته هذه لم يكن يقابل من اصحابه بمثل ما كان يقابلهم به ، فهو يسعى بنفسه ، ويجود بها في سبيل تحقيق الطعام لهم ولمعوزيهم ، ولكنهم مع هذا يتنكرون له ، ويحاسبونه محاسبة دقيقة عند توزيعه الغنائم ، ومما يذكر في ذلك ما رواه صاحب الاغاني[13] .

ان الناس اصابتهم سنة شديدة تركوا في دارهم الكبير والمريض والضعيف ، وكان عروة بن الورد يجمع اشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة ، ويحفر لهم الاسراب ويكنف عليهم الكنف[14] ويكسبهم[15] ، ومن قوي منهم – اما مريض يبرأ من مرضه ، او ضعيف تثوب قوته – خرج به معه فاغار ، وجعل لاصحابه الباقين في ذلك نصيبا ، وذات يوم قيض له وهو في ماوان[16] رجل صاحب مائة من الابل قد فر بها من حقوق قومه – وذلك اول ما البن الناس – فقتله واخذ ابله وأمرأته ، وكانت من احسن النساء ، فأتى بالابل اصحاب الكنيف فحلبها لهم وحملهم عليها ، حتى اذا دنوا من عشيرتهم

---

(١١) الديوان ص ٥٦

(١٢) الديوان ص ٣٠

(١٣) الاصفهاني : الاغاني ٣/٧٨ دار الكتب

(١٤) يكنف عليهم الكنف : يتخذ لهم حظائر يؤويهم اليها ، واحدها « كنيف » .

(١٥) يقال كسب لاهله : طلب المعيشة .

(١٦) ماوان : واد فيه ماء فيما بين النقرة والربذه .

أقبل يقسمها بينهم ، واخذ مثل نصيب احدهم ، فقالوا : لا واللات والعُزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا فمن شاء اخذها ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم ، وينتزع الابل منهم ، ثم يذكر انهم صنيعته وانه ان فعل ذلك افسد ما كان يصنع ، فافكر طويلا ثم اجابهم الى أن يرد عليهم الابل الا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجل منهم فجعل له راحلة من نصيبه[17] .

والحكاية توضح لنا الطريق الذي انتهجه هذا الرجل ، وعلى ايمانه به ، فهو يؤمن بان هؤلاء صنيعته ، وانه لا يريد ان يعمل عملا يسيء اليهم فيفسد كل صنيعه الذي قدمه لهؤلاء ، وارتضى لنفسه كل ما فرضوه عليه واوجبوه . وهو بهذا يرسم لنا اروع صورة من صور التضحية النادرة . الصورة التي يقف امامها الانسان بكل اجلال ، ليدرك قيمة هذا الانسان الذي احسَّ بكل جوارحه بآلام البشر الذين وقعوا تحت غائلة الجوع فعركهم وآذاهم .

وبعد ، فقد بقيت احاديث عروة تذكر بكل اجلال وتعظيم ،وظلت مناقبه حديث كل مجلس ، حتى ان عبدالملك بن مروان قال : من زعم ان حاتما اسمح الناس ، فقد ظلم عروة بن الورد [18] . نعم من زعم ذلك فقد ظلم عروة ، لانه كريم ، ولانه سمح ، فقد كان يجهد نفسه ويتعبها لاجل مشاركة الناس له في زاده وانائه ، في وقت تشتد فيه المجاعة ، وينتشر الناس في أطراف الصحراء يبحثون عن الطعام . نعم من قال ذلك فقد ظلم عروة ، لانه رجل آمن بهذا السلوك فكان انسانا سمحا وهوبا . وكما تحدث عنه عبد الملك ، فقد تحدث عنه معاوية بحديث يلمس منه الاعجاب ، وقبل أن انهي الحديث عن هذا الشاعر لابد أن أشير الى ظاهرة تلفت النظر في شعر عروة . وهذه الظاهرة تبدو في

---

(١٧) لم تنته القصة عند هذا الحد ، ومن اراد تكملتها فليرجع اليها في الاغاني ٣/٨٠

(١٨) الاصفهاني : الاغاني ٣/٤٧ دار الكتب

الابيات التي تكثر فيها المعاني التي تعارف الناس على انها معانٍ اختص بها عروة ، فكانت تضطرب نسبتها اليه ، فالابيات التي اولها[19] :

اذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح عليه، ولم تعطف عليه اقاربه[20]

تنسب في حماسة ابي تمام[21] والاغاني[22] الى ابي النشناش ، وهو اموي ومن لصوص تميم ، كما ان الابيات[23] :

فراشي فراش الضيف ،والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنع[24]
أحدثه ، ان الحديث من القرى وتعلم نفسي انه سوف يهجع

تنسب الى عُتبة بن بُجير في حماسة ابي تمام[25] مع تغيير في الشطر الاول[26] وقيل لمسكين الدارمي[27] .

ومع هذا فان الشعر الذي وصل الينا لعروة ، يكفي لتوضيح معالم حياته ، وابراز شخصيته ، ورسم طريقته في الحياة التي بنى عليها جميع تصرفاته ، كما ان الذي يظهر لنا من دراسة هذه القصائد ، هو ان الشاعر كان يدعو الى الاجتهاد في نيل الغنى ، والوصول الى الحد المعين ، حتى لو ادى هذا الطريق الى الموت،فان الموت يصبح مريحا يهيء العذر لمثل هذه الميتة . والمجتهد في طلب الشيء ، اذا حال اجله دون أمله ، فقد أعذر لانه فعل ما كان واجبا عليه ، واما اذا ادرك مناه ،فهذا

---

(١٩) ديوان عروة ص ١٧
(٢٠) السوام : الماشية والابل الراعية . يرح عليه : اي ترد ابله الى مراحها .
(٢١) جـ١ ص ٣١٧
(٢٢) جـ١١ ص ٤٢ـ٤٣
(٢٣) ديوان عروة ص ٤٠
(٢٤) الغزال المقنع . المراة الحسناء
(٢٥) جـ ٤ ص ١٧١٩
(٢٦) لحافي لحاف الضيف الخ ...
(٢٧) ابو تمام : الحماسة ١٧١٩/٤ شرح المرزوقي .

ما كان يسعى اليه ، وهو في الحالين ناجح في مهمته مصيب في مبتغاه[28]

وقات لقوم ، في الكنيف، تروحوا عشية بتنا عند ماوان ، رزح[29]
تنالوا الغنى ، أو تبلغوا بنفوسكم الى مستراح من حمام مبـرح
ليبلغ عذرا ، او يصيب رغيبـة ومبلغ نفس ، عذرها مثل منجح

وهذا المعنى يتردد في شعر عروة كثيرا ، ففي حديثه عن الصعلوك الشجاع يصف اشراق وجهه بالضوء المشع ، وهو يبذل جهده في طلب مناه ، ويقصر سعيه على ما يبلغ به عذره ، فيشرق على اعدائه غازيا مغيرا وهم يزجرونه ، فيكر عليهم وقتا بعد وقت ، ولا يقعد عن طلب الأعداء والاغارة عليهم ، والنيل منهم ، وهم يعدون به ما يعدون من وسـائل الموت ، حتى اذا ادرك الموت ، لقيه محمودا لانه فعل ما يجب عليه ان يفعله[30] :

ولكن صعلوكا ، صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنـور
مطلا على اعدائه يزجرونـــه بساحتهم ، زجر المنيح المشهر[31]
اذا بعدوا لا يأمنون اقترابـــه تشوق اهل الغائب ، المتنظـر
فذلك ان يلق المنيـــة يلقهـا حميدا ، وان يستغن يوما ، فأجدر

بهذه المعاني يشرق شعر عروة ، وبهذه الانسانية ترتسم شخصيته، ومن هنا ندرك ان هذا الشاعر لم يكن انسانا عاديا وسط ذلك المجتمع، وانما هو شخصية لها قيمتها الاجتماعية ، باعتباره الموجه الحقيقي لهذه الطائفة من الناس والتي اطلق عليها المؤرخون الصعاليك ، وبانه الروح المسيرة لهذا التيار في الحياة الجاهلية .

---

(28) ديوان عروة ص ٢٠

(29) تروحوا : ساروا بالرواح ، العشي . ماوان واد فيه مـــاء فيما بين النقرة و لربذة . رزح : قد سقط من الاعياء

(30) ديوان عروة ص ٢٨

(31) المنيح : قدح مستعار سريع الخروج والفوز يستعار فيضرب ثم يرد الى صاحبه .

ومن حقنا بعد هذا ان نرى عروة من خلال قصائده الانسانية ، فهو انسان اكثر من فرد واحد واكثر من قبيلة واحدة ، لانه وعى مأساة الحياة ، وادرك باحساسه العميق قيمتها الزائلة ، واثرها في النفوس ، فعاش من أجل الذكر الحميد ، والمأثرة الخالدة ، وانطلق في سلوكه هذا يعمل بكل ما يستطيع ، ويجاهد دونه بكل ما يقع تحت يـده ، فخلد لنفسه ذكرا طيبا .

أما بالنسبة للتاريخ الجاهلي ، فاذا لم يكن قد ذكر لنا امثـالا لعروة الا في القليل النادر ، فليس معنى ذلك ان عروة وامثاله نادرون في التاريخ الجاهلي ، وليس معنى هذا ان عروة كان يمثل طرازا حيويا شاذا ، بل الاصح ان نقول ان عروة وامثاله كانوا يمثلون تيارا انسانيا يشق سبيله بقوة وعزم في خضم الحياة الجاهلية، تيارا يستمد كل حياته من طبيعة الظروف التي يعيشها ، والقيم التي تحيط به ، والتقاليد الخيرة التي يتصف بها اصحاب هذا السلوك .

الخاتمـــة

•

وبعد ، فقد انتهى الموضوع على الشكل الذي اردته له ، وعلى أساس الخطة التي وضعت لكتابته ، واصبح يشكل وحدة عامة تجمع اشتاته ، وتلم اطرافه المتباعدة ، وتصنع منه تيارا شعريا ســـاد الفترة الجاهلية ، وعاش ايامها ، وعاصر حوادثها •

ولا بد لي وأنا انهي البحث ان اشير الى الجوانب التي عالجتها في الموضوع ، لاخرج بنتيجة واضحة المعالم ، بينة الوجوه •

لقد وجدت ان كلمة فروسية في اللغة تدور حول ثلاثة معان : دق العنق والقتل ، والخيل التي يشتق منها اسم الفاعل الذي هو الفارس ، ثم الحذق بامرها وركوبها ، والثبات عليها ، والتعرف على احوالهـا ، والفراسة وهي التفرس والتثبت في النظر ، والتأمل في الاشياء لادراك بواطنها ، وقد لاحظت ان هذه المعاني الثلاثة متلازمة ومتشابكة : تتفق في امر واحد ، وتنتهي عند نتيجة واحدة ، هي القتل ودق العنق ، أمـا استعمالها الادبي فقد وجدت من استعراضي للنصوص التي وردت فيها هذه الكلمة ، انها تمثل جانبين من جوانب الحياة الجاهلية ، جانب الحرب وجانب المثل العليا ، وهي في كلتا الحالتين بناء واحد ، وروح واحدة ،لان شخصية الفارس البطل تملي عليه ان يكون انسانا ساميا في مثله الى جانب بطولته ، وان الحياة الجاهلية بطولة وحماسة ، يكمـل

الجزء منها بقية الاجزاء ، وعندها يجتمع الاسس ليقوم عليه البناء الشامخ الذي احتضن مفاهيم الفروسية بكل معانيها .

ثم وقفت اتأمل البواعث الحقيقية التي ساعدت على ازدهار هذه القيم ، فكانت الطبيعة الصحراوية اول تلك البواعث ، باعتبارها القوة المؤثرة في تكوين الانسان وقوته ، كما انها تعتبر من العوامل التي لها المساس الملحوظ باخلاق الشعوب وعاداتهم ، ولون تفكيرهم وطبائعهم النفسية ، والمناخ بدوره اهم عنصر من عناصر البيئة بحكم اهميته البالغة في التأثير في حياة البشر ، وان طريقة الحياة التي تحياها الشعوب المختلفة انما هي تفاعل بين العوامل الطبيعية وفعاليات الانسان نفسه .

وكانت المرأة باعثا آخر من بواعث الفروسية ، لما اثارته في نفس الرجل من مشاعر ، ولانها كانت ملهمة الشعراء في روائعهم ، وباعثة عواطفهم التي خلدوا فيها ادبا يحمل كل معاني السمو والاباء ، لقد وجد الفارس الجاهلي في محبوبته المثل الاعلى الذي يصوره فكان اسمها يتردد في ساحات القتال ، وعند التحام المعارك . ان معاني الحب السامية التي غرستها المرأة في قلب العربي كانت تتمثل في التضحية الصادقة ، والاستبسال من اجل الحب .

ومن هنا كانت المرأة باعثا قويا من بواعث الفروسية ، ومنطلقا واسعا من منطلقاتها الرحبة ، ومجالا فسيحا يظهر فيه الفرسان بطولاتهم النادرة .

والحرب ، باعث ثالث كان له الاثر في تدريب الفرسان وتقوية سواعدهم ، لان نفس العربي وما فطرت عليه من شجاعة واباء وشمم ، كانت تجعل الحرب قريبة منه ، مألوفة لديه ، بل محبوبة عنده في كثير من الاحيان ، ولانه يعدها مجالا لبطولته ، وامتحانا لمواهبه .

وقد كان لايام العرب دور كبير في حركة الشعر الحربي ، بما اثارته في نفوس الشعراء ، وما رسمته حوادثها في اذهانهم من فخر

وانتصار ، فكان هذا الديوان الضخم من شعر الحماسة ، وكانت هذه القصائد الرائعة في عالم الحرب والبطولة . والثأر عادة تأصلت فيطباع العربي واصبحت جزءا من كيانه ، وكان الاخذ به دليلا على الشجاعة والقوة ، والسكوت عنه دليلا على الخضوع والذلة والاستكانة ، فكان لابد ان تلعب هذه العادة دورها في الصراع العنيف الذي عاشه العصر الجاهلي ، وطبيعي ان تتحدث عن اساليب الحرب في سياق حديثنا عن الحربنفسها ، وتتحدث عن الطرق التي كانوا يسلكونها عند التقائهم بالعدو ، وعند التحامهم في المعركة،وما يرافق ذلك من استعداد وتهيوء ، ووضع خطط ، وتأمين محافظة النساء والذراري والشيوخ والاطفال ، وارسال طلائع للاستكشاف ، وغير ذلك مما تقتضيه طبيعـة المعركة ، وتوجيه الظروف المحيطة بها . وكان لزاما علينا ان نختم حديثنا عن الحرب بالدعوات التي كانت تتعالى من افواه العقلاء والمجربـــين لاستبشاع مناظرها ، واستهجان فظائعها ، موضحين بما وضعوه من قصائد بشاعتها واهوالها ومآسيها .

وكما لعبت الحرب دورها كباعث من بواعث الفروسية ، كـــان لتمجيد البطولة اثر فيها ، لان البطل في البيئة الجاهلية يمثل الانسان الذي تتجسد فيه آمال الناس ورغباتهم ، وتتمثل في اعماله بطولاتهم ، فيدرك بما اوتي من قابليات واحاسيس مطامح مجتمعه ، فيحـــاول تحقيقها ، ويسعى الى انجازها ، لتتسكن صورته في نفوسهم ، وطبيعي ان يكون احتفاء الامة بابطالها من ابرز دلائل حيويتها ، وان من حيوية الامم حفول تاريخها باسمائهم .

ثم تحدثت عن عناصر الفروسية المتمثلة في الخيل والسلاح :

أما الخيل ، فهي من اولى معدات الحرب ، واشدها حاجة وقت الشدة ، وعلى مدى قوتها وخبرتها بالحرب تكون درجة القتال ، وعلى ثباتها في المعركة تتوقف النتائج الحاسمة ، وقد أمن الفارس الجاهلي

صداقة فرسه ، واطمأن الى وفائه ، فهو انيسه في المغامرة ، وصاحبه في السرى ، ورفيقه في الحل والترحال ، وقد لمس العربي تلك الصداقة في اشد المحن ، وتذوقها في احرج الساعات ، فكان الصديق الذي يبثه شكواه ويقاسمه احزانه . وقد ارتسمت كل هذه الصور في دواوين الشعراء ، وبرزت في قصائدهم . فالخيل تخوض الحرب كما يخوضها الفارس ، وتخرج محجلة الايدي دما . ولقد كان اهتمام العرب بتنشئة ابنائهم على الخيل ، وتعويدهم على ضروبها ضرورة تحتمها الظروف القاسية . وكانت للعرب معرفة حسنة بشؤونها واحوالها ، لم يسبقهم اليها سواهم ، وقد تخصص فريق من الشعراء في اوصافها واشتهروا بذكر اعضائها ومميزاتها فاطلق عليهم المؤرخون لقب نعات الخيل . وقد حفلت كتب الادب والتاريخ باسماء الخيل والقابها وانسابها وما اشتهر منها ، كما حفلت بخلقها ودوائرها ، وما يستحب منها ، وما يكره فيها ، وألوانها واحوالها وأشكالها وأوصافها ، وفي هذا ما يدل على أن امة العرب كانت امة حرب وضرب .

أما السلاح ، فكان من الطبيعي ان يتحدث الشعراء الفرسان عنه ، لانه يمثل القوة التي يستندون اليها في حياتهم ، والعنصر الاساس الذي تعتمد عليه بطولاتهم . ولم يكن الحديث الذي يتحدث به الشعراء عنها حديثا عابرا ، وانما هو حديث المناجاة والاعجاب ، حديث الاهتمام بكل جزء من اجزائها ، وبكل ميزة من ميزاتها ، الحديث الذي يصف مضاءها وقوتها وعنصرها وجوهرها ، ويتحدث عن حبه لها وقيمتها بالنسبة لحياته . هذا الحديث الذي كان يخرج من قلبه خالصا دقيقا ، فيصبح اغنية عذبة يتمثلها في مواضع الشدة ، ويتغنى بها في سوح القتال . وكان لزاما أن نتطرق الى أنواع الاسلحة التي استعملها الفارس الجاهلي ، ونستعرض اقواله فيها ، سواء أكانت اسلحة هجوم ، كالسيف والرمح والقوس والسهم ، ام اسلحة دفاع ، كالدرع والترس والمغفر والبيضة . ونخرج من كل هذا الى الاسباب التي دفعت العربي الى الاهتمام

بالسلاح ، لمواجهة الحياة ، ومواجهة الظروف الصعبة التي كانت تلم به .

ثم تحدثت عن تقاليد الفروسية واصولها وشاراتها وملابسها ، وطبيعي ان نستعرض بعض تلك التقاليد التي رافقت حياتهم ، سواء أكان ذلك في السلم أو الحرب . فالفارس كريم جواد وهوب وقت الازمة ، يمنع جاره ويصون حماه ، ويدافع عن قبيلته ، والفارس يسعى لكسب الحرب ، ولا يقبل الحياة التي مازجها الهوان ، مهما تكن المغريات . فهي في حلقه غصص وشجى ، وربما يعلم عن نفسه بعلامة ، متحديا بذلك خصومه ، وكان الفرسان يتخذون لهم شعارا يتنادون به في الحرب ، ويعرف بعضهم البعض من هذا الشعار ، كما كان البعض يتخلى عن السلاح ، لان ذلك يعتبر منتهى الشجاعة وقمة الفروسية ، الى جانب هذه التقاليد كانت هناك تقاليد اخرى ، واصول غير هذه ، تمكنا من جمع بعضها من خلال استقصائنا للشعر . أما الملابس ، فقد كان المقاتلون يلبسون الدروع حماية لهم من الضرب ، وكان بعض المياسير من كبار القواد يضاعف بين درعين ويلبس احداهما فوق الاخرى ، وكان لذكر العمائم مواضع في قصائدهم واشعارهم ؛ لانها كانت تمثل التيجان التي يرتسم فيها العز .

— ٢ —

ثم انتقلت بعد ذلك الى الباب الثاني الذي تحدثت فيه عن اولية الشعر ، وقد وجدت ان الشعر الجاهلي لم يكن بدائيا ــ كما تصور البعض ــ وانما هو ثمرة ناضجة لمراحل سابقة من تطور الفن الشعري ، لان الالتماعات الابداعية الرائعة التي نلمسها في هذا الشعر لا تدل على الحداثة ، وانما تدل على مستواه الفني الرفيع .

كما ان النمو الطبيعي للقصيدة العربية باوزانها ومضامينها يستدعي ان تكون هذه القصيدة قد مرت باطوار كثيرة ، تعثرت خلالها تعثرات صعبة،ووقفت امام عوائق صلدة ، حتى كتب لها هذا الاكتمال.

وطبيعي — وانا اتحدث عن شعر الفروسية — ان اتحدث عن نظرية الشك والانتحال التي اثيرت في العصر الحاضر ، والتي بولغ فيها مبالغة اثارت الدهشة والاستغراب ، ولم احاول اثارة المناقشات الطويلة التي دارت حول هذا الموضوع ، ولكنني اكتفيت ببعض الاشارات ، وعلى قدر ما يتعلق الامر بهذه الدراسة التي تعتمد الشعر الجاهلي اساسا لبحثها،ومحورا لنتائجها،وقد حاولت في هذه الاشارات ان اثبت خطأ ما ذهب اليه البعض حول هذه النظرية ، محاولا اثبات ذلك بما اقتنعت بصحته من الحجج والبراهين ، وقد خلصت من ذلك الى نتيجة واحدة . هي أن الشعر الجاهلي فيه موضوع وفيه منحول، ولكن ذلك لا يؤدي بنا الى رفضه ، ولان المؤرخين القدامى قدادركوا هذه الحقيقة فاحاطوه بسياج محكم من التحري والتثبت ، وميزوا بين ما هو منحول وما هو غير منحول ، وما هو ثابت في صحته وما هو مشكوك في روايته . ثم تحدثت بايجاز عن مصادر شعر الفروسية ، واشرت الى بعض تلك المصادر التي حملت الينا الشعر الصحيح ،فكانت المعلقات والمفضليات والاصمعيات وكتب الحماسة وجمهرة اشعار العرب والدواوين التي رواها الثقات اولى المصادر التي اعتمدتها للبحث، لانها تمثل لنا مجموعة الشعر الصحيح الذي ساد العصر الجاهلي ،فصور القيم التي عاشت وسط ذلك المجتمع ، كما ان هذا الشعر يمثل مختلف نواحي الحياة الجاهلية .

ثم بحثت في موضوعات شعر الفروسية ، فكان الفخر والحماسة اول تلك الموضوعات ، لانه يمثل الوسيلة التي تنشر بها مفاخر القوم ، وذكريات ايامهم ، وهو باب واسع من ابواب الشعر العربي ، لتعبيره عن ميلهم الطبيعي الى الانفة والعزة ، وقد وجدت ان حركة الفخر قد

امتزجت بالحماسة في كثير من الاحيان فاصبحت حركة شعرية واحدة ، استنفدت القصائد الكثيرة ومـــدت الشعراء بوقود جزل من التغني بالبطولات ، فكانت ديوان العرب الكبير ، وغرضهم الواسع الذي جمع مآثرهم ومحامدهم ، ثم تحدثت عن الهجاء لاتصاله بحياة الفرســان ، ولانهم صوروا فيه الخصوم بصور غير مستحسنــــة ، فجردوهم من صفات البطولة ، ونعتوهم بشتى النعوت التي لا تليق بالفرسان ، على أن ذلك لم يمنع البعض من انصاف الخصوم ، واظهار شجاعتهم ووصف بطولاتهم ، وهذا ما حدا ببعض المؤرخين الى تخصيص قسم من القصائد واطلاق اسم المنصفات عليها • واما ثالث الموضوعات فهو الرثاء ، لان الشعراء تعرضوا في هذا الموضوع الى صفات البطل المرثي ، وعرضوا في مراثيهم ما يتميز به من نخوة وبطولة وكـــل ما يضفي عليه لقب الفارس •

وتحدثت بعد ذلك عن أثر الحرب في شعر الفروسية ، وما صنعته التجارب الكثيرة التي خاضها الشعراء الفرسان فيهم من قابليات رائعة ، وبينت أثر ذلك في الهامهم الدقة في الوصف ، والحسن في التصوير ، والصدق في العاطفة ، والاجادة في التركيب الشعري • لان الحرب في الواقع كانت تمثل المحور الاساس الذي دارت عليه الحياة الجاهلية •

- ٣ -

واتنقلت الى الباب الثالث وهو شعراء الفروسية ، وكان حديثي عن الجوانب البارزة في حياة ثلاثة من هؤلاء الشعراء هم : عنترة وحاتم وعروة • وعقدت الفصل الاول للحديث عن جانب الحب عند عنترة ، فتحدثت فيه عن عنترة الفارس الذي تمثلت فيـــه القيم البطوليـــة ، والفروسية الجاهلية ، واتنهيت الى ان عنترة كان يمثل رمزا من رموز

البطولة العربية النادرة ، وملحمة رائعة من ملاحم الشعر العربي ، ثم تحدثت عن عنترة الانسان الذي تمثلت فيه المروءة الجاهلية بكل ما تنطوي عليه من انسانية ، وخلصت الى انه كان عفيفا تسمو به عفته فوق ما عهدناه عند كثير من الشعراء ، فهو سمح المعاشرة ، يجود بما ملكت يده ، ويعف عند المسألة ، عند توزيع الغنائم ، ويلبي دعوة من يناديه ، ثم انتقلت الى عنترة العاشق الذي يمثل بداية الحب العذري ، والذي تمتزج عنده الفروسية بالحب ، ووجدت ان الحب كان جانبا من جوانب حياته ، بما كان يصوره من مظاهر الفروسية الشريفة • وان المثل الرفيعة التي اتسمت بها حياة هذا الفارس ، قد هيأت الظهور للغزل العذري عند العرب ، واوجدت النواة المشرقة التي مهدت لظهور الشعراء الغزليين •

وقد لاحظت ان المؤرخين لم يخصوا عبلة بجانب كبير من اخبارهم ، بل تكاد تكون رواياتهم خلوا منها ، على الرغم من تردد اسمها في شعره بصورة عامة ، وفي معلقته بصورة خاصة ، كما وجدت ان عقدة اللون او مشكلة اللون عنده كانت واضحة ، وكانت هذه العقدة سببا من اسباب مأساته التي عاناها ، فاضفت على شعره لونا حزينا ، واكسبته طابعا عاطفيا رائعا ، لانه سجل فيه آلام نفسه ، ووقف حائلا دون تحقيق ما كانت تصبو اليه هذه النفس •

وعقدت الفصل الثاني للكرم عند حاتم الطائي ، وتحدثت عن حاتم باعتباره عنوانا للكرم ، ثم تحدثت عنه باعتباره فارسا تتمثل فيه عناصر الفروسية الحقة ، فللمال في عرف حاتم سبيل ، وللبذل في نظره مبرر ، والعيش قصير ، والحياة فانية ، والبذل والسخاء لن يقدما المنية عن أمدها ، ولؤم النفس البخيلة ، لا يديم بقاءها في دنياها ، فاذا كان الجود يفني ، والبخل لا يبقي ، وكان السخاء اقامة المروءة ، واكتساب الاكرومة ، وادخار الشكر ، واقتناء الاجر ، فالعقل يوجب الاخذ به ، والحزم يقتضي الزهد في غيره • ومن هذه الفكرة انطلق حاتم في كرمه ،

فخلد لنفسه الذكر الحميد الذي ظل يتردد حتى عصرنا الحاضر ، وقد حاولت أن أرد على بعض الذين حاولوا تفسير كرم حـــاتم بالحرص على الشهرة والدعاية ، ارضاء لكبرياء نفسه ، واستقبالا لالفاظ الشكر، بما وجدته من ادلة كرم هذا الانسان ، وانتهيت الى ان الكرم عـنـده طبيعة وفطرة ، وجدت في بيئته كل عوامل النمو والازدهار ، فاينعت هذا المثل النادر ، واثمرت هذه الارومة الخيرة .

واما الفصل الثالث ، فقد خصصته للحديث عن عروةوالاشتراكية، وقد بينت في هذا الفصل استئثار عروة دون غيره بصفة لم تتهيأ لاحد ، وقد اطلق المؤرخون عليها تجوزا الاشتراكية .

ولم احاول مناقشة هذه الصفة من الناحية النظرية والعلمية ، لان ذلك يستدعي دراسة مستفيضة لمفهوم الاشتراكية وتطورها وظروف نشأتها ، وقد اكتفيت بعرض بسيط لما تعارف عليه الناس حول هـذا المفهوم ، ومدى علاقته بما رسمه عروة لنفسه في سلوكه وشـــعره ، لاستطيع ان اضع عروة بن الورد الموضع الملائم له ، والمناسب لظروفه التاريخية . وقد بينت ان الذين كتبوا عن اشـــتراكية عروة كانوا متأثرين الى حد ما بالنظريات الاشتراكية الحديثة ، ومن خلال تأثرهم هذا نظروا الى اعمال عروة التي لم ينفرد بها وحده ، فوجدوا من ذلك مبررا لهذه التسمية التي تحمل نوعا من وضع المصطلحات في غـــير مواضعها .

وانتهيت من كل ذلك الى أن التاريخ الجاهلي اذا لم يذكر لـنـا امثالا لعروة الا في القليل النادر فليس معنى ذلك ان عروة وامثالـــه نادرون في التاريخ الجاهلي ، وليس معنى هذا ان عروة كان يمثل طرازا حيويا شاذا ، بل الاصح ان نقول ان عروة وامثاله كانوا يمثلون تيارا انسانيا يشق سبيله بقوة وعزم في خضم الحياة الجاهلية ، تيارا يستمد كل حياته من طبيعـة الظروف التي يعيشها ، والقيم التي تحيط به ،

والتقاليد الخيرة التي يتصف بها اصحاب هذا السلوك ٠

وبعد فهذا ما تمكنت من تحقيقه في دراستي ، وكما رأيته متمثلا في جوانب الحياة التي عالجتها ٠ وهي دراسة ارجو ان تكون واضحة المعالم ، وأدعو الله أن يوفقني لاستكمالها في المستقبل القريب ٠ والله الموفق لكل عمل خيّر ٠

نوري حمودي القيسي

مصادر البحث ومراجعه

(١) **احمد امين :**
الصعلكة والفتوة في الاسلام ــ القاهرة دار المعارف بمصر ــ ١٩٥٢ .

(٢) **أحمد محمد الحوفي :**
(أ) المرأة في الشعر الجاهلي ــ القاهرة ــ ١٩٥٤
(ب) الغزل في الشعر الجاهلي ــ القاهرة ــ ١٩٥٣
(ج) الحياة الادبية في الشعر الجاهلي ــ القاهرة ــ ١٩٤٩

(٣) **الاصفهاني : ابو الفرج . علي بن الحسين بن محمد الاموي**
الاغاني ــ ط . دار الكتب والساسي بحسب ما يذكر في الهامش

(٤) **الاصمعي : ابو سعيد ، عبدالملك بن قريب**
الاصمعيات ــ ط . دار المعارف . تحقيق الاستاذين عبدالسلام هارون واحمد محمد شاكر ١٣٧٥ ــ ١٩٥٥

(٥) **الاعشى : ميمون بن قيس**
ديوانه . شرح محمد محمد حسين ــ القاهرة المطبعة النموذجية ١٩٥٠ .

(٦) **امرؤ القيس بن حجر الكندي**
ديوانه ــ ط دار الكتب تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ١٩٥٨
ديوانه ــ ضمن مجموعة الاعلم الشنتمري تحقيق مصطفى السقا ــ القاهرة ١٣٤٨ ــ ١٩٢٩

(٧) **البحتري : الوليد بن عبيد الله بن يحيى .**
الحماسة ــ ضبط وتعليق كمال مصطفى ــ القاهرة المطبعة الرحمانية ــ ١٩٢٩

(٨) **البخشي : محمد بن محمد البخشي**
رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد .

(٩) **بشر بن أبي خازم**
ديوانه ــ تحقيق الدكتور عزت حسن ــ دمشق ١٣٧٩ــ١٩٦٠

(١٠) **بشير يموت**
شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام . بيروت ١٣٥٤ــ١٩٣٤

(١١) **بطرس البستاني**
الشعراء الفرسان . بيروت ــ دار الكشاف ١٩٤٤

(١٢) **البغدادي : عبدالقادر بن عمر**
خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ــ القاهرة ، المطبعة السلفية ١٣٤٧ وط بولاق

(١٣) **بلاشير : الدكتور ريجيس بلاشير**
تاريخ الادب العربي ــ ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني ــ دمشق ، مطبعة الجامعة السورية ــ ١٩٥٦

(١٤) **التبريزي : ابو زكريا ، يحيى بن علي**
شرح القصائد العشر ــ القاهرة ، المطبعة المنيرية ١٣٦٧ هـ

(١٥) **التنوخي : المحسن بن علي بن محمد بن داود التنوخي**
المستجاد من فعلات الاجواد . تحقيق محمد كرد علي ــ دمشق ١٣٦٥ ــ ١٩٤٦

(١٦) **الثعالبي : عبدالملك بن محمد بن اسماعيل**
فقه اللغة ــ باعتناء لويس شيخو ــ بيروت ــ ١٩٣٨ م

(١٧) **الجاحظ : ابو عثمان ، عمرو بن بحر**
(أ) البيان والتبيين ــ تحقيق حسن السندوبي ــ القاهرة مطبعة الاستقامة ١٣٦٦ ــ ١٩٤٧
(ب) الحيوان ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ القاهرة ١٩٣٨

(١٨) **جرجي زيدان**
(أ) انساب العرب القدماء ــ القاهرة مطبعة الهلال ١٩٠٦
(ب) تاريخ آداب اللغة العربية ــ باعتناء الدكتور شوقي ضيف ــ القاهرة مطبعة دار الهلال ١٩٥٧

(جـ) تاريخ التمدن الاسلامي مراجعة الدكتور حسين مؤنس
مطبعة دار الهلال ١٩٥٧

(١٩) **الجزائري : محمد الجزائري**
نخبة عقد الاجياد في الصافنات الجياد ـ بيروت ـ المطبعة
الاهلية ١٣٢٦

(٢٠) **جواد علي**
تاريخ العرب قبل الاسلام ـ مطبوعات المجمع العلمي العراقي
١٩٥٤ ـ ١٩٦٠

(٢١) **الجوهري : اسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ـ الصحاح**
تحقيق احمد عبدالغفور عطار ـ دار الكتاب العربي ١٩٥٦

(٢٢) **حاتم الطائي**
ديوانه ـ لندن ١٨٧٢
ديوانه ـ بيروت ـ طبع صادر ١٩٥٣

(٢٣) **ابن حبيب : ابو جعفر ، محمد بن حبيب**
(أ) المحبّر ـ طبع الهند ١٩٤٢
(ب) من نسب الى امه من الشعراء ـ تحقيق عبدالسلام
هارون ضمن مجموعة من الرسائل(نوادر المخطوطات)
طبع لجنة التأليف والترجمة ١٣٧٠ـ١٩٥١

(٢٤) **حسان بن ثابت**
ديوانه ـ طبع صادر ـ ١٣٨١ ـ ١٩٦١

(٢٥) **الخالديان : ابو بكر محمد وابو عثمان سعيد**
كتاب الاشباه والنظائر من اشعار المتقدمين والجاهلية
والمخضرمين ـ طبع لجنة التأليف والترجمة ـ ١٩٥٨ تحقيق
الدكتور محمد يوسف

(٢٦) **ابن رشيق : ابو علي ، الحسن بن رشيق القيرواني**
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ـ تحقيق محمد محي‌الدين
عبدالحميد ـ مطبعة حجازي ١٣٥٣ـ١٩٣٤

(٢٧) **الزبيدي :محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق الزبيدي**
تاج العروس ـ طبع المطبعة الخيرية ١٣٠٦

(٢٨) **الزمخشري : محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري**
اعجب العجب في شرح لامية العرب ـ طبع الوراق ـ ١٣٢٨

(٢٩) **زهير بن ابي سلمى**
ديوانه ـ ضمن مجموعة الاعلم الشنتمري ـ تحقيق مصطفى السقا ١٣٤٨ـ١٩٢٩

(٣٠) **ابو زيد القرشي**
محمد بن ابي الخطاب ـ جمهرة اشعار العرب ـ بولاق١٣٠٨

(٣١) **ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي**
طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق محمود محمد شاكر
طبع دار المعارف ـ ١٩٥٢

(٣٢) **سلامة بن جندل**
ديوانه ـ تحقيق الاب لويس شيخو ـ بيروت ١٩١٠

(٣٣) **ابن سيدة : ابو الحسن ، علي بن اسماعيل**
المخصص ـ المطبعة الاميرية ـ بولاق ١٣١٦

(٣٤) **السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر**
المزهر في علوم اللغة وانواعها ـ بولاق ١٢٨٢

(٣٥) **ابن الشجري : ابو السعادات ، هبةالله بن علي بن محمد بن حمزة**
الحماسة ـ طبع حيدر آباد ـ الدكن ١٣٤٥

(٣٦) **الشماخ بن ضرار الغطفاني**
ديوانه ـ مطبعة السعادة ـ ١٣٢٧ القاهرة

(٣٧) **الشنتمري:يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالاعلم الشنتمري**
مختار الشعر الجاهلي ـ تحقيق مصطفى السقا ـ طبع مصطفى البابي الحلبي ١٣٤٨ـ١٩٢٩

(٣٨) **الشنفرى**
ديوانه ـ مطبوع في مجموعة الطرائف الادبية ـ ١٩٤٧
تحقيق : عبدالعزيز الميمني

(٣٩) **شوقي ضيف**
تاريخ الادب العربي ـ العصر الجاهلي
طبع ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٠

(٤٠) **شيخو : الاب لويس شيخو اليسوعي**
(أ) شعراء النصرانية ـ بيروت ١٩٠٠
(ب) رياض الادب في مراثي شواعر العرب ـ طبع بيروت ١٨٩٧ .

(٤١) **صالح احمد العلي**
محاضرات في تاريخ العرب ـ طبع بغداد ١٩٥٩

(٤٢) **طرفة بن العبد**
ديوانه ـ تحقيق وتحليل الدكتور علي الجندي
ديوانه ـ ضمن مجموعة الاعلم ـ تحقيق مصطفى السقا ١٣٤٨ ـ ١٩٢٩

(٤٣) **طه حسين**
في الادب الجاهلي ـ طبع القاهرة ـ ١٣٥٢ ـ ١٩٣٣

(٤٤) **ابن عبد ربه : احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي**
العقد الفريد ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٣٦١ ـ ١٩٤٢

(٤٥) **عبيد بن الابرص**
ديوانه ـ تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار ١٣٧٧ ـ ١٩٥٧
ديوانه ـ طبع بيروت ١٣٧٧ ـ ١٩٥٨

(٤٦) **ابو عبيد : عبدالله بن عبدالعزيز البكري**
(أ) معجم ما استعجم ـ تحقيق مصطفى السقا ـ طبع لجنة التأليف والترجمة ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩
(ب) سمط اللآلي في شرح آمالي القالي ـ تحقيق عبدالعزيز الميمني ١٣٥٤ ـ ١٩٣٦

(٤٧) **ابو عبيدة : معمر بن المثنى**
(أ) النقائض بين جرير والفرزدق ــ تصحيح محمد اسماعيل الصاوي • طبع مطبعة الصاوي ١٣٥٣ــ١٩٣٥
(ب) كتاب الخيل ــ الهند ١٣٥٨
(٤٨) **عروة بن الورد**
ديوانه ــ تصحيح الشيخ ابن ابي شنب ــ طبع الجزائر ١٩٢٦
ديوانه ــ طبع بيروت ١٩٥٣
(٤٩) **علي الجندي**
شعر الحرب في العصر الجاهلي ــ طبع مطبعة الرسالة ــ ١٩٥٨
(٥٠) **عنترة بن شداد**
ديوانه ــ تحقيق وشرح عبدالمنعم عبدالرؤف شلبي ــ طبع القاهرة
ديوانه ــ ضمن مجموعة الاعلم الشنتمري ــ تحقيق مصطفى السقا ١٣٤٨ ــ ١٩٢٩
(٥١) **ابن فارس : ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا**
معجم مقاييس اللغة ــ تحقيق عبدالسلام هارون ــ طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٦٩
(٥٢) **الفيروزابادي : محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم**
قاموس المحيط ــ طبع المكتبة التجارية
(٥٣) **القالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم**
الآمالي ــ دار الكتب ــ ١٣٤٤ ــ ١٩٢٦
(٥٤) **ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم**
(أ) الشعر والشعراء المطبعة التجارية ١٣٣٢
(ب) عيون الاخبار ــ دار الكتب المصرية ١٩٢٥
(ج) أدب الكاتب ــ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ــ المطبعة الرحمانية ١٣٥٥
(٥٥) **قيس بن الخطيم**
ديوانه ــ ليبزج ١٩١٤
ديوانه ــ تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور احمد

مطلوب بغداد ١٣٨١ ـ ١٩٦٢

(٥٦) **ابن الكلبي هشام بن محمد بن السائب**

انساب الخيل ـ تحقيق احمد زكي ـ طبع دار الكتب المصرية ١٩٤٦ .

(٥٧) **المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد**

الكامل في اللغة والادب ـ تحقيق الدكتور زكي مبارك ١٣٥٥ ـ ١٩٣٦

(٥٨) **المحاسني : زكي المحاسني**

شعر الحرب في ادب العرب ـ دار المعارف ١٩٦١

(٥٩) **محمد احمد الغمراوي**

النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي ـ السلفية ١٩٢٩

(٦٠) **محمد محمد حسين**

الهجاء والهجاؤون في العصر الجاهلي ١٩٤٨

(٦١) **محمد الخضر حسين**

نقض كتاب في الشعر الجاهلي ـ السلفية ١٣٤٥

(٦٢) **محمد الخضري**

محاضرات في بيان الاخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي ـ مجلة القضاء المصرية

(٦٣) **محمد بن زياد الاعرابي**

أسماء خيل العرب وفرسانها ـ تحقيق جرجيس لوي دلاويدا

(٦٤) **محمد عبد المعيد خان**

الاساطير العربية قبل الاسلام ـ مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٣٧

(٦٥) **محمد لطفي جمعة**

الشهاب الراصد ـ القاهرة ـ مطبعة المقتطف والمقطم ١٣٤٤ ـ ١٩٢٦

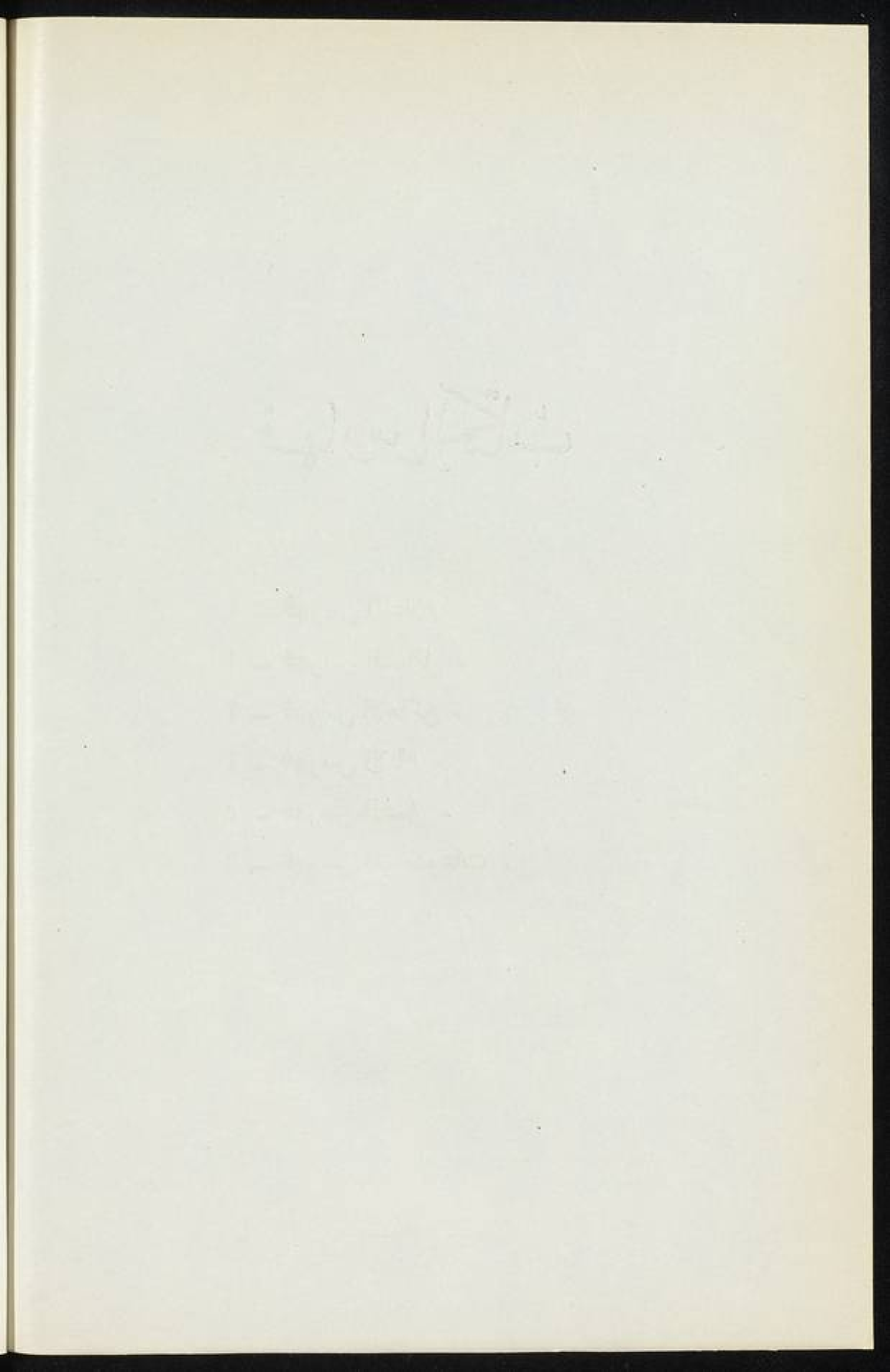
(٦٦) **محمد مهدي البصير**

بعث الشعر الجاهلي ـ بغداد ـ مطبعة التفيض ـ ١٩٣٩

(٦٧) **محي الدين العطار**
بلوغ الارب في مآثر العرب ــ مطبعة الصفا ــ لبنان ــ ١٣١٩
(٦٨) **محمود شكري الالوسي**
بلوغ الارب في أحوال العرب ــ بغداد ١٣١٤
(٦٩) **المرتضى : الشريف المرتضى ــ علي بن الحسين**
آمالي المرتضى ــ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ــ دار الكتب العربية ١٣٧٣ ــ ١٩٥٤
(٧٠) **المرزباني : ابو عبدالله محمد بن عمران**
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ــ السلفية ١٣٤٣
(٧١) **المرزوقي : ابو علي احمد بن محمد بن الحسن**
شرح ديوان الحماسة ــ نشر احمد امين وعبدالسلام هارون ١٩٥١
(٧٢) **المزرد بن ضرار الغطفاني**
ديوانه ــ تحقيق خليل ابراهيم العطية ــ طبع بغداد ١٩٦٢
(٧٣) **مصطفى صادق الرافعي**
تاريخ آداب العرب ــ ١٣٢٩
(٧٤) **المفضل بن محمد الضبي**
المفضليات ــ تحقيق ليال ــ اوكسفورد ١٩٢٠
المفضليات ــ تحقيق احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون طبع ــ مطبعة المعارف ١٣٦١
(٧٥) **ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي بن احمد**
لسان العرب ــ طبع بولاق ١٣٠١
(٧٦) **النابغة الذبياني**
ديوانه ــ دار صادر بيروت ١٣٧٩ ــ ١٩٦٠
ديوانه ــ ضمن مجموعة الاعلم الشنتمري
(٧٧) **ناصر الدين الاسد**
مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ــ طبع دار المعارف ١٩٥٦

(٧٨) **ابن النديم : ابو الفرج محمد بن اسحق بن يعقوب**
كتاب الفهرست ـ المكتبة التجارية ـ مصر ١٣٤٨
(٧٩) **النويري : احمد بن عبدالوهاب بن احمد**
نهاية الارب ـ دار الكتب ١٣٤٢ ـ ١٩٢٤
(٨٠) **ابن هذيل الاندلسي : علي بن عبدالرحمن بن هذيل الاندلسي**
حلية الفرسان وشعار الشجعان ـ تحقيق محمدعبدالغني حسن
طبع ـ دار المعارف ١٩٥١
(٨١) **هذيل**
ديوان الهذليين طبع دار الكتب ١٣٦٧ ـ ١٩٤٨
(٨٢) **ابن هشام : ابو محمد عبدالملك بن هشام**
السيرة النبوية ـ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ـ طبع
القاهرة ـ ١٣٥٦ ـ ١٩٣٧
السيرة النبوية ـ تحقيق مصطفى السقا وجماعته ١٣٧٥ ـ ١٩٥٥
(٨٣) **الهمداني : ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب**
صفة جزيرة العرب ـ بريل ـ ١٨٨٤
(٨٤) **الواقدي**
كتاب المغـــازي
(٨٥) **ولكن**
الامومة عند العرب ـ ترجمة بندلي جوزي ـ كازان ١٩٠٤
(٨٦) **ياقوت : ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي**
معجم الادبـاء ـ تصحيح مرجليوث (سلسلة اوقاف جب)
القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦
معجم البلدان ـ بيروت ، دار صادر ١٣٧٤ ـ ١٩٥٥
(٨٧) **يوسف بطرس غالي**
تقاليد الفروسية عند العرب ـ طبع دار المعارف ١٩٦٠
(٨٨) **يوسف خليف**
الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ـ طبع دار المعارف ١٩٥٩

فهارس الكتاب



الاعـــلام

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

القبائل

الامـــاكن

الايــــام

الخيـــل

فهرس الموضوعات





CHIVALRY IN PRE-ISLAMIC POETRY

•

by

Nouri Hammoudi AL-Qaisi

•

Published
by
AL - Nahdah Bookshop

Baghdad - Iraq
1964

•

مطبعة دار التضامن ـ بغداد

